

أحمد عبد المجيد

رحلة مع الظرفاء



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



أحمد عبد المجيد



اقرأ ٤١٦

دار المعارف بمصر

(اقرأ - ٤١٦)

الناشر: دار المعارف بمصر- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة . ج . م . ع .

تمهيد

تجمعت لى من أطراف العالم ، سهوله وأعاليه ، وحواضره وبواديه ، مادة وفيرة من كل ما اتصل بالظَّرف ، أو أَلَمّ به ، أو طاف حوله وحول أهله من الماجنين وسمّار لياليه ، ومن اشتهر من الظرفاء فى العالمين العربى والغربى .

وقد يجتمع القول الظريف ، وبناؤه اللطيف ، فى ماحيته وعمقه ، داخل إطار واحد ، وعلى قاعدة ثابتة ، مهما تباينت الأجناس والأذواق والمشاعر والأحاسيس ، ومهما سلك أهل الظرف من الدروب ، ومن وسائل أكثرها من وحى الخاطر ، وأقلها مما كان عن دراسة وتعمق وفلسفة .

وهذا الاستقطاب لكافة الاتجاهات ، ومختلف طرائق البشر فى سَوْق الفكاهة ، أو خلق النادرة ، وفى عناصر الظرف وقواعد المجون ، هو مهمة هذا الكتاب ، للتعريف بما وراء المجون من مواقف ودواع .

ولست أزعم أن ما أعرضه شيئاً فريداً جديداً ، إذ أن الأدب الغربى والأدب العربى يزخران بكتب وفيرة فى هذه المادة ، حتى لقد أصبح الأدب والظرف نسيجاً واحداً ، لا بد لأحدهما من صحبة الآخر ، ولا غناء لهذا عن ذلك .

ولست أدرى هل عرف التاريخ عصراً لم يكن فيه المجون والظرف من ضرورات الحياة ولوازم الحضارة الحديثة ، إلى حد أن فنون الآداب كانت تطلق منذ القرن الثالث الهجرى ، على فنون المنادمة عند العرب ، بما كانت

تحويه من فكاهة ونوادر وغناء وموسيقى ومطارحة للشعر ومساجلة فى المدح أو الهجاء .

كما أننى لا أدرى ، هل عرف الناس أدباً خلا من الملح والطرائف ، التى هى قوام كل أدب ، وصميم كل أدب ، والأنس الذى يشرح الصدر ، ويجلب راحة الفكر ، أينما حل الإنسان وحيثما ولّى وجهه .

ولقد صدق معاوية فى قوله الذى أورده الصابى فى تحفة الأدباء :

« لا يكون للمرء صبرٌ على الجد ، حتى يأخذ من الهزل قدراً » .

والمجون ملازم للإنسان فى حالى الصحة والمرض ، واليسر والعسر ، والراحة والتعب ، والرخاء والشّدة . وإذا كان مفهوماً أن يكون المجون ملازماً لحالات الصحة والرخاء واليسر ، فإن قيامه فى الأمور المضادة يكون عجيباً ومستغرباً ، ولكنه عجب يزول إذا عرفنا أن التنديد من طبع الإنسان ، إذا فاق الحد ، فى اللعب أو الجد ، وفيما يعترض حياة الناس فى مسعاهم ، من بخل وجشع ، ونفاق وتبجح ، واستكانة وحاجة ، وأن هذا التنديد يشحذ قدرات الكتاب والشعراء ، وهذا هو لب الفكاهة وصميم المجون ، فى شرق كان ذلك أو فى غرب .

من ذلك قول عبد الحميد الديب وهو فى أشد حالات العوز والحاجة يصف حجرته التى لم يكن بها من أثاث سواه :

تحمّلت فيها صبر أيوب فى الضّنى
وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى

* * *

ومهما يكن من أمر ما صدر فى هذا الشأن من كتب ، فإن الأقلام قد

تناولت كارل ماركس ، وشكسبير وبايرون وفيكتور هيجو ولامارتين ، وبرنارد شو ، وأبا العلاء المعرى وابن الرومى والمتنبى ، وكانت لكل كاتب زاويته التى تناول منها أدب المترجم له ، مثلما يصنع الرسامون والنحاتون فى الموديل المعروض ، الذى ينقلون عنه أحاسيسهم ورؤيتهم الخاصة من زواياهم المختلفة ، ليروا فى الموديل رؤى لا تلمحها العين المجردة ، ولينقلوا عنه بفرشاتهم ، تلك الأحاسيس والمشاعر ، بعد أن استشفوا من واقع ما رأوا ، أفانين من الحقائق والأوهام ، تدب فى أوصالها الحياة والفن .

الفصل الأول

مدخل إلى عالم الفكاهة والمجون

النكتة كما فسَّرها علماء النفس والفلاسفة ، إنما هى محاولة لإعادة التوازن داخل النفس المضطربة القلقة ، التى هزَّتها أحداث زعزعتها عندما وقعت خارجها ونفذت إليها ، فرأت تلك النَّفس أن تستعيد توازنها بالضحك أو افتعاله .

ويقول ماوتسى تونج ، فى معرض متابعته للصراعات الدولية والتوازن الدولى : « إن خلل التوازن هو القاعدة ، والتوازن هو الاستثناء . انظروا إلى القمر ! ما هى المدة التى يتوازن فيها ويصبح بدراً ؟ إنها ليلة واحدة فى الشهر ، ثم يبدأ بعدها خلل التوازن » .

والنكتة تتطلب من المتلقى لها ، لماحية وقدرة على التصور والتخيل ،فإذا ما افتقرت إلى هذا النوع من المتلقِّين والمستمعين ، احترقت . . كما يقولون ولا تجد على وجه مستمعها إلا مزيجاً من البلاهة وعدم الفهم . ولولا خوفه من اتهامهم بالغباء ، لسأل جاره : ماذا يعنى الأخ ؟ . . .

كذلك تتطلب النكتة من راويها ، حُسن إلقاء ، وخفة ظل ، وبراعة عرض ، مع اختيار مناسب ، إلى جانب تمثيل للمواقف بالإشارة أو حركات الوجه ، لتكتمل صورة ما يرويه مؤدى الفكاهة .

كان الرّسام (لوتريك) الفرنسي فنّاناً قديراً فى عالم الرَّسم . وكانت دمامته تحول دون اجتماعه بالمرأة ، نأياً بنفسه عن رؤية ما يؤذى وجدانه ، ويجرح كبرياءه ، من مظاهر النفور منه من جانب المرأة .

من أجل ذلك آثر البعد عنها ، وإن كان يقترب منها بفرشاته ، كلما رأى جمالا يلح عليه ، وما يزال به حتى يسجله ، ليحتفى بما رسم ، ويتلذذ بما صنع .

وقد مرّت به مع المرأة تجربة جعلته يختط لنفسه هذا الطريق .

وكان يقول فى معرض تحليل المرأة من واقع تجربته المرّة ، وألمه الدفين ، وإحساسه المرهف وسُخره اللاذع :

« إن المرأة إذا أحبّت ، والمرأة إذا كرهت . . . لا ترحم . . . »

هنا يجىء دور المتلقى لهذا القول الحكيم ، النابع من تحليل وقدرة على التغلغل فى أغوار النفس البشرية ، وفى دخيلة المرأة بوجه خاص ، وقدرة على التهكم بأسلوب ذكى .

فعلى المتلقى أن يتصور امرأة أحبت رجلا لا يقابلها عاطفة بعاطفة ، بل يتجنّبها كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهى تلاحقه دون هوادة ، فلعله أن يقع مرة ، لتبدأ معه غرامها فى الانتقام لكبريائها ، وويلٌ للمغلوب .

والصورة المقابلة لهذه الصورة ، تكون عندما يحب رجل امرأة تنفر منه وهو يتابعها ويلاحقها وكأنها فى سباق ماراتون . هذه الصورة الهزلية يرسمها خيال المتلقى اللماح ، وكأنه يشاهدها على إحدى الشاشتين . . .

والنكتة المصرية بصفة خاصة ، هى التى تكشف عن العلاقة بين المصرى ، وبين ما أنطوت عليه جوانحه من حب للمرح ، وبذل للود ،

ورغبة فى الاستمتاع والانطلاق فى أجواء لا تحدها إلا حدود الذوق ، التى يقيمها هو بنفسه ، ويجعل منها سياجاً لا يتعداه ولا يجاوزه إلى ما يحرج أو يجرح . ذلك أن المصرى ، من أى طبقة كانت ، يحمل نفسه على أن تكون على ما يحبه لها ، بعيدة عما يجرح إحساس الآخرين ، حتى لا يعرض ذاته لمثل هذا التجريح .

وقد رسم قاسم أمين ، لابن البلد المصرى ، صورة قلمية بارعة ، تنم عن قدرته على استجلاء الغامض ، وكشف ما لا يبين .

فابن البلد فى تصويره إنما هو :

« رجل خفيف لطيف ، لا تغيب البشاشة عن وجهه . ولم يره أحد غير مبتسم . إذا قال لك نهارك سعيد ، ضحك ، وإذا أخبرته أن الهواء طيّب ضحك ، وإذا سمع أن صديقاً مات ، ضحك ، (فربما تذكر لهذا الصديق موقفاً أثار ضحكه) . إنه زينة المجالس ، وأنيس النوادى . يرى نفسه مكلّفاً بوظيفة السرور فيها ، ومنوطاً بنشر التفريح حوله ، مستخدماً كل شيء لتسلية نفسه وأصحابه » .

وفى يقينى أن الإنسان الضاحك ، أو الذى يصنع الضحك ، هو إنسان رقيق المشاعر ، مرهف الحس . فليس الإضحاك بالأمر الهيِّن ، بل الهيِّن هو بعث البكاء واستحداث الأسى . من أجل ذلك كان كتّاب الكوميديا قلة إذا قيسوا بكتاب التراجيديات ، منذ المسرح الإغريقى حتى زماننا هذا .

وكان مهرجان ديونيسوس إله الخمر والإخصاب ، يقام فى مسرح الأكروبول على مدى ستة أيام . تُخصص أربعة منها لعرض التراجيديا

واثنان منها لعرض الكوميديا بين كتاب هذين النوعين من الدراما ، فى مسابقة تخصص لها جوائز . وكانت التراجيديا من حيث النشأة والظهور ، أسبق من الكوميديا ، مثلما كان الشعر من الناحية التاريخية أسبق من النثر .

والإنسان الضاحك ، على قدر استجابته للضحك ، أو قدرته على إثارته ، نراه سريع الاستجابة للبكاء إن دعا داعيه ، أو حدث ما يحمله عليه . فهو مرهف الحس كوتر الكمان . .

ويقول شاعر لمّاح :

إذا أنا لم أضحك فقدت مشاعرى

وإن أنا لم أحزن فقدت شعورى

* * *

وربما كان المصرى القديم الذى بنى الأهرام الخالد ، وشيَّد المعابد والتماثيل التى تطاول الزمان وعواديه ، وزخرفها بأفانين من رسوم وديكور وألوان عزَّت على الأفهام أسرار تركيبها . والذى صنع أول حضارة إنسانية ، وقام بأول ثورة عرفها التاريخ عندما خرج عن المألوف ، ووحّد الإله المعبود ، على يد أخناتون ، نقول . ربما كان هذا المصرى ، هو الإنسان الأول ، الذى رسم على الأرض طريق الحياة ، وأقام عليها أول حضارة إنسانية عرفتها الدنيا ، عندما كانت العوالم الأخرى فى بيداء التأخر ، وانعدام المعرفة وبدائية العيش .

هذا المصرى القديم ، ربما كان هو أول من ضحك من بين كائنات

هذه الأرض العجوز . لقد كان يسجل فكاهاته وسخرياته على أحجار الأعمدة والجدران والمعابد فى صور كاريكاتيرية لوجوه حيوانات على أجساد آدمية ، ويتخذ من الأوزة مثلاً ، وحشاً كاسراً يسوق أمامه أسداً هصوراً . أو منظر حمار يلاعب أسداً بقطع من الحجارة ، إشارة ذكية من الفنان إلى أنه يلقى بنفسه إلى الهلاك لأنه ، حمارٌ . . حمارٌ . . . وذو نسب بين الحمير عريق . . . .

* * *

وربما كان المصرى من أبناء البلد ، من أكثر الناس انزعاجاً لرؤية أى نقص أو عيب فيما حوله من كائنات متحركة أو جامدة . وإنك لتستمع منه إلى قوله (آخر لطافة) لأنه يعشق الكمال .

والقهوة البلدية خير شاهد على ذلك . فالقائمون بالخدمة فيها ، ما إن يحل الغروب ، حتى يأخذوا فى رش ما حولها بالماء ، حتى لا تثير الريح الأتربة ، وتزعج الروَّاد . وحدِّث عن الكراسى وعنايتهم فى رصّها وصفّها فى مربعات هندسية أو صفوف متراصة أفقية ساذجة ، ولكنها ذكية اقتصادية

أما بريق الأوانى النحاسية فهو همهُّم فى النهار ، وهمَّهم فى الليل ، ومذلتهم إذا اكتشف المعلم انطفاء لها أو خيِّل له ذلك ، إذا انطفأ فجأة مزاجه . . .

وهم يضعون جهاز الراديو فى مكان لا تصل إليه إلا أيديهم ، ويختارون له وضعاً رُواقيًّا ، مثلما كان الأساتذة والمشايخ فى الزمان القديم يتصدرون أروقتهم ، التى يلقون فيها دروسهم فى المساجد على مرتفع من الأرض .

ولا بد من زهور توضع بعناية فى آنية فخّارية وأغلب هذه الزهور أو (الصُحبات) من العتر والرّيحان والنعناع ، ليزدان المقهى بها وتسعد بنفحها نفوس الروّاد .

والمناداة على الطلبات تتسّم بظرف جذاب ، ترتاح له أذن الزبون وصاحب المقهى ، فالتنغيم مستطاب ، والصوت عالى النبّرة ، رنّان الجرس ، نادىِ القرار .

وصبي القهوة ، يفتنّ فى تبجيل الزبائن من كبار الأسطوات والمعلمين ، لا طمعاً فى رفدهم ، ولكن إعجاباً بهم وتقديراً لمقامهم ، لأنهم أصحاب (معْلَمة) ، كل واحد منهم قطبٌ فى صنعته وملك بين صبيانه .

ويرون أن رجلاً رقيق الحال ، قصد مقهى من هذه المقاهى البلدية ، ولم يكن يملك ثمن طلبه . وقد أسرّبذلك فى أذن الصبي الذى طيّب خاطره ، وأفهمه أن رقبته سدّادة ، ثم نادى بصوت مرتفع للعامل الذى يعد الطلبات داخل المقهى ، ويسجّل فى الوقت ذاته ، عدد الطلبات وأثمانها ، قائلا :

شاى كُشري للسيد مغاوري والحساب عندما تُفرج . . . إنه لا يقصد إحراجه ، ولكنه يريد ألا يسجل العامل الذى يقوم بإعداد الطلبات ، ثمن هذا الطلب فى حساب وإيراد هذه الليلة ، ولكنه يريده على أن يرجئه إلى ميسرة ، كما وعد الزبون ، ولن تتأخر عن الغد أو بعده بيومين .

وابن البلد هذا رقيق فى معشره ، لا يفحش القول إلا إذا استثير ، وعند ذاك تشهد مباراة ، لا أذن سمعت ولا عين رأت مثلها ، فهو يختار قاذع القول الذى يصيب به هدفه فى دقة ودراية ، ويصفه خارجيًّا وداخليًّا ، بما فى ذلك أهل بيته ، كأنه أشعة الليزر . . . وأحسب أن من خير ما كتبه

الكاتب البريطانى T. A. Wilson ، عن المصريين ، قوله :

« قد تكون الحضارة المصرية حصيلة الموقع الجغرافى ، والأرض السمراء الخصبة ، المستدفئة بشمس أفريقيا . ولكن السبب الأكبر الذى يكمن وراء هذه الحضارة ، هو عقيدة المصرى القديم ، بأن مصر يحكمها إله ، هو ابن إله الشمس ، الذى يمنح مصر الخلود ، ويحرر أهلها من الخوف »

ذلك أن التحرر من الخوف يبعث على الاطمئنان . والاطمئنان سبيل الأمل والتفتح للحياة . ومن تفتّحت مشاعره للحياة ، اندفع يعبّ منها وينهل مستبشراً فرحاً . والاستبشار مدعاة للضحك والانشراح ، والانطلاق إلى العمل بروح متفائلة .

والمرء إذا زايلت نفسه معاول الخوف الذى يحطم الإرادة ، ويهدم القيم الأخلاقية ، ويدفع بصاحبه إلى الكذب والنفاق والمذلة ، ويباعد بينه وبين أى مبهجة أو ابتسام ، اندفع مع تيار الحياة ليأخذ بنصيبه من مرحها وبهجتها ، ومن المشاركة بالعمل المخلص الصادق .

وما أظن أن امرءاً يخاف من شيء أو يخشى عاقبة أمر ، إذا كان قادراً على الأضحاك وانبعاث الفكاهة ، لأنه ينطلق على طبيعته ويترجم عن إحساس خلا من التعقيد ، ويواكب سجيته التى ركبها الله فيه ، وأنعم بها عليه .

ومهما بلغ الوقار بأحد كائناً من يكون ، يستطيع أن يمسك نفسه عن الضحك إذا ما استمع لقائل أو راوٍ ، لحكاية الشغّالة الصغيرة ، التى دقّت باب جارتهم فى السكن ، فلما فتحت الجارة ، بادرتها الشغّالة بقولها : ستى بتصبح عليكى ، وبتقول لك اضربينى قلمين ، علشان إيدها مش فاضية . . .

أو حكاية الراكب فى الترام ، الذى أعطى الكمسارى عشرة قروش ، وكان إلى جواره راكب آخر أعطى للكمسارى قرشاً واحداً ، وكان الزحام حائلا دون التعرف على وجوه دافعى أجرة الركوب . وبعد قليل نادى صاحب العشرة قروش على الكمسارى ليرد له باقى العشرة قروش ، لأن محطة نزوله هى القادمة . وكان الكمسارى بسبب الزحام ، قد ناول هذا الباقى لمن دفع قرشاً واحداً على اعتبار أنه هو صاحب العشرة قروش . ولكن الكمسارى أفهمه أنه ناوله باقى ما دفع ، فأنكر الرجل ، وإذا بالكمسارى فجأة يلمح وجه الراكب الذى دفع قرشاً وأخذ باقى العشرة قروش ، فقال له فى غيظ : ألم تأخذ منى باقى عشرة قروش ، فلم ينكر الراكب ولكنه قال للكمسارى بثبات : وأنا أعرف منين ثمن التذكرة عندكم يطلع بكام . . .

وكذلك ما يروى من أن السيدة عائشة رضى الله عنها ، أرسلت تابعاً بدوياً ذات يوم ليأتيها بقبس من نار للدار . وبينا البدوى يلتمس القبس شاهد قافلة تسير إلى مصر ، فمضى معها ومكث بها عاماً ، ثم حنّ لمآلفه وأهله فعاد . وخلال مروره بطرق المدينة ، تذكر القبس عندما رأى ناراً على مبعدة ، فعدا إليها ، فتعثر ووقع على الأرض ، ثم نهض وهو يقول : لعن الله العجلة . . .

وليس أبعث على الضحك من المفارقة التى تعد أساس كل ضحك وفكاهة ونكتة . وقد رأينا فى الحكايات الثلاث السالفة ، قدر المفارقة الذى كان هو أساس الإضحاك فيها . وسوف يأتى شرح ذلك فى فصل قادم .

والفكاهة والنكتة والظرف والمجون ، أجهزة لا تستطيع كل يد أن تلعب بها أو تستخدمها . فإن لها لطرائق خاصة وفلسفة خاصة وقدرة فى

الاستعمال كقدرة الطبيب الجراح فى استعمال المبضع ، توخّياً من أن تجاوز ما هو مقصود منها إلى ما يجرح أو يسيء ، ما دام القصد منها إضحاكاً يقتضيه المقام فى حدود مرسومة ، سادنها الذوق العام ، والبعد عن الإيلام ، والتوسل بها لنقدٍ بريء ، يتطلب النصح والتوجيه والإشارة .

والفكاهة من قبل ومن بعد ، مثلها مثل ملح الطعام ، قليله ضرورى ومرغوب ، وكثيره متلف وضار .

وشرح سيجموند فرويد النكتة بقوله :

النكتة ضرب من القصد الشعورى ، والعملى ، يلجأ إليها الإنسان ليعفى نفسه من الواجبات الثقيلة ، و يتحلل من الحرج الذى يوقعه فيه الجد ولوازم العمل .

ونبي الفطرة ، محمد عليه الصلاة والسلام ، يقول فى حديثٍ ، هو قبسٌ من الذكر الحكيم :

« روحوا عن النفوس ، فى الحين بعد الحين ، فإن النفوس إذا كلّت عميت » .

الفصل الثانى

الفكاهة والمجون فى ضوء العلم والفلسفة

بالضحك يستعيد الإنسان ما اهتزّت له نفسه من أحداث نزلت به . فهو يقاوم بحركة لاشعورية هذا الذى حلّ بـه من حدث أمضّه وأزعجه ، بابتسامة أو ضحكة أو قهقهة فى بعض الأحيان . إنها عملية موازنة ، مُسيّر هو فيها لا مخيَّر .

إنها أشبه بموقف كرات الدم البيضاء من الميكروبات الدخيلة التى تقف منها بالمرصاد للقضاء عليها إن حاولت التسلل .

فعندما يصاب امرؤ بجرح ، فإنه ينزف حتى ينقطع النزيف عند حد محدود بالعلاجات المألوفة المتيسرة .

عند هذه النقطة ، تبدأ الكرات البيضاء التى يتكون الدم منها ومن شقيقتها الحمراء ، فى العمل بنشاط وانتباه ، لمنع أى ميكروب من التسلل إلى الجرح الذى يكون قد بدأ فى الاندمال .

ولولا هذه الكرات البيضاء ، لتلوث الجرح بما يتسلل إليه من ميكروبات ، كانت تتحين الفرص للانقضاض ، غير مقيمة وزناً لما ينتظرها من تهلكة .

هذه الحركة البيولوجية التى وضعها الخالق لحكمة بقاء النوع ،

بقدر معلوم وفى زمنٍ موقوت ، هى الموازنة التى أشرنا إليها فيما سلف ، بين اهتزاز النفس ، وبين اندفاع الابتسام أو الضحك ، الذى يقينا من الانخراط فى البكاء أو الانطواء على ألم ، كترياق سريع المفعول ، مضمون الأثر.

ولكن هناك سؤال يلح فى طلب الجواب والشرح .

لماذا يضحك الكائن الحى ؟ .

الكائن الحى ، من إنسان أو حيوانٍ أو طير أو نبات ، ترتسم على أساريره أو أعضائه الابتسامة فى ظروف معينة ، وعند وقوع أحداث تحمله حملاً لا حيلة له فيه على الابتسام أو الضحك أو القهقهة ، على قدر ما يحمله الدافع إلى الضحك من شحنات و بواعث ومن نوازع وهواتف .

فالرجل والمرأة ، وما بينهما من شبان وشابات ، وصبيان وصبايا ، وأطفال وطفلات ، يبتسمون و يضحكون عند سماعهم أو رؤيتهم ما يضحك ، أو عند ارتياحهم لأمر جاء وفق ما تمنوا ، أو لسماعهم نبأً جاء على هوى ما كانوا ينتظرون .

فالرجل إذا سمع نبأ نجاح ولده ابتسم وانشرح . والأم إذا جاء لابنتها خطيب مرموق ، ضحكت وربما زغردت . والزغرودة فى مصر أعلى مراتب الفرح ، وليس لى أن أقرر ما إذا كان لها مثيل فى غير مصر ، وإن كنت لم أسمعها فى كل ما زرته من أقطار متعددة .

وقل المثل فى الشبان والشابات عندما يسمعون ما يحبون . أما الطفل فإنك إذا ناولته شيئاً مما يحب كقطعة من الشيكولاته ، فإنه يبتسم ابتسامة ملائكية ، تحملك على إعادة العطاء ، لتسعد بمثل هذه الابتسامة (والغاوى ينقط بطاقيته) .

والطير الذى يصدح ويهدل ويزقزق ، فوق غصن فينان ، إنما يصنع ذلك إعراباً عما يحسه من متعة الأنس والانشراح . والكروان الذى يسبِّح ويصدح ويتغنَّى بوحدانية الله ، دليلٌ حىٌّ صائت على شعوره بالمَسَرَّة والابتهاج . ولن تجد كرواناً يصدح إلا قريباً من مجرى الماء ، الذى هو أصل كل شىء حى .

والحيوانات التى تتصل حياتها بحياة الإنسان ، مثل الكلاب والقطط والخيول ، لها طرائقها فى إبداء السرور والابتهاج . فالكلب يهز ذيله عند عودة صاحبه بعد غيبة ، طالت أو قصرت ، فإنه يرتاح لوجوده ويبتهج بوجوده . وهو يهز ذيله كذلك فى مناسبة أعظم ، وهى عندما يقدم إليه ما يحب تناوله من الأطعمة .

والقط يتنازل أحياناً ، ويتمسَّح فى صاحبه ، إظهاراً لرضاه وارتياحه وسروره ؛ ثم يتمطَّى فى دلال وحركات أنيقة ، حملَ الشاعر الشعبي على أن يقول :

« خُذ الدلال من الحمام والبِدع من القطة »

وهو ضنين بهذا السرور الذى يبديه . فالكبر فى طبعه ، والجحود ديدنه ، منذ أن اتخذه قوم من قديم الزمان إلٰهاً يعبدونه ، فاستخفّ بعقول الناس ، وراح يتعالى ويتكبّر . والقط يأنس للمكان لا للسكان . فإذا تبدلوا أو شالت ريحهم ، فالأمر عنده لا يعنيه ، ما دامت الجدران هى الجدران والأثاث الوثير الذى يفترشه ما يزال فى مكانه .

والحصان عندما يبتسم ، يكشف عن ثنايا أسنانه ولثته ، ومتسع خياشيم أنفه ، ويهز ذيله فرحاً وانشراحاً بما يحسه من عوامل البهجة ، إلى جانب

دقّ الأرض بقدمه . والحصان الأصيل يعرف صاحبه ، ولا يألف على ظهره سواه ، بل ربما أوقعه على الأرض ، فليس هو بالمطية لكل من هبَّ ودبَّ ، ولكنه يتخير الفارس الرشيق العالم بسرائره .وهو يبتسم لصاحبه هذا إذا اقترب منه ليلاطفه أو ليمنحه قطعة سكر أو شيئاً من اللوز والفستق ، جزاء له على فوزه فى سباق الخيل أو قفز للحواجز .

ولعلنا لا نجاوز المنطق ، إذا سلكنا النبات والماء فى سلك الكائنات الحية التى تضحك وتبتسم .

إنك إذا استجمعت كامل أحاسيسك الدفينة ، ونظرت إلى نبات ظامئ وأنت ترويه ، بدفقات صغيرة متأنية من الماء ، الذى ينساب إلى أرضه المشقَّقة ، من فرط الظمأ ، أمكنك أن تشعر بحسّك هذا الشفيف ، بآيات الرضا والفرح ترقرق على ورق هذا النبات ، وكأنه يبتسم لك تعبيراً عما أوليته من نعمة الريّ وحنان الرعاية .

والبحر فى هدوئه إذا نظرت إليه والريح من حوله رخاء ، والنهر فى جريانه إذا ما تابعت مساره الوئيد الوسنان ، راعك منهما رضى يتجسَّد فى همهمة للبحر كأنما يتغنىّ ، وفى وشوشة موج النهر وهينماته المرحة اللعوب ، كأنه يكتم ضحكة خافتة ندَّت عنه ، ولكنك تسمعها مهما حاول إخفاءها . وخرير الجدول موسيقى راقصة ضاحكة ، يعبر بها عن فرحه بفقزاته الغريرة فوق صخور المجرى .

والفولكلور الشعبى العريق العميق الرقيق ، لم يفته الإحساس بهذا الهمس الساحر من ابتسامات وضحكات مكتومة ، تنعكس على صفحة البحر أو النهر ، فراح شاعره يسجل انطلاق الصبايا وهن يتغنَّين بأغنيته

التى صاغها لهن ، وهن فى طريقهن إلى النهر لملء جرارهن من مائه السلسال النمير ، تقول كلماتها :

البحـــر بيضحك ليه   وأنا نازله ادَّلع املا القلل

* * *

نعود لنسأل . هذا الكائن الحى ، ما الذى يضحكه ؟

مما أوردنا فيما سلف ، نجد أن راحة الأب لنجاح ولده ، ورضى الأم لخطوبة ابنتها ، وفرحة الطفل بحصوله على أشهى ما يتمنى وهى الشيكولاتة ، التى يتم بها اعتدال مزاجه ، كأى صاحب كيف ، ولا أهمية عنده لما عداها من سكريات ، أقول إن نوال كل هذه المتمنيات ، بعث مرحاً ، تشكل فى ابتسامة ، هى حركة عضلات متعددة فى وجه المبتسم ، تجمعت كلها وارتسمت على صورة ابتسامة . فإذا انفرجت هذه الابتسامة وغدت ضحكة ، احتاجت إلى عضلات أكثر ، واستخدامات أوسع لهذه العضلات التى تمتد إذا ازداد الضحك إلى منطقة البطن . وكثيراً ما نسمع من أحد ، أضحكه موقف ، قولهآه يا بطنى . . .

والمعنى المستخلص من ذلك ، أن الابتسامة إنما هى تعبير عن الفرحة بنيل شىء مرغوب ، والوصول إلىمبتغى تحقق ، فشاعت الفرحة ، واتسعت البسمة ، وتعالت الضحكات .

إلا أن علم النفس لا يقف عند هذا الحد ، بل ينصرف إلى إيراد تحليل آخر للموقف المثير للضحك ، وللظرف المحيط بالضاحك .

فعلماء النفس يرجعون مبعث الضحك إلى حالات من غرابة المفارقة حيناً ، أو الخروج عن مألوف القول ، أو الإشـــارة ، أو العمل أحياناً .

كما يرجعون أسبابها إلى أنانية الضاحك ، عندما يرى موقفاً يقع فيه على الأرض ، وجيه ذو هيبة ووقار ، يرتدى بزّة غالية أنيقة ، حتى إذا ما انطرح على الأرض لسبب خارج عن إرادته ، راح يلملم أطراف وقار تبعثر ، وثياب علاها التراب ، ووقف ليستعيد اتزانه ، وليهرب من أنظار متطفلة وبسمات متوارية ، خجلاً منه ، لا رثاء له .

فى رأى علماء النفس ، أن الضاحك ، رأى فى تعثر هذا الوجيه الوقور مفارقة كبرى ، ورآه ينبطح على الأرض فى وقار حاول أن يجمع شوارده ، ولكنه تخلّى عنه وتركه يقع ومن حوله حاجياته من نظّارة إلى عصا إلى سيجار ، وهى مبعثرة على قارعة الطريق .

هذه المفارقة يتضح حجمها ، إذا ما قسناها بالحدث نفسه ، إذا ما جرى لصبى جزار مثلا ، وقع على الأرض مع دراجته التى حمل عليها فخذاً من اللحم سميناً وثميناً . . . إنه يقوم سليماً معافى ، دون أن ينال تراب الطريق من ملابسه شيئاً ، (وماذا تأخذ الريح من البلاط) .

هذا المنظر لا يثير ضحك أحد ، مثلما أثار المنظر الأول ضحك الضاحكين .

ويسترسل علماء النفس فى إيرادهم لبواعث أحرى للضحك ، مستلهمين فى ذلك بما انطوت عليه الطبيعة البشرية من ضعف أو استعلاء .

فالإنسان بطبعه محب لذاته ، لا يحب أن يقع فيما وقع فيه غيره من الشر. أما الخير ، فهو طامعٌ فيه ، متلهف عليه ، مشتاق إليه ، ومانعه عن غيره كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهذا ديدن النفوس الشريرة النهمة ، وما أكثرها .

وقد رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه استمع إلى أعرابى ، بعد أن قُضيت الصلاة ، يدعو الله أن يدخله ومحمداً الجنّة وحدهما . فاستدرك النبي وذكر للرجل أن الجنة سعتها السماوات والأرض ، وهى تتسع لكل المتقين .

والذى ضحك على الوجيه الذى افترش أرض الطريق ، وتبعثرت أشياؤه وأشلاؤه ، إنما يضحك لأنه نجا من وقوع ذلك له ، وأنه كما يقولون ، أخذ الشر وراح . ولذلك فإنه يحمد الله على أنه لم يكن فى هذا الموقف .

وقد استطاع شارلى شابلن أن ينفذ بذكائه اللمّاح ، وعمقه الفلسفى إلى نخاع هذه الظاهرة العميقة ، ويستغلها على أحسن ما يكون عليه الاستغلال فى أفلامه .

فالمشاهد إذا رآه يوقع برجل الشرطة ، الذى يمثل سلطات الأمن كلها ، على الأرض ، فإنه يضحك للمفارقة أولا ، ثم لأن ذلك لم يحدث له ، وأخيراً لأنه يعلم أن الأمر قائم على التمثيل لا الحقيقة ، وإلا لأخذوه إلى القسم شاهداً على ما رأى . . ويدخل فى حلقة س ، ج المعهودة . .

وعندما يرى المشاهد ، شارلى ، وهو يعدو هارباً من كلب يطارده ثم لا يلبث الكلب ، بإرادة المخرج ، أن يلحق بشارلى ويأخذ فى تمزيق سرواله وعضّه ، استغرق هذا المشاهد فى ضحك متواصل ، تهتز له كل أطرافه وعضلات جسمه ، للأسباب الأولى نفسها .

هذا الخيط الرفيع ، التقطه بمهارة وذكاء واقتدار ، نجيب الريحانى ، وراح ينسج من غزله مفارقات ومواقف ، بناها على حب الإنسان لذاته ، وميله إلى أن يرى غيره فى مأزق هو فى منجاة منه ، ومبعدة عنه ، وبعيد

فليكن الطوفان . وإلى جانب هذا الشعور ، فإن بعض النفوس ترثى لذلك ، ويبعثها هذا الشعور النبيل على ضحك راقٍ .

ويذهب بعض الفلاسفة إلى أن هناك علاقة وثيقة بين الضحك والتعاطف والمشاركة الوجدانية .

ذلك أن بعض طبائعنا الرقيقة ، تتأذى إذا فاض بها الانفعال من جراء منظر تتأثر له هذه الطبيعة النفسية الحسَّاسة .

من أجل ذلك اخترعت لنا القدرة الإلهية ، حيلة ومخرجاً بيولوجيين ، فى صورة الضحك ، ليقيانا آثار الانفعال المباغت ، والشفقة المستجيبة لنوازع النفس ، والتعاطف البالغ عندما نحس بالآم الآخرين إذا وقعوا فى مأزق أو نكبة أو ورطة .

ومحتوى هذه الحيلة وهذا المخرج ، يتمثل فى أن الضحك فى مثل ما ذكرنا من حالات التعاطف ، إنما هو استجابة للألم لا للسرور ، بحيث إننا إذا لم نضحك ، استرسلنا فى حالة من الضيق والكرب هى نتاج زيادة التعاطف والمشاركة الوجدانية لدى النفوس الرقيقة ، التى ينالها من الكرب بعضاً مما شاهدت .

وتأييداً لهذا الفريق من الفلاسفة يقول ، Mac Dougol فى كتابه An Outline of Psychology إن النظرية الحقيقية فى تفسير بواعث الضحك ، يمكن أن تتلخص فى عبارة واحدة ، مضمونها ، أن الضحك ترياق سريع المفعول ، يمنع من التعاطف والمشاركة الوجدانية Antidote to Sympathy ، ودفعها للانفعالات التى تصيبنا ، فلا نجد لها مخرجاً إلا بالضحك .

وإذا كان الضحك يبعث على إدخال السرور إلى نفوسنا فإننا نحس السرور لأننا نضحك ، وكلاهما جاذب للآخر ، وباعث عليه .

وأذكر أن الزنوج الإفريقيين فى أمريكا ، كانوا يضعون ألحاناً دينية تعرف بالروحيات ، ويتغنون بها مع نغمات الجاز المرقص ، تصحبها الطبول الإيقاعية الموافقة لأصوات غنائهم . وكانت هذه الأغانى ، يغلب عليها مسحة الحزن ، لانصرافها إلى التعبير عن بؤس حياة الزنوج ، إلا أن ذلك لا يمنع من استخدامها فى الترويح والرقص على أنغامها ، أيًّا كان محتواها .

وقامت إلى جانب هذه الأغانى ، أغانى (البلوز) Blues ، التى تعبّر عن الفراغ واليأس والجوع والحنين والحسرة عند هؤلاء الزنوج .

وعلى سبيل المثال ، تقول إحدى هذه الأغانى :

عندما ترانى أضحك
فإننى إنما أفعل ذلك
لأمنع نفسى من الاسترسال فى البكاء

* * *

من هذا يتبين أن (فرويد) كان على حق عند ما أوضح أن الفكاهة تؤدى دوراً رئيسياً هاماً فى صميم حياتنا النفسية ، لأنها باستبعادها لما يمكن أن يحدثه الألم ، تتخذ مكانها لدفع الألم ، ولتحررنا من الانفعال ، وترفع من مستوانا النفسى ، وصحتنا النفسية .

وكثيراً ما يواجه الإنسان مواقف الخوف والهلع والقلق ، والاضطراب بالاسترسال فى الضحك ، دون أن نعرف مأتى هذا الضحك أو أسبابه الظاهرة أو الخفية .

ولكنه على أى صورة كانت ، يرفع من الروح المعنوية ، عندما تضطرب ، وتستعين بهذا الضحك المباغت ، على مواجهة المواقف الحرجة .

وهناك حالة من الضحك ، تتملكنا أحياناً عندما نكون فى مأتم أو فى ساحة المحكمة أو فى أى مكان يتطلب الإصغاء بأدب واحتشام . وقد تقع حركة أو إشارة داخل هذه الأماكن ، لا تثير أى ضحك إذا وقعت خارجها ولكنها تطلقنا فى ضحك ، نحاول جاهدين أن نوقفه ، فإن الموقف لا يحتمل مثل هذا العبث ، الذى نتغلب عليه بكثير من المشقة ، فإن خاب مسعانا ، تركنا المكان حثيثاً .

وهناك روايات تروى عن مواقف درامية ، ينسى فيها المرء نفسه ، ويلقى بنكتة ، قد تكون هى آخر ما يقول . . .

من ذلك أن محكوماً عليه بالموت شنقاً ، وقف فوق الخشبة فى انتظار وضع الحبل حول عنقه ، وراح يردد على مسمع من منفذى الحكم : لعلّى بذلك ارتدع ، ولا أعود ثانية لمثل ما صنعت . . .

ولا بأس من أن نورد هنا ما جاء على لسان محكوم عليه بالشنق ، عندما وقف على الخشبة ، وسأله ضابط السجن ، على ما جرت به التقاليد ، هل يريد شيئاً لتحقيق المستطاع منه ؟ فقال للضابط ، نعم ، أريد أن أقول شيئاً ، وقد ظن ضابط السجن أنه ربما أفشى أسراراً تساعد سلطات الأمن والعدالة ، وأوقف أمر التنفيذ لحظة ، وإذا بالمحكوم عليه يقول : الحبل راح يخنقنى . . .

وتجرى فى هذا السبيل ، رواية الرجل المتنبى الذى ادّعى النّبوة فى صدر الإسلام ، مع من ادعوا ، وما أكثر من ادّعوا النبوّة حتى إن حروب الردّة

والتنبؤ فى ذلك الحين ، فى مطالع فجر الإسلام ، قد عوَّقت التقدم المنشود الذى جاء به الدين الجديد .

جئ بهذا المتنبي المدَّعى النبوة أمام الوالى ، وهو مكبل بالسلاسل ، وكان فى دعوته يقول إنه نبي مرسل إلى هذه الأمة من قبل السماء .

وكان الموقف يدعو إلى الخوف والهلع ، من قسوة العقوبات المفروض توقيعها على أمثال هذا المتنبي . فلما سأله الوالى :

أمازلت تصر على أنك نبى مرسل ؟ .

فأجاب المتنبي بسرعة خاطر ولماحية أسعفته بقول عجيب :

لقد كنت بالفعل نبيًّا مرسلاً ، أما الآن ، فأنا يا مولاى مقيَّد كما ترانى . . .

ومن ذلك أيضاً أن الجاحظ لم يكن يفارقه مجونه أو يغيب عنه بيانه اللطيف ، وهو فى أقسى الظروف ، وفى أعنف المراجعات والمساءلات .

وتقرر الروايات الأدبية ، أن صديقه الوزير ابن الزيَّات قضى نحبه فى (تنُّور)[1] على يد منافسه قاضى القضاة ابن أبى دؤاد . فما كان من الجاحظ إلا أن هرب ، فلما جيء به بعد القبض عليه ، إلى ابن أبى دؤاد ، سأله .

لم هربت ؟

---

(١) التنُّور صندوق خشبى بيضاوى الشكل فيما يشبه البرميل . وجدرانه قد كُسيت بمسامير حادة متقاربة . ويدخلون المحكوم عليه بالإعدام على هذه الصورة ، ثم يأخذون فى دحرجة الصندوق جيئة وذهاباً ، حتى يقضى المحكوم عليه نحبه وسط عذابات تفوق كل وصف .

أجاب :

خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنُّور . . ؟

فقال ابن أبى دؤاد : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة كفوراً فقال الجاحظ :

خفِّض عليك ، فوالله ليكون لك الأمر علىَّ ، خيرٌ من أن يكون لى عليك . ولأن أسىء ، وتحسن ، خير من أن أحسن ، وتُسىء . وأن تعفو عنّى فى حال قدرتك ، لأجمل من الانتقام .

فقال ابن أبى دؤاد :

قبحك الله . ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام .

جيئوا بحداد ؟ .

فقال الجاحظ :

أعزّ الله القاضى . ليفكَ عنى ، أو ليزيدنى !

قال :

بل ليفكّ عنك .

وأتى الحداد ، فغمزه أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا ، فما كان من الجاحظ إلا أن لطمه وقال :

اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر بساقى وليس بجزع . . . !

وانتهت القصة بضحكة عريضة من قاضى القضاة ، قال على أثرها :

« إنى أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه » .

* * *

ومهما حلل وعلّل علماء النفس والفلاسفة ، بواعث الضحك ودوافعه ، ومهما أقاموا من نظريات دلّلو عليها بكل منطق وحجة ، فإن المفارقة ، إذا رُوعى فيها براعة الحبكة ، وغرابة ما اشتملب عليه ، وحكمة ما تستهدفه ، فإنها وحدها تكفى لحمل أى إنسان على الضحك ، مهما بدا تجهمه وانطواؤه .

وما علىّ للتدليل على ذلك ، إلا أن أسرد نادرتين ، تلعب فيهما المفارقة دورها ، كما لو كنت قائداً لأوركسترا ، يحرك بعصاه كل العازفين ، حسبما يشير به .

أما الأولى ، فإنك سوف تجد نفسك أمام بناء درامى مكتمل الصورة فى الشكل والمحتوى ، وفى مقدماته ونهاياته ، حتى تصل إلى موقف الحبكة Climax ، التى تبلغ الذروة من هذا البناء المكين .

وسوف تجد أنك فى الثانية ، أمام سيمفونية ، تبدأ سريعاً ، ثم تتمهل ، ثم تخفت هامسة راقصة ، لتعود إلى سرعتها الأولى عند الختام ، مع براعة فى القرار ، وعند الجواب :

أقام أعرابى كان الحجاج قـــد ولّاه بعض النواحى النائية ، مدة طويلة ، بعيداً عن مآلفه وأهله ودياره ، وذات يوم مرَّ به أعرابى من حيّه ، فحمد الله على أن أرسل له من يطمئن منه على من يحب ويرعى . وقدم له الطعام ، وراح يسأله عن أهله ، والرجل منهمك فيما بين يديه من طعام .

وكان الرجل عابر السبيل جائعاً ، فراح يجيب بكل عناية وتلطف ، وقد أحس بنشوة الطعام بعد مسغبة .

ودار الحديث على الوجه التالى :

كيف حال ابنى عُمير ؟

على ما تحب . قد ملأ الأرض والحى رجالاً ونساءً .

فمافعلت أم عمير ؟

صالحة أيضاً .

فما حال الدار ؟

عامرة بأهلها .

وكلبنا إيقاع ؟

قد ملأ الحى نبحاً .

فما حال جملى زريق ؟

على ما يسرك .

عند ذلك وبعد أن اطمأن والى الحجاج من الضيف العابر على ما يهمه من أمر أهله وولده وداره ، مال إلى خادمه يأمره برفع الطعام ، ولم يكن الأعرابى قد شبع بعد . ولكن الوالى اشتاق لأن يسمع من جديد ، المزيد من أخبار أهله ، فراح يسأل الأعرابى الضيف ، وأخذ الحديث مجراه على هذه الصورة :

يا مبارك الناصية . أعد ما ذكرت وزد .

سل ما بدا لك

فما حال كلبى إيقاع ؟

مات .

وما الذى أماته ؟

اختنق بعظمة من عظام جملك زريق ، فمات .

أو مات جملى زريق ؟

نعم .

وما الذى أماته ؟

كثرة حمل الماء إلى قبر أم عمير .

أو ماتت أم عمير ؟

نعم .

وما الذى أماتها ؟

كثرة بكائها على عمير .

أو مات عمير ؟

نعم .

وما الذى أماته ؟

سقطت عليه الدار .

أو سقطت الدار ؟

نعم . .

عند ذلك قام والى الحجاج المنكوب فى كل من سأل عنهم من أهل ودابة ودار ، وراح وقد شهر عصاه ليضرب بها الضيف الذى ولّى هارباً مذعوراً .

* * *

والثانية مفادها أن بشّار بن برد ، الشاعر الضرير ، دخل على المهدى ، وكان فى مجلسه خاله ، يزيد بن منصور الحميرى . فأنشده قصيدة يمدحه فيها . فلما فرغ من إلقائها ، سأله خال الخليفة :

ما صناعتك أيها الشيخ ؟

فأجابه بشار وقد أحب ممازحته :

أثقب اللؤلؤ :

فقال له المهدى :

ويحك أتهزأ بخالى ؟

فقال بشار :

يا أمير المؤمنين . ماذا تريد أن يكون ردِّى على امرئٍ يرانى شيخاً اعمى ، أنشد المديح من الشعر ، ويسألنى عن صناعتى ! . . .

فأعجب المهدى بجوابه ، وأجازه .

* * *

وللضحك وجهان . وجه جاد هادف ، ووجه هازل أجوف ، ليس فيه إلا قهقهة عالية تصدِّع الرءوس . ويخلو محتواه من الهدف والمبدأ والسخرية التى تتطلع إلى إصلاح مُعوج أو تقويم انحراف ، وتستهدف التحرر من العبث ، لترقى إلى ذروة من الضحك المهذب الرزين الرصين ، الذى يصل إلى أعماق متلقِّيه من الطبقة المثقفة ، وإلى أبعاد يعجز عن الوصول إليها الضحك الهازل السفيه .

ويقول الكاتب البريطانى ، جوزيف إديسون ١٦٧٢ – ١٧١٩ فى معرض تحبيذه وتقريظه للضحك الراقى ، والكوميديا الهادفة ، فى الشكل والمحتوى :

« سأعرض أفكارى على شكل صور مجسّدة ، فالضحك الراقى عندى ، إنسان ، جدُّه الأعلى هو الحق ، وقد أنجب هذا الحق ابناً سماه

خبس الرأى ، وهذا بدوره أنجب الذكاء اللماح ، الذى تزوّج من امرأة من قريباته ، اسمها الفرحة ، فأولدها مولوداً اسمه الفكاهة .

هذه الفكاهة المتعددة الأعراق ، نراها لهذا السبب ، تارة جادة ، وتارة نشوانة ، وثالثة عابثة ، ونراها أحياناً فى وقار القاضى ، وأحياناً أخرى مرحة كأى ممراح ، على أنها على أى صورةٍ ، تثير ضحك من حولها .

وهناك فكاهة تدَّعى وتتطاول فى ادِّعائها حتى يصح فى الأذهان أنها شبيهة بالفكاهة الأولى الجادة ، وإليكم شجرة عائلتها :

يقوم على رأس الشجرة ، الكذب ، ويليه الهراء ، ويلى هذا ، الحمق ، والضحك الأجوف ، ثم الفكاهة الزائفة .

أما أوجه الشبه والخلاف بين الفكاهة الحقة ، وتلك الفكاهة المزيفة ، فتقترب مما يقوم من شبه بين الإنسان والقرد وصفات الفكاهة الزائفة هى « الشقلبة » والمحاكاة البلهاء للصالح والطالح ، بلا تمييز ، والنيل من الجيد والردىء معاً .

ومن شأن الفكاهة الزائفة ، أنها لاتفرِّق بين عدو وحبيب ، منذ أن كان كل همها هو مجرد الإضحاك . ولما كان هذا هو مبلغ جهدها القاصر ، فإنها تقدم ما تستطيع ، لا ما يجب ، أو يحسن تقديمه .

وإذا كانت هذه الفكاهة عاطلة من كل عقل ، فإنها لا تهدف إلى شىء سوىٍّ من الخلق أو العلم ، وإنما هى تسير فى طريق الغفلة من أجل هذه الغفلة وحدها .

ومن أجل ذلك ، فإنها تهاجم الأفراد والأشخاص ، وتعجز عن أن تسمو إلى مستوى المبدأ المجرد »

وحسبنا هنا أن نسوق تفسيراً واحداً لهذا الكلام الذى قاله قائله منذ ما يقرب من الثلثمائة عام ، ونفذ به إلى دخيلة ما يجرى فى زماننا الحاضر ، عندما نشاهد موقفاً للريحانى ينبنى على سوء فهم وعلى حيرة وعلى تورط أو استنكار من جانبه لما يدور حوله من واقع هو فى نظره عجيب غريب مثل موقفه فى مسرحية « غزل البنات » من مربٍّ كلب الباشا الذى يبلغ مرتبه ثلاثين جنيهاً والمربى المعلم لا يصل مرتبه إلى نصف هذا الرقم ، نقول إننا نتحقق من صحة وواقعية ما أورده الكاتب إديسون فيما سلف ذكره ، عندما نقارن بين موقف الريحانى المثير للضحك الراقى المهذب وبين موقف ممثل آخر يعتمد على مواقف حركية يستخدم فيها الأيدى والأرجل لإثارة ضحك الجمهور وصخبه ، استجداءً لتصفيق فارغ يملأ فراغ المسرح الخالى من المتعة الذهنية .

ولعلنا نزيد الأمر وضوحاً بسرد مثلين فى روايتين ، فيهما الكفاية ، ويمثلان الرمز إلى ما سلف ذكره .

كان عباس محمود العقاد ، يؤم مع كثير من الأدباء ورجال الفكر من رجال وسيدات ، دار كاتبة أديبة ، جرت عادتها على إقامة حفل فى اليوم الموافق لعيد ميلادها ، تدعو إليه المعارف من الأصدقاء والصديقات .

وكانت بين السيدات المدعوات ، سيدة متصابية ، تطوى حقيقة عمرها ، فى تلافيف الأصباغ والمساحيق التى لا تلبث كثيراً حتى ترفع الستار عن الواقع الأليم من العمر المديد .

وبينما كانت الأحاديث تدور فى حلقة من الحلقات ، فى صالون ربَّة الدار ، حول أعياد الميلاد ، وهدايا أعياد الميلاد ، إذ بالسيدة المتصابية

تقول فى تفاخر وازدهاء ، إن زوجها أعفاها مؤونة التفكير فيما تحب أن يقدمه لها ، أو تكراره إذا لم تذكر له ما تريد ، تقول السيدة إنه درج على أن يقدم لها فى كل عيد من أعياد ميلادها مبلغ خمسين جنيهاً لتشترى به ما تشاء ، وهنا فاجأها العقاد بقوله ، وهو سيد مثل هذه المواقف ، لا بد يا هانم أنك أصبحت مليونيرة . . .

والصورة الأخرى للضحك الفارغ إلا من القافية ، نراها فى هذه الحكاية : أقام أحد تجار الفاكهة من أبناء البلد ، حفلاً بمناسبة زواج ابنه ، دعا إليه زملاءه من تجار الفاكهة . وكانت الموسيقى تعزف ألحاناً مشجية مرقصة ، لم يستطع معها أحد المدعوين الذى استخفه الطرب والنغم المرقص ، وهو من تجار الموز ، إلاّ أن يمسك بعصاه وينزل إلى وسط القاعة ، حيث رقص عشرة بلدى ، وعشرة بنقطة . . .



الفصل الثالث

علاقة الفكاهة بالأدب فى جميع صوره

تمترج الفكاهة بالأدب فى جميع صُوَره ، امتزاج الروح بالجسد ، حتى ليتعذر فصل هذه عن ذاك .

ولن تجد أديباً ، مهما التزم الجدَّ فى كتابته ، بقادرٍ على أن يتجنب التمثل بنادرة ، أو يستبعد بيتاً من الشعر طريف المعنى والمبنى ، أو يخلو قلمه من أسلوب مشرق بسَّام .

وإذا كانت وظيفة الأدب الكبرى هى تعميق الحياة ، وإحسان التعبير عنها بمختلف الفنون وصورها ، تعبيراً يعكس إحساس الفنَّان ومشاعره ، وتأثره بالبيئة والمحيط ، ونقل كل ذلك بأمانة ، يتجلى بعدها الأدب فى ثوب دقيق الصنعة ، متناسق الهيئة ، مهذب الطابع والأسلوب ، فإن هذه الوظيفة للأدب تستكمل زينتها من ديكور وماكياج وإكسسوار ، بأنماط من الفكاهة والمجون ، فى رقة مستحبة ، ورشاقة نادرة ، لتبدو الصورة الأدبية مشرقة الوجه والمحتوى .

ويقول (مكسيم جوركى) فى معرض وصف نتاج الأديب حسبما توحى به مشاعره ، وما يتأثر به وجدانه :

« عندما تمتلئ الروح إلى حافتها ، فلا مفر من أن تنسكب أحزانها

أو أفراحها على العالم ، وفى آذان الناس »

وبراعة التمثيل والتمثل ، وروعة الشعر وإيماءاته ، ودقة التصوير وما يرمز إليه ، ورشاقة الأسلوب الساحر ، كلها تتجمَّع لتكون سبيلا للفكاهة والظرف .

والظرف فى اللغة ، هو الوعاء الذى يحوى الشيء . فظرف الخطاب ، وظرف الفنجان ، هما اللذان يحميان هذا وذاك من كل شر ، ويقيانهما الأذى ، ويظهرانهما على أحسن صورة ، ويكسوانهما لطف المظهر ورشاقة الهيئة .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، يكون الرجل الظريف ، هو الإنسان الذى يحوى خفة الظل ، وحضور الذهن ، وروعة الفكاهة ، وذكاء القلب .

والفكاهة تنساب بين الناس كأنها الماء الذى يرويهم ، والنور الذى يهديهم ، والشمس التى ينعمون بدفئها .

ولم يكن من الأمور التى تدعو إلى العجب ، أن تنتسب إلى الرسل والنبيين ، روايات تشيع فيها المزحة والمجون ، وهم يتقبلونها ، ويستطيبون قولها ممن حولهم .

وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام ، أنه أجاب ، ضاحكاً ، على سؤال سيدة عجوز عن نصيبها من الجنة ، بما فهمت منه ، بألَّامكان فى الجنة للعجائز ، فلما أحسَّ بذعر العجوز ، استدرك بما اطمأنت إليه من أن أهل الجنة كلهم ينعمون بشبابٍ دائم لا يريم ولا يبرح .

وروى الراوون أن الهدهد جاء يوماً إلى سليمان الحكيم عليه السلام

وقال : أُريدك أن تكون فى ضيافتى .

فقال سليمان متمشياً مع فكاهة الهدهد : أنا وحدى ؟

فأجاب الهدهد : بل أنت وعسكرك .

وحدَّد لذلك يوماً محدوداً ، ومكاناً مذكوراً على شاطىء جزيرة سمَّاها باسمها .

فلما كان اليوم المعلوم ، ذهب سليمان وجنوده ، إلى تلك الجزيرة وعندما رآهم الهدهد ، طار واصطاد جرادة ، لم يلبث حتى خنقها وألقى بها إلى البحر ، وأردف قائلا :

كلوا جميعاً ، فمن لم ينل من اللحم نصيباً ، أصاب من المرق ما يشاء . . .

فضحك سليمان وجنوده طويلا على مزاح الهدهد الماجن .

ومن المعروف عن قضاء سليمان ، أنه كثيراً ما كان ينحو به نحو الحيلة المستظرفة ، ليصل إلى قلب الحقيقة .

من ذلك ما صنعه مع المرأة التى ادَّعت أن طفلها تنازعه فيه جارتها ، فلما جىء بالمرأتين إلى سليمان ، أمر بقسمة الطفل المتنازع عليه ، وإعطاء كل امرأة نصفاً ، فصرخت إحداهما وهى تقول . فلتأخذه خصيمتى ، وليبق الطفل حيًّا ، وهنا أدرك سليمان أنها الأم الحقيقية للطفل ، وأمر لها به دون الأخرى المدعية كذبًا أمومتها للطفل .

ومن ذلك أيضاً أن رجلا شكا إليه أن جاره سرق من داره أوزة . فلما توافد القوم على المسجد للصلاة ، قام سليمان ليخطب فى الناس ، وراح يعظهم حتى وصل إلى تحريم السرقة وأنها إثم له عقوبته وجزاؤه .

ومما جاء فى خطابه : إن أحدكم ليسرق أوزة من جاره ، ثم يدخل الجامع ليصلى ، والريش على رأسه ، فما كان من الرجل إلا أن مسح على رأسه بيده ، فقال سليمان ، لقد وقعت فيما كنت تنكر . خذوه ! . . .

* * *

والأمر على خلاف ذلك بالنسبة للعلم .

فالعلم يقوم على تقرير وقائع ، وتطبيق نظريات ، سلخ العلماء قدراً كبيراً من الزمن ، وقدراً آخر أكبر من الجهد ، حتى توصلوا إلى الكشف عنها ، بعد انعكاف فى المكاتب ، وفى المعامل ، وفى المصانع ، ووراء الأنابيب والمجاهر . فهو قانون وقواعد .

والعلم لا يؤمن إلا بالمحسوس الملموس . ولا مجال فيه لبراعة خيال ، أو رشاقة أسلوب ، أو روعة موقف .

والأسلوب العلمى ، أسلوب جادّ جامد ، يزن الكلمة بميزان الجوهر ، فى دقة وحزم .

ولا يعنى هذا أن الأسلوب الأدبى يفتقد الدقة ويفتقر إلى الجد والحزم ، ولكنه إلى جانب هذه المواصفات ، يصحب قارئه فى زورق حالم ناعم ، إذا ما شاء الكاتب الأديب أن يصور منظراً يحتاج إلى سعة خيال وحسن تصور ، فيمهّد له بجمال الوصف ، وموسيقى الكلمة ، وبديع البيان .

وإليك حقيقة علمية ، لن يستطيع إنسان أن يدس فى ثناياها كلمات تبعد بها عما هى بسبيله من تطبيق نظرية ، أو تقرير حقيقة أو تحليل واقع ، لا ظرف فيه ولا تندُّر :

« إن الذى يجرى فى بيضة الأنثى ، من بنى الناس ، محجوب من

رؤية الناس ، لأنه يجرى فى ظلمات البطون والأرحام .

ولقد كشف العلماء عن كثير من هذا المجهول ، بدراسة هذه الظواهر ، فى الحيوانات ، مثل الأرانب والفئران ، وعلموا من ذلك الكثير .

ومن بيضة الحيوانات ، انتقلوا إلى بيضة الإنسان . وقد علموا أن الطفلة الأنثى حين تولد وبها كل حصيلتها فى الحياة من البويضات غير الناضجة، قد أتمت أول تطورّ لها ، وذلك بانقسامها أنصافاً . بمعنى أن (كريموسوماتها) ينقسم كل منها إلى نصفين . وهى تبدأ هذا التطور الأول ، وتتمه بين الشهر الرابع ، والشهر السابع من حياة الجنين »

هذه مسألة مقررة بميزان العلم ، وتطبيق نظرياته ، وتجاربه ، من غير ما تنميق أو تجميل .

* * *

ولقد أتى حين من الدهر ، كانت الفكاهة فيه صناعة تدر الربح الوفير والذكر البعيد .

فعندما أصبح الخلفاء والأمراء يعيشون فى ترف ونعيم ، وعندما ناءت كواهلهم بأثقال وأحمال المسئوليات والمتاعب ، أحسوا أنهم فى حاجة إلى من يمسح عن صدورهم ويسرِّى عنهم عبء ما يحملون ، بالضحك والمجون .

وفى بلاطات ملوك الغرب ، كان هناك مكان دائم لمن كانوا يطلقون عليهم اسم King's yester أو مضحك الملك . وكان يصاحب الملك فى رحلاته ويرفه عنه فى قصوره ، وإذا غاب افتقده الملك وبعث فى طلبه .

وقد اشتهر فى بلاط كل خليفة أو والٍ أو ملك عربى كثير من الأدباء والشعراء وأهل المجون ، الذين لا همّ لهم إلا إضحاك سادتهم بالفكاهة

الحلوة والنادرة النادرة .

واشتهر من هؤلاء أشعب الطَماع والشاعر أبو دلامة وأبو الحسين الخليع وأبو العيناء وغيرهم مئات ومئات .

وكان الجاحظ إمام عصره فى فن الفكاهة الذى امتلك ناصيته بإدراك واقتدار ، أعانهما منه ، سخرية قادرة ساحرة وهو يستهدف فى الفكاهة الضحك والإضحاك . ويروى فيهما خير ما فى الحياة ، وما يُعد مصدراً للقوة ومعيناً على العمل .

وهو يقول فى تحليل وتعليل المجون :

« إنه شيء فى أصل الطباع ، وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه ، الذى هو علة سروره ، ومادة قوته »

ثم يقول فى موضع آخر :

« وإذا أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الخير ، الذى جعل له الضحك ، صار المزح جدًّا ، والضحك وقاراً » .

وقد كانت مجالس الخلفاء والملوك والولاة تفيض بالقول النادر والشعر الرصين والحكمة الغالية ، وقد تغلغلت فى كل هذه الفنون ، فكاهة عفَّة راقية ، جمعتها بين دفّتيها كتب للأدب ، يزهو بها أدب أى عصر وأى جنس ، بدءاً بالأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وبدائع البدائه لعلى بن ظافر الأزدى ، إلى كتاب الكشكول للعاملى .

ولا يسع كاتب فى هذا الباب إلا أن ينتقى بعض ما قد قيل فى تلك

المجالس ، التى كانت بمثابة مدارس وجامعات ، تطرح فيها مسائل فى اللغة وفى الفقه وفى المنطق وفى الشريعة وفى رواية الشعر حفظا ونظماً وفى قوالب النثر التى ينبهر لها العقل ، وتأخذ بمجامع الرشد ، من قوم فى مطالع الحضارة وعلى شاطئها الضحل .

غضب الرشيد على جارية فأقسم لا يدخل إليها ، ثم لم يلبث أن عاجله الندم فقال :

صدَّ عنى إذ رآنى مُفتتن ... وأطال الصدَّ لما أن فَطَنْ

كان مملوكى فأضحى مالكى ... إن هذا من أعاجيب الزمن

وطلب إلى جعفر بن يحيي أن يطلب من الشعراء من يزيد فيهما ، فأجابه هذا .

ليس لهما إلا أبو العتاهية وكان مسجوناً ، فكتب إلى الرشيد ، لما بلغه الخبر .

يا ابْن عم النبي سمعاً وطاعهْ ... قد خلعنا الكساء والدرَّاعهْ

ورجعنا إلى الصناعة لمَّا ... كان سخط الإمام ترك الصناعهْ

فأمر الرشيد بإطلاق سراحه ، وصلته ، فقال أبو العتاهية ، الآن ، طاب القول ، وأنشد يجيز البيتين السالفين :

عزة الحب أرته ذلَّتى ... فى هواه وله وجه حسِنْ

فلهذا صرت مملوكاً له ... وبهذا شاع مابى وعَلَنْ

فاستحسنه الرشيد ، إذ أصاب ما فى نفسه ، وضاعف صلته .

وتغنَّى زرياب يوماً بين يدى عبد الرحمن الداخل فاتح الأندلس ، بهذين البيتين :

قالت ظلوم سميَّة الظلم ما لى رأيتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبى فأقصده أنت الخبير بموقع السهم

فقال عبد الرحمن : هذان البيتان منقطعان ، فلو كان بينهما ما يوصلهما ، لكان أبدع .

فقال عبد الرحمن بن قزمان :

فأجبتها والدمع منحدرٌ مثل الجُمان ، هوى من النَّظم

فاستحسنه عبد الرحمن الداخل وأمر له بجائزة .

وقال الشيخ أبو عبد الله ،محمد بن على القرمونى ، إن والده الشيخ أبو الحسن ، أنشد قول ابن الرومى :

شهر الصيام مبارك ما لم يكن فى شهر آبْ
خِفت العذاب فصمتُه فوقعت فى نفس العذابْ

فقال عبد الرحمن الداخل ، إنهما كذلك منقطعان ، ويحتاجان إلى من يصل بينهما ، وأنشد بديهاً :

اليوم فيه كأنه من طوله يوم الحسابْ
والليل فيه كأنه ليل التواصل والعتابْ

* * *

ولعل من أكثر ما يوضح الفرق بين الأساليب الأدبية والأساليب العلمية فيما يدخل فى اختصاص هذا الكتاب ، ما جاء على لسان أبى العلاء المعرى عند ما وصف بكاء الطفل ، ساعة مولده ، بقوله :

لِما تُؤذن الدنيا به من صُروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولَدُ
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغَدُ

هذا ما يقرره الأدب على لسان شاعر فحل كأبي العلاء المعرى ، أما الطب ، فإنه يقرر أن بكاء الطفل ساعة مولده ، إنما هو أمر تلقائى ، يأتيه الطفل بوحى من حبه ونزوعه للبقاء ، وكفاحه ونضاله فى سبيل ذلك بالبكاء الصارخ ، الذى تتفتح به رئتاه ، بعد انكماش كانتا فيه مضغوطتين ، بحكم الحيِّز الضيق الذى جاء منه الطفل .

ومن أجل ذلك ، ينصح الأطباء بترك الطفل الوليد يبكى ويصرخ بأعلى صوته ، ففى هذا نفعه .

وهكذا نرى أن فى التقرير الأدبى ، خيالا ومقارنة وتصوراً جميلا بموازين الأدب ، ومفارقة فيها تشاؤم ذكى عميق ، ولكنه بعيد عن الحقيقة العلمية ، التى تقرر ما ذكرنا ، تأكيداً لحب البقاء عند الإنسان منذ ولادته حتى يتوفاه الله ، بغريزة رُكِّبت فيه ، ليتشبث بحياة مهما أتعبته فإنه راغب فيها لا عنها .

* * *

وكانت للكتابة الأدبية عند العرب ، روح شفيفة ، تفيض بالتهكم والسخرية وسرعة الخاطر والنقد لأوضاع المجتمع ، وهى جميعها عناصر أساسية للكوميديا الراقية فى عالم المسرح ،

قال الجاحظ : سألنى بعضهم كتاباً بالتوصية إلى بعض أصحابى ، فكتبت له رقعة وختمتها .

فلما خرج من عندى ، فضَّها فإذا فيها :

« كتابى إليك مع من لا أعرفه ، ولا أوجب حقّه ، فإذا قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمُّك » فرجع الرجل إلىّ فقلت له :

كأنك قرأت الرقعة !

قال : نعم .

قلت : لا عليك . ولا يضيرك ما فيها ، فإنه علامة لى إن أردت العناية بشخص .

فقال الرجل :

قطع الله لسانك ويدك ورجليك ولعنك .

فقلت : ما هذا يا هذا .

فأجاب :

لا عليك فهذه علامة لى إن أردت أن أشكر أحداً . . .

وقد تثير ضحكك ، المقارنة بين نظرة العالم للإنسان ، ونظرة الأديب للجماد .

فالعالم يحلل الإنسان إلى جزئيات تحتوى على هيموجلوبين وكالسيوم وفوسفور ومغنيسيوم وكبريت وصوديوم ويوتاسيوم إلى آخر ما فى جسم الإنسان الحى من أجزاء .

فى حين أن الأديب أو الشاعر ، إذا نظر إلى نهر ينساب فى مساره ، شبهه براقص يعرض فوق مجراه أفانين من الرقص الجميل ، حتى إذا ما استمع إلى خرير موجه ، وصفه بأنه سيمفونية شجية ، تادية النغم ، حلوة الأداء .

وحسبنا أن نرى العالم وقد حول الإنسان إلى جماد وجزئيات ، فى مفارقة مذهلة ، فى حين حوَّل الشاعر ، الجماد إلى كائن حىٍّ يحس ويمشى ويرقص ويبعث الصوت الرخيم ، والنغم الأغن .

الفصل الرابع

أدب الفكاهة فى المسرح

امتلأ شراعنا بالهواء والهوى ، أو بالريح والمحبة ، ليدفعان بمركبنا (عُطيل) باسم الله مجريها ومرسيها ، فى طريق ما نحن بسبيله من رحلتنا مع الظرفاء ، التى نمضى من هذا الفصل الرابع ، فى صحبة أقطابها ، لنسمع منهم وعنهم ، ونستشف من وراء ما يقولون وما يعملون ، روح الفكاهة وأدب المجون .

مضت سفينتنا تشق عباب الماء فى ثقة واطمئنان .

وكان قائد السفينة ومعاونوه قد حملوا معهم ، إلى جانب الركاب ، أثمن ما تحمل سفينة ، من رواد التاريخ فى كل أدب وفن مما ضمّه هذا الكتاب من فكاهة وظرف ومجون . وكان أولهم مؤرخ المسرح الفكاهى .

وكانت السفينة من طراز سفن الأقدمين التى كانوا يجوبون بها البحار قبل اكتشاف البخار ، وقد زودها مرتبو الرحلة بكل وسائل الراحة وبما تستلزمه من أبهاء للمناقشة والاستماع .

ورحنا نحن أعضاء الرحلة ، نتحلق حول مؤرخ المسرح الفكاهى ، وسادن آدابه ، وحافظ أطواره ، نستمع منه إلى أقواله :

الكوميديا فى مفهومها الشامل ، تعبير يوصف به الكثير من الأعمال

الأدبية الدرامية وغير الدرامية . وكلمة دراما Drama في اللغة اليونانية ، تعني العمل ، كما أن كلمة Comedy ، كوميدى ، تعنى فى عرف المسرح القديم ، العرض المسرحى ، قبل أن تطلق على العمل المسرحى الفكاهى ، وتختص به وحده . ونذكر من باب التداعى ، أن كلمة Opera . أوبرا ، تعنى فى اللغة الإيطالية العمل ، من فعل Operare ثم تطورت لتصبح علماً على المسرح الغنائى الكلاسيكى المعروف بالأوبرا .

والمسرحيات الدرامية المعاصرة ، والتى تسمى بالكوميديا ، هى تلك التى تكتب بأسلوب خفيف مرح ، وتتضمن أحداثاً لطيفة ، وشخصيات تتمتع بظرف يمكنها من استحداث مواقف تثير الضحك وتبعث على الإضحاك .

ويوم أن بدأت الكوميديا اليونانية ، لم تكن تحوى سوى طقوس واحتفالات دينية أو اجتماعية ، تتخللها أغنيات ورقصات . وكانت تتميز بما يلبسه القائمون بالتمثيل فيها ، من أقنعة من جلود الحيوانات ورءوسها ، وربما كان هذا التخفى على هذه الصورة البدائية الفجّة ، هو بداية (البال ماسكيه) الأنيق الراقى فى العصور الحاضرة ، أو مهرجانات الزهور وملكات الجمال التى تعتلى عربات أنيقة رشيقة لا يبين هيكلها من غزارة الزهور التى تغطّى كل جزء فيها وتتفتّح براعمها عن ملكات جميلات .

ورحم الله عمرو بن العاص ، وهو ابن الصحراء ، يوم أن رأى لأول مرة عندما غزا مصر ، مركباً فى النيل ، ليس من اليسير معرفة كنهه بعد

أن تعلّق به الناس وانتشروا وفاضوا على جانبيه ، فسأل عن خطبه ، فأجابه المسئول ، بأنها مركب تحمل الناس ، ليقطعوا بها النيل إلى الضفة الأخرى فقال : دودٌ على عود . . .

ويقول (أرسطو) فى كتابه (الشّعر) إن كريتس Crates (٤٥٠ ق . م) ، يُعد أول من قدَّم كوميديا ذات حبكة ، وذات وحدة فى الموضوع .

ونظرة الكوميديا إلى البشرية ، تختلف عن أعمال البطولة والشعر الحماسى للتراجيديا . وكثيراً ما حاول أرسطو أن يجد تعريفاً للكوميديا ، حتى اهتدى إلى أنها عمل مسرحى ، يتناول بطريقة مسلية ، الشخصيات العادية فى حياتها ، ومواقفها اليومية حيال ما يحيط بها .

وعندما نقل الرومان هذه الأسس للكوميديا ، عن اليونان ، ضمَّنوها قدراً وفيراً من المتعة ، حتى أمكن وصفها بأنها عمل يبعث على التسلية ، ويهدف إلى عرض مسائل بعينها ، قد يتخللها التعرض لبعض الأخلاقيات .

ولقد وصف سيشيرو Cicero ، الكوميديا الروائية لذلك العصر ، بأنها « تقليد للحياة ، وتصوير للعادات ، وللحقيقة » .

ثم جاء بعده دوناتوس Donatus ، ليقــرر أن الكوميديا تبحث المسائل الشخصية دون عنف أو مخاطرة . وتحل فيها السعادة محل الشقاء . فإذا ما اشتملت القصة المعروضة ، على موقف يختفى فيه طفل ، فالكوميديا تحتم العثور على الطفل المفقود ، كنهاية سعيدة للعمل المسرحى المعروف ، الذى ترتاح إليه نفوس المشاهدين .

ولا يوجد فى تاريخ الدراما ، ما يشير إلى أن الكوميديا تهدف إلى

مجرد الضحك والإضحاك » ، وإن كان الضحك مقترن بالكوميديا ، ومرتبط بها ارتباطاً عضوياً .

ولقد ناقش هذه الحقيقة كلّ من Burgson (بيرجسون) فى كتابه عن الضحك Le Lire ١٩٠٠ ، وكذلك Sully فى كتابه An Essay on Laughter

والكوميديا تتفرع إلى الكوميديا التهكمية ، والكوميديا السلوكية ، Come dy of manners ، والكوميديا الاجتماعية ، والكوميديا الرومانتيكية ، والكوميديا العاطفية . وربما كان أرقى هذه الأنواع ، كوميديا السلوك ، التى تهدف إلى عرض شخصيات من المجتمع ، وتسليط الأضواء على ما يقومون به من انحرافات ، وخلق جو يشيع فيه الضحك الراقى ، عن طريق نقد تصرفاتهم نقداً مهذباً ، سوِى القصد ، دون الالتجاء الرخيص إلى استخدام ألفاظ ذات مدلولات ومعانى مزدوجة ، استدراراً لضحك الحاضرين .

ولن تجد كوميديا راقية ، إلاَّ فى وسط متحضر ، يكون للمجتمع فيه تقاليد خاصة ، وسلوك اجتماعى متحضر ، حتي يمكن التغلغل فيه ، لنقد ما يستحق النقد بصورة تجمع بين التهكم واللذع والسخرية ، توسلا إلى الإصلاح والبناء السَّوى .

والكوميديا تمتاز بهذا الهدف الراقى عن الفارس Farce ، الذى وصف بأنه كوميديا مبالغ فيها بقصد الإضحاك ، وسيلة وغاية .

وهو فى جملته يعتمد على التناقض ، وعلى المواقف المصطنعة ، استجلاباً للضحك المجرد من أى هدف أو غاية .

وإن كان هذا ، فى جملته ، لا يمنع الكوميديا الراقية من اشتمالها على عناصر ومواقف من الفارس .

عند هذا الحد ، توقف قليلا المؤرخ الأعظم للمسرح الكوميدى ، ليسأل إن كان هناك من يريد توجيه سؤال إليه ، وهنا انبرى أحد المستمعين ، ليسأل عن نصيب العرب ، فى عهودهم الأولى ، من المسرح ، سواء فى تراجيدياته أو كوميدياته ، فأجاب المؤرخ الأعظم بهذه الحقائق :

علة قصور العرب فى المسرحية والتأليف المسرحى ، أن مزاولتهما تقتضى الروية وإمعان الفكر ، والعرب أهل بديهة وارتجال . كما أنهما يتطلبان الإلمام بطبائع الناس وأحوالهم ، والعرب فى بدواتهم الأولى كانوا رُحَّلا ، فإذا استقروا قليلا نفروا إلى الحرب لأسباب تتعلق بالعيش والحياة .

وظل العرب فى شغل بأنفسهم : وما ينتقلون إليه من مطارح ، وكفايتهم بذلك عن النظر إلى من عداهم ، ومن جاوز أفق تفكيرهم .

فوق أن ممارسة شئون التأليف المسرحى ، تتطلب التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصاراً للقول ، وأقلهم تعمقاً فى البحث ، وأكثرهم ضيقاً بالمعاناة فى أمر يلزمهم بالتفكير فى دوائر محدودة وآماد مقيدة .

وهم أهل انطلاق وحرية تأبى أى قيود وحدود . ولا يضير العرب قصورهم فى التأليف المسرحى ، فقد سلس لهم قياد الشعر والبيان ، فضلا عما بلغوه ، فيما أتى بعد ذلك من حقب ، من شأو بعيد فى العلوم والفنون أيام نهضتهم ، عندما كانت أوربا تحبو فى ظلام دامس وغفوة لم يوقظهم منها إلا العرب ، بما نقلوه إليهم من علوم وفنون وآداب ، جمعوها وترجموها

وصنفوها ، فكانوا حماة لها من أن تندثر وتذوى .

ولعل العهد بالأندلس ما يزال قريباً نسبيًّا ، لمن يريد العلم بما وصل إليه العرب فى ذلك الزمان من امتياز فى العلوم والفنون والطب والمعمار والهندسة وفنون القول على اختلاف صوره وبأساليب كان يمكن لمن يشاء منهم أن ينسج منها درامات لا تطاولها أعمال مسرحية فى زمانهم فى الأندلس .

وكان موقف ابن زيدون من ولّادة بنت المستكفى ، الخليفة ، وهو موقف واحد من آلاف مثله ، وما تبادلاه وتطارحا به من أروع الشعر الغزلى الرقيق ، كافياً لأن يكون عملاً أوبراليًّا وتراجيديًّا ، ولأن يكون فكرة لأوبريت تجرى فى أروقة وأبهاء ، قصور الأندلس ، وتتغنى بشعر ابن زيدون الوزير وبشعر الولادة ، قيانٍ مغنيات مع رقصات أندلسية يزيد من بهائها ملابس ذلك العصر المتحضر البهيج . وابن زيدون ، الوزير الشاعر ، هو الذى قال عند ما يئس من لُقيا ولادة بعد دل منها وإلحاح منه ، وهو منظر درامى تراجيدى ، قال بعد ترك قرطبة إلى أشبيلية :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا	شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
إن الزمان الذى ما زال يضحكنا	أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
عليك منى سلام الله ما بقيت	صبابة منك تخفيها فتخفينا

وهى قصيدة طويلة لكل بيت فيها موقف تمثيلى جدير بالإشادة .

ثم أردف المؤرخ المسرحى العظيم قائلاً ، إن العصور الوسطى كذلك ،

خلت من العروض المسرحية بصورةٍ عامة ، فيما عدا موضوعات مستمدة من التوراة والإنجيل وطبيعى أن يكون أغلبها تراجيدياً وأقلها ما كان كوميدياً .

ومن كوميديات العصور الوسطى ، ما ورد نصه فى كتاب Seisam سيزام ، وهى كوميديا « سفينة نوح » حيث تُشاهد زوجة نوح تعنف معه إلى حد الاعتداء عليه بالضرب .

والحبكة هنا تعتمد على أن نوحاً أصر على أن يأخذ من كل كائن حى ، زوجين ، استمساكاً منه بدوام الحياة ، وليسير بهذه الأزواج فى مركبه ، مع علمه بما سوف تتعرض له الحياة فوق المركب من خلافات تثيرها المرأة ، بزغم عدم وجود منافس لها ، ولكن القصة كانت تغمز ، مبالغة منها ، إلى أن المرأة تلازمها طبيعتها فى كل مكان وزمان ، وهو غمز مقصود ، تتطلبه الكوميديا .

والعجيب أن مسرحية (فاوست) Faust ، المفروض أنها مأساة ، كانت تمثل تمثيلا كوميدياً . فقد وجد رجال المسرح آنذاك ، أن شخصية (فاوست) فى تطاوله على شئون إلهية عليا ، يمكن أن تكون موضوعاً للسخرية التى هى مادة الكوميديا ، لا أن تكون موضوعاً للتراجيديا .

فى مثل هذه العصور الوسطى الجامدة الجادة ، لم تجرؤ ابتسامة ما ، أن تطل من فوق شفاهٍ أطبقها شظف العيش حتى لا تنطق ، لا أن تبتسم .

ومضت السنين يطوى بعضها بعضاً ، حتى أطل عصر النهضة ، وظهرت الكوميديا فى ثلاث صور :

كانت الصورة الأولى تعتمد على الفكاهة اللفظية ، التى تعتمد بدورها على ذكاء وفطنة وسرعة خاطر الممثلين فى الحديث والجدل .

وكانت الثانية تعتمد على المواقف ، عندما يقع سوء تفاهم أو خطأ غير مقصود . أو تورط فى أمور مفاجئة .

وكان النوع الثالث هو أرقاها ، وهو ما أطلق عليه ، Comedy of Humours ، أى كوميدياً الطبـاع ، لأنها تبرز ما فى الإنسان من نقط ضعف تدعو إلى التهكم عليه لا الرثاء له .

وكوميديات شيكسبير من هذا النوع الراقى . وتظهر براعته فى تناوله للكوميديا ، فى مسرحية (هنرى الرابع ومسرحية زوجات وندسور المرحات ، ثم فى كشف ما انطوت عليه شخصية شايلوك فى تاجر البندقية) .

ولعل (موليير) كان سيد هذا النوع ، الذى تفرَّغ له وأصبح علماً عليه ، ولا شأن له بغيره ، على عكس شيكسبير الذى توزع بين التراجيديا والكوميديا .

وكان موليير ، بفضل تفرغه ، قد جمع بين أصابعه خيوط الكوميديا الثلاثة التى سبق ذكرها ، وراح يستخدمها بقدرة وإدراك فى مسرحه الذى ما يزال نابضاً بالحياة حتى أيامنا هذه ، وهو أمر يندر وجوده . ومن ذا الذى ينسى شخصيات المريض بالوهم والبخيل . إنهـا أهرامات آدميـة .

ومما يروى عن (موليير) ، أنه كان يجنح إلى وسيلة بارعة ، للتأكد من بلوغه ما يطمع فيه من مستوى الكوميديا الراقية التى يقدمها . فقد لاحظ أن خادمه الخاص ، الموكل إليه كل ما يتصل بخدمة موليير وشئونه

العامة والخاصة ، وهو ما كان يطلق عليه اسم Butler أو الوصيف ، لاحظ أن هذا الوصيف لا يعرف الابتسام إليه سبيلا .

وكان من العسير إضحاكه ، أو بعث الابتسامة إلى شفتيه .

فكان يستدعيه ، ويطلب منه الاستماع إلى مسرحيته الجديدة . ويطلب منه أن يجلس أمامه ، ليستطيع موليير تتبع أسارير وجه خادمه . ثم يمسك بورقة وقلم ، ويدون ما راق للوصيف ، وما أحس بأنه حرّكه حتى ابتسم أو أخرجه عن حدّه حتى ضحك ، ليقف من ذلك على تأثير ما يكون قد كتب ، على المشاهدين عن طريق متابعة الخط البيانى الذى ارتسم على وجه وصيفه العبوس ، ثم يمضى فى إجراء تعديلات على مسرحيته من واقع ما خرج به من ملاحظات ، كانت أمامه مقروءة كأنها رسم القلب أو مقياس ضغط الدم ، أو تقلبات الأسعار . . . .

وبرغم أن أعمال (ابسن) المسرحية لا تدخل فى نطاق ما نحن بسبيله من بحث الكوميديا ، إلا أن العلم بمسرحه يؤدى إلى العلم بما تأثرت به الكوميديا من روافد صبت فى نهرها ، وأمدته بالغزير الوفير من العلم الصحيح والمدى الأفقى والرأسى للمجتمع ، وما به من نقائص ، يعمل مسرحه على إبرازها كعلة كشف عنها فحصه ، وكتب لها الدواء الذى يساعد على الشفاء .

ولقد سقط ظل (ابسن) على المسرح الحديث ، وكان تحليله لمشكلة الطبقة المتوسطة قاطعاً ، مما استحال معه تجاوز حدود فكره . ذلك أن التحرك خارج هذه الحدود ، معناه التحرك خارج حدود المجتمع فى تكوينه الحديث .

فى مسرحية (عصبة الشباب) يظهر (ابسن) براعة فائقة وقدرة مذهلة استطاع بها أن يحلل بها شخصيات مسرحية عن طريق ما تصنعه الضغوط الاجتماعية بالنفوس . ويقول فى القصة ، دكتور فيلدر عن أحد شخصيات الرواية « كان أبوه أنقاض رجل . عُشبٌ ذابل . . . . أو قل لا شىء . . . وكان يحتفظ بدكان يعمل فيه بالتجارة وبالربا . أو على الأصح كانت زوجته ، تقوم بذلك ، نيابة عنه ، حتى يصح فى أذهان كل معارفه ومن لا يعرفه ، أنه لا يصلح لأى عمل » .

وهو على عكس من أراد من مؤلفين ومفكرين ومسرحيين ، أن يظهروا أن الطبقة المتوسطة طبقة مغلوبة على أمرها ، كان هو يرى أنها طبقة تحاول إنقاذ نفسها بشتى الطرق ، التى كان المال يلعب أكبر دور فى الضغط على هذه الطبقات ، ليحملها على الانحراف . وكان يرى أن أفـراد هذه الطبقة ، كانوا يكافحون ضد العرف الذى أصبح قانوناً ، لا ضد الظروف التى ينبع منها العرف .

ثم مرّت هذه الفترة لتعقبها الكوميديا الحديثة ، التى كان مسرح « برناردشو » زعيمها . وكانت كوميدياته تقوم على المذهب الواقعى ، ولذلك ارتبطت هذه الكوميديات بالنقد الاجتماعى ، وهو مادفعه إلى اتباع مدرسة كوميديا السلوك .

ومع برناردشو ظهر فى فرنسا مارسيل بانيول . وفى روسيا نيكولاى جوجول . وكانت أعمالهم جميعاً تهدف إلى النقد .

وما دمنا قد أتينا على ذكر الكاتب المسرحى الفرنسى وعضو الأكاديمية الفرنسية ومؤلف المسرحية الخالدة (توباز) ، مسيو مارسيل بانيول ،

فلا بأس من أن نذكر طرفاً مما عرف عنه من ظرف ومجون وأقوال مأثورة لاذعة .

كان يقول إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يحمر وجهه . ولا بد من حيوان آخر مثله يتسبب فى ذلك .

وكان يقول عندما علم بمأساة أحد أصدقائه بعد أن أصبح لا يملك شيئاً على الإطلاق ، وفى وقت مبكر : إن الإنسان لا يرتاب فى توخى هذا الصديق لما وصل إليه من إفلاس ، كان نتيجة وضع ماله فى يد امرأة ، وخاصة عندما كانت يد هذه المرأة صغيرة .

ويقول إن المرء يبلغ سن الشيخوخة عندما يبدأ فى ترديد هذه العبارة : إننى لم أشعر من قبل بأننى فتى مثل اليوم .

وكان يروى عن أحد الخالدين الأربعين أعضاء الأكاديمية الفرنسية الذى اشتهر ببخله ، أنه انقطع انقطاعاً تامًّا الآن للتاريخ حتى أصبح يعيش فى دهاليز الماضى وأروقة الزمن الغابر ، فما كان من فرانسوا مورياك الذى كان يستمع لهذا الوصف ، إلا أن استغرق فى ضحك طويل ليقول :

ذلك لأن تكاليف الحياة ، هناك ، زهيدة جدًّا . . . .

وكان يروى نادرة يعود تاريخها إلى عهد الملك لويس فيليب .مفادها أن أحد أصحاب الحاجات ، كان يبغى إنجاز مهمة لدى موظف حكومى عظيم الشأن ، وقد عرف عنه أنه يرتشى . فلما تأكد صاحب الحاجة ، أنهما وحيدان فى المكتب ، همس بصوت خفيض :

نحن يا سيدى الآن وحيدان هنا . فخذ بالله هذا المبلغ المتواضع ،

وأقسم لك أن أحداً لن يدرى شيئاً عما جرى بيننا .

فما كان من الموظف الكبير إلا أن هتف عالياً :

بالعكس أيها العزيز ، أعطنى ٢٥ ألف فرنك ، واروالخبر للجميع . . .

وكان إذا أراد مارسيل بانيول أن يتحدث عن فتنة امرأة ، وجمالها الأخاذ ، يقول :

إنها جميلة مثل زوجات الآخرين . . .

ومن أقواله أيضاً إن اللحظة الوحيدة ، التى تصغى فيها الزوجة إلى ما يقوله زوجها ، هى ، عندما يتكلم فى نومه . . .

وكان يقول عن التليفزيون الفرنسي ، إنه ساهم بحق فى نشر الثقافة فى فرنسا على أوسع نطاق . فعندما يبدأ هذا التليفزيون فى عرض مسلسلاته على شاشته ، فإن عدد المشاهدين الذين يقفلون أجهزتهم ، يزداد ليفزعوا إلى أقرب الكتب الجديدة التى صدرت وقرءوا عنها ، هارعين إليها هرباً مما يرونه من عروض ، وهو أمر لم يكن قائماً قبل التليفزيون . . . .

* * *

ويسأل المؤرخ العظيم : هل أمضى ، أم لأحدكم شيئاً يريد أن يستعلم عنه ؟

وارتفعت أصواتنا تسأله الاسترسال ، رغبة منا وقد قاربنا عصرنا الحاضر ، أن نسمع منه عرضه له ومسحه الشامل للمسرح الفكاهى فى زماننا .

راح يستعرض المسرح الفكاهى منذ عهد يعقوب صنوع الذى كان إمام الساخرين فى الصحافة والمسرح الفكاهى ثم جاء بعد فترة مجدبة

من الفكاهة فى المسرح المصرى ، عهد الريحانى وعلى الكسار ، الذى اعتمد فيه الأول على شخصية عمدة كفر البلاص ، حتى إذا أحس بملل الجمهور منها انتقل إلى كوميدياته الراقية التى بناها على نقد ما فى المجتمع من نقائص ، واعتمد فيه الثانى ، على الكسار ، على شخصية رجل كان يطلق عليه (بربرى مصر الوحيد) وكان طيب القلب ، مهمته فى الحياة التوفيق بين المتخاصمين وجبر الخواطر ، حتى يصل الشاطر حسن إلى ست الحسن التى حجبها عنه شياطين يمثلون الشر ، مع استعراض غنائى كان الجمهور يستسيغه ، ويغنى فيه حامد مرسى وعقيلة راتب ، ويلمع هو فيه معهما ، لمعاناً أتاح له أن يقف موقف الند من مسرح الريحانى .

ثم أتى حين فى الحرب العالمية الأولى ، كانت الكوميديات تعتمد على استعراض مسرحى غنائى راقص ، مع بعض ديالوجات فكاهية ، فرانكو آراب ، كما كانوا يطلقون عليها .

ثم ظهرت إلى جانب هذه الاستعراضات ، مسارح عبد الرحمن رشدى وجورج أبيض والشيخ سلامة حجازى وعزيز عيد وأمين صدقى ، لتقدم كوميديات مترجمة راقية ومصرية أحياناً .

وكان مسرح الشيخ سيد درويش يقدم أوبريتات غنائية ما تزال أغانيها كأنما قد فرغ ملحنها المبدع الخالد سيد درويش منها فى التوّ وفى هذه الأيام التى تعيشونها . والفن الأصيل روح لا تنطفئ شعلتها ، بل تبقى متوهجة بفضل ما بها من حرارة الصدق وعبقرية خالقها وصانعها الفنان القدير .

وقد قدَّم على مسرحه العشرة الطيبة وشهر زاد والباروكة ، التى كان يضع فيها من النقد للاحتلال ، غمزات لاذعة حتى استطاعت السلطة أن تغلق مسرحه بأساليبها الملتوية .

* * *

ويمضى المؤرخ الأعظم فى سرد أخبار المسرح الكوميدى فى مصر فيما بعد الحرب العالمية الثانية .

كانت الكوميديات ، كما ذكرنا ، تنحصر فى مسرح الريحانى والكسار وعزيز عيد فى فترات متقطعة ، وذلك عقب الحرب العالمية الأولى .

وعزَّ على يوسف وهبى ألا يلقى بدلوه فى الدلاء ، فراح يقدم مسرحيات كوميدية مترجمة لاقت نجاحاً كبيراً . وهو نفسه ، كوميدى من طـــراز فريد شكلا إن أراد ، وصوتاً وحركة برغم إرادته .

كما أنه يعد من أكثر الممثلين فهماً لأبعاد الدور الذى يمثله ، أيًا كان نوعه ، وهو ما حدا به إلى تقديم مسرحية (بيومى أفندى) التى كان يغمز فيها بنقد لاذع ، أوضاع المجتمع ومتناقضاته ، ويوغل فى سويداء ما يريد كشفه متوسلا فى ذلك بقدرته على فهم كوميديا . المواقف وكوميديا السلوك .

وكان يعلم أن تراجيدياته لا تجذب إلا فريقاً من الطبقة المستنيرة ، وهذه لا تشبع جوع الشباك النَّهم .

فقلَّة ، هى التى تعنى بمشاهدة راسبوتين وغادة الكاميليا ، والمجنون ، والوحوش وأبناء الفقراء وعشرات مثلها .

ولا بأس من سرد نادرة تناسب هذا المقام ، عن تراجيديات عميد المسرح ، يوسف وهبى . فقد قصد مسرح رمسيس ، فى أوج مجده ، عامل من الكادحين ، أراد أن يروِّح عن نفسه فى يوم عطلته وهو يوم الجمعة ، واجتذبته الإعلانات فقطع تذكرته فى أعلى التياترو ، وجلس لمتابعة أحداث الرواية التراجيدية التى راح يوسف (بك) يأتى فيها على مصائر كثير من شخصيات التراجيديا ، بلا شفقة أو رحمة .

انقبض صدر العامل المسكين ، الذى جاء ليرفه عن نفسه ، فإذا به أمام مأتم متلاحق المآسى ، وأيقن أن نقوده ذهبت هبــاء ، وتمنى لو كان ما يجرى أمامه ، إنما هو مقدمة ، كان لا بد منها ، لسوء سلوك الذين لقوا مصرعهم على يد رغبة عميد المسرح ، وأنه سوف يأتى بعدها ، إن شاء الله ، ما يزيل كربه ، ويعمل على الترفيه المنشود .

ولما لم يحدث ما تعلّق به من أمل واه ، صرخ من أعلى التياترو :

« يا سى يوسف . كفايه كده . واللى فينا مكفِّينا . قول لنا حاجة من شكوكو ، الله يجبر خاطرك » .

ولعل المجال يسمح بسرد نادرة أخرى أقدم عهداً تتعلق هى الأخرى بالمسرح .

فقد حدث فى إحدى جولات فرقة جورج أبيض فى عواصم المديريات ، أن تخلّف ممثل من أعضاء الفرقة ، وكان دوره صغيراً ، ولكن مغصاً كلويًّا . مفاجئاً ، أقعده عن مجرد الحركة . ومهما يكن من أمر دوره الصغير ، فإنه لا بد من شغله بأحد .

أسقط فى يد الأستاذ الكبير جورج أبيض ، لولا أن انتشله مما هو

فيه ، أحد ممثلي الفرقة ، الذى ذكر للأستاذ جورج ، أنه قابل صديقاً فى المدينة — وكانت المنصورة — أنبأه بأنه كان فى طريقه إليه ، ليدعوه إلى حضور فرح أخيه ، الذى أحضروا له من القاهرة ، فرقة موسيقية وبعض فنانين من المونولوجست وكذلك أحمد الفار الذى اشتهر برواية الحكايات الفكاهية ، والدخول فى قفشات مع الجمهور ، بترتيب خاص ، مثلما كان يحدث فى مسرح على الكسّار ، إلى جانب تقليده لبعض الأصوات وهو بحكم اعتياده على مواجهة الجمهور ، فإنه يستطيع أن يقوم بدور الممثل المريض ، ثم يعود إلى الفرح ، لأن دوره لا يتجاور دقائق .

واستصوب الأستاذ جورج أبيض الفكرة ، وأحضروا أحمد الفار ، الذى أفهموه دوره الصغير ، وألبسوه عمامة وقفطاناً ووضعوا له ذقناً وشارباً مستعارين .

وكان عليه ، طبقاً لمجريات الرواية ، أن يرد على جورج أبيض ، بأربع كلمات على التحديد ، هى :

أقسم لك أنى برىء

وذلك عندما يكون جورج قد غرز أصابعه فى صدره ، صارخاً ، « سوف أقتلك أيها المجرم ، سوف أقتلك ، سوف أقتلك . . »

وبدلاً من أن يغرز جورج أبيض أصابعه فى صدره ، غرزها فى بطنه ، بسبب ضعف بصره ، وبسبب ما عرف عن جورج أبيض من اندماج كلى فى الدور الذى يؤديه ، فإنه لم يكن يسمع شيئاً مما يدور حوله ، حتى

صوت الملقن ، ولم يلتفت إلى صوت أحمد الفار وهو يناشده أن يخفف من ضغط قبضة يده ، لأنه بالفعل سيموت إذا استمر جورج فيما هو مندمج فيه . فلما لم يجد الفار صدى لهذا الرجاء المستميت ، إذ به يخلع العمامة والذقن والشارب والقفطان ، ويلقى بهم على أرض المسرح وهو يصرخ ويدفعهم عنه :

حدّ الله بينى وبينكم ! دول ما كانوش ثلاث (برايز) ، ثلاثين قرشاً ، علشان تتآمروا على قتلى ، والاسم تمثيل ؟ . . . ابعدوا عنى . .

ثم جاءت سنوات ما بعد عام ١٩٥٠ ، وظهر معها مسرح كوميدى انتقادى ، مهمته نقد المجتمع فى سبيل خدمته ، عندما تنحرف بعض طبقاته عن جادة المعقول والصواب .

وكان من الطبيعى عقب الانتقال من مجتمع رأسمالى إلى مجتمع اشتراكى ، أن تهتز موازين كل شىء قامت عليه الكوميديا فيما قبل ذلك . وأصبح الهدف شيئاً ضرورياً ومصاحباً لأحداث المسرحية الكوميدية .

وانحصرت الكوميديا فى السخرية من أوضاع المجتمع القديم أو من وقوع انحرافات حديثة تدعو إلى النقد والتوجيه ، مثلما كان يجرى فى رواية (ميرامار) أو (روبابيكيا) ، يهدف تنقية المجتمع والسلطة من شوائب ، إن لم تستأصل وهى فى بدايتها ، استشرت وصَعُب الفتق على الراتق .

وظهرت فى هذه السنوات الأخيرة مسرحية سكة السلامة ، ومسرحية القضية ، اللتان عرضتا إلى نقاط الضعف فى شخصيات من المجتمع ، ذات ميول متباينة واتجاهات متعددة ، وخفة ظل وقدرة على الحركة والتحليل ، سرت فى طول هاتين المسرحيتين ، عن فهم وإدراك بالكوميديا

السلوكية الراقية .

وقد أكون واقعياً وأنا أقول إن الكوميديا المصرية منذ عهد الريحانى ، لم تتقدم خطوة إلى الأمام ، إلا فى بعض شخصيات المسرحية ، التى يعتمد فيها المؤلف على ما يقع من متناقضات فى الطبقة المتوسطة ، نابعة من تخفيف التمسك بقيود القديم ، والتطلع إلى الجديد بحذر مأتاه نقد المجتمع والبيئة لكل أمر مستحدث ، سرعان ما يألفه بعد حين ، ما ذكرته هنا من مسرحيات إنما هو على سبيل المثال . وقد ظهرت عشرات التمثيليات التى نجح مؤلفوها فى الوصول بها إلى حيث يريدون .

ومما يؤسف له أن بعض كوميديات العصر الحاضر فى مصر ، نرى فيها المؤلف يلجأ إلى الألفاظ التى تثير الضحك لمدلولات فيها ، وإشارات وحركات تخدش الحياء .

كما أن الاعتماد على الإضحاك لمواقف حركية كضرب الممثل نفسه بحذاء ، أو الوقوع على الأرض ، أو بلبس ملابس مستهجنة ، لا يعد من الكوميديا الراقية مطلقاً . وإن كان يثير الضحك للضحك ، وهو فى رأى بعض الناس هو الغاية من الكوميديا ، بل هو وسيلة وغاية فى اختصار مفيد .

على أننا لوجه الحق ، نقول إن المؤلف المصرى للكوميديا معذور فى ذلك كل العذر .

ذلك أن الجمهور لا تحركه إلا مواقف بعينها ، يراقب المؤلف بعين يقظة ، مواضعها أثناء العرض ، ليجد لنفسه مكاناً فى كوميدياته القادمة إرضاء لهذا الجمهور ، الذى يخافه ويخشاه كأنه الجنة والنار ، والذى

عرف زاده الذى يهفو إليه ويهواه .

ولعلى لا أجاوز الحق ، إذا قلت إن پارڤان شانيل سانك ، أوجاك فات ، أو كريستيان ديور ، لا يقبل عليها أقوام لا يرضيها إلا الروائح النفَّـــاذة ، التى تحتل المواضع التى تنسكب عليها ، احتلالا يتطلب جهداً وكفاحاً ونضالا ، حتى يذهب ريحها . . . هذا إن ذهب . . . ومؤلف الكوميديا المصرى يعلم أنه يعرض عمله على شعب ذكى (يفهمها وهى طائرة) كأنه فى موقعه يبيع ماء فى حارة السقايين .

وليس أعرف بطبيعة النفس إلا صاحبها . وقد تتطور الكتابة المسرحية للكوميديا إلى ما هو مرجو منها ، إذا التزم الكتَّاب الجانب الإنسانى الذى يمكن أن يضحك منه كل مشاهد ، مهما كانت طبقته ، ومهما كان زمانه وعصره ، وأينما عرضت مثل هذه المسرحيات .

ولديكم فى مصر بحمد الله وفرة من الممثلين الكوميديين تباهون بها أى دولة . وكلهم مجيد نابغ لأن وصولهم إلى خشبة المسرح وسط هذا الجمهور الواعى المستنير ، يتطلب مزايا هى بحمد الله متوفرة لدى الكثرة من المصريين وتظهر واضحة بالمران . ولو وقع هذا الحشد من الكوميديين على نص ناجح ، إذن لسمعتم طرباً ورأيتم عجباً .

* * *

كنا قد وصلنا فى طوافنا إلى بيروت ، ثغر لبنان القريب ، حيث كان المؤرخ الأعظم للمسرح على موعد مع مركز هيئة اليونسكو فى بيروت ، الذى أعد له برنامجاً ثقافياً يستمع فيه المدعوون إلى محاضراته ومناقشاته ، عن تاريخ المسرح اليونانى منذ عهـــد يوريبيدس صاحب مسرحية

هيبوليتاس ، وسوفوكليس صاحب أوديب وأنتيجون ، وأشيل صاحب بروميثيوس .

ودعناه شاكرين ، ودعا لنا بالتوفيق فى باقى رحلتنا .

ولما كنا ننوى أن نبحر إلى أماكن نائية ، لا قبل لمراكب الشراع بها ، لأسباب جوية وفنية ، فقد هبطنا بيروت مع الهابطين ، لنستقل منها ، طبقاً لجدول مرسوم ، باخرة فاخرة ، ضخمة فخمة ، تُغرى بالاطمئنان وتبعث بالثقة فى النفوس ، وتزدان أبهاؤها بكل ما تطيب به الروح ، وينشرح له الصدر . كما كانت تتسع هذه الأبهاء لمئات المسافرين ، عند عرض مسرحية أو فيلم سينمائى لدفع أى ملل أو سأم من الرحلة ، إلى جانب تجهيزها بالحديث من الآلات الكهربية الحديثة ، التى تتحكم فى الصوت وفى الضوء ، بحيث يطيب للمشاهد فى مقعده الوثير ، الوقت والمتعة والفائدة وانسجام رفقة الطريق .

تفرقنا فى ممرات الباخرة بحثاً عن مقصوراتنا التى دلّنا عليها مستخدمو الباخرة ، وتواعدنا على اللقاء فوق ظهر الباخرة ، لنشاهد الهابطين والصاعدين ، وهى متعة المسافر فى كل شىء ومن أى جنس ، وكأنما كنا نلتقى بخواطرنا مع خواطر أبى الفرج الأصبهانى ، صاحب كتاب الأغانى عند قوله : « فى طباع البشر محبة الانتقال من شىء إلى شىء ، والاستراحة من معهود إلى مستجد . وكل منتقل إليه ، أشهى إلى النفس من المنتقل عنه ، المنتظر أغلى على القلب من الموجود » .

وتلاقينا على سطح الباخرة : « مفاعيل » . . . وقفنا ندقق النظر فى الصاعدين ، انتظاراً منا لرؤية المؤرخ الأعظم للشعر والشعراء ،

حيث كان منظمو الرحلة قد اتفقوا معه على أخذه فى رحلتنا هذه ليحدثنا خلال الرحلة عن عالم الشعر الفكاهى والشعراء الماجنين ، إلى أن نتوقف فى ميناء تريستا الذى ينزل هو فيه ليقطع الطريق براً من فينيسيا إلى فلورانس شمالاً ، وهى مركز الإشعاع الفكرى فى القرون الوسطى ، وموطن (دانتى) صاحب الكوميديا الإلهية ، وأخلد شعراء إيطاليا ، ليصل منها إلى مدينتى (فيرونا وبادوفا) القريبتين من بحر الأدرياتيك حيث وقعت أحداث مأساة (شكسبير) الخالدة ١٥٩٤ (روميو وجولييت) فى هذه المنطقة .

وقد علمنا من منظمى الرحلة أن المؤرخ الأعظم للشعر تلقى دعـــوة من جامعة (ڤيرونا) لإلقاء محاضرة ، صرف همه فيها إلى عقد مقارنة بين مأساة مجنون ليلى ، العربية ، ومأساة شيكسبير ، روميو وجولييت .



الفصل الخامس

أدب الفكاهة في الشعر عند الشعراء

شاهدنا من مواقعنا العالية فوق سطح الباخرة « مفاعيل » شيخاً مهيباً وقوراً أشيب ، يلبس (حُطَّة) يحيط بها عقال ، ويلتف فى عباءة فضفاضة بيضاء ، وقد أمسك بعصاً طويلة ، وأطل من تحت إبطه سجل كبير ، كان يحرص عليه حرص الخليل بن أحمد الفراهيدى على صحة أوزانه وبحوره .

وكان يصعد مرقى الباخرة فى تؤدة ومهابة استقطبت من حوله الأنظار وأحاطت به فى إعجاب وارتقاب .

لقد بدا عليه ، برغم طول الطريق الذى قطعه ، توثب الشباب ، واطمئنان الشيوخ .

لقد علمنا فيما بعد ، أنه جاء من شبه الجزيرة العربية ، وعرَّج فى طريقه على بغداد فدمشق فحلب ، موطن وحاضرة إمارة سيف الدولة الحمدانى ومسرح تغنِّى المتنبي بشعره ، حتى بلغ بيروت ، ليصحبنا فى رحلتنا ، ولنسعد بصحبته ولنستمتع بمعارفه وواسع إحاطته بكل مجالات الشعر ، وبصفة خاصة بالشعر الفكاهى والشعراء الماجنين .

سار الشيخ الوقور بتؤدة ووقار ، وتقدمه إلى البهو الكبير ، ضابط

بحرى من ضباط المركب ، حتى استقر فى صدر البهو فوق أريكة وثيرة الفراش ، ناعمة المساند ، وراح يتمتم بكلام مقفى موزون ، تبين لى من التقاط أذنى لبعض ألفاظه ، أنه لابن أبى صقر ، الذى كان يقول بعد أن طعن فى السن ، وأصبحت العصا جزءاً من أشلائه :

كلُّ أمر إذا تمعَّنت فيه وتأملتـــه رأيت ظريفــــا
كنتُ أمشى على اثنتين قوياً وترانى على ثلاثٍ ضعيفاً

* * *

أخذ الشيخ يرفع صوته حتى يصل إلى كل سمع متشوِّق ، وكل نفس راغبة ، وراح يقول :

الظرف فى الشعر ضرورة كضرورة الأنوثة للمرأة ، والطيب فى العطر ، والماء للزروع ، والحرية للبشر أجمعين .

ولن تجد شعراً تستطيبه الأسماع ، وتحفظه الأذهان ، إلا إذا احتوى على طلاوة أسلوب ، وجمال معنى ورهافة حس ، وخفة ظل فى التناول والسرد ، والتندّر ببدائع المجون . .

والهجاءون إذا لم يضم هجاؤهم ظرفاً مُستحبًّا ، وخيالاً ممتد الأفق ، ومفارقة ذات مجون ، فأولى بشعرهم وهجائهم أن يسلك فى شعر السباب والشتائم ، لا الهجاء الظريف .

فقد حدث أن الأقيشر ، واسمه المغيرة بن عبد الله الأسدى ، الذى ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام ، كان يحب ابنة عم له اسمها الرباب ويتحرق شوقاً للزواج منها الذى أباه عليه أبوها ما لم يدفع مهراً قدره عشرة آلاف درهم لم يكن يملك منها درهماً . وقد ردّه أهله عندما رجاهم بدعوتهم

له ، فعاد حزيناً شقياً .

وهداه تفكيره إلى أن يسأل العون من ابن رأس البغل ، وهو دهقان الصين ، وكان مجوسياً من عبدة النار . وقد وجد عنده ضالته وأعطاه الصداق المطلوب .

ورأى الأقيشر أن يمدحه بقصيدة تنم عن الشكر وهى إلى جانب الشكر ، تضمنت قدحاً مستطرفاً بالغ الظرف . قال :

كفانى المجوسىُّ مهر الرباب
فِدًى للمجوسىِّ خالى وعمْ
شهدت بأنك رَطْبُ المشاش (١)
وأنَّ أباك الجـواد الخِضَمْ
وأنك سيد أهــل الجحيم
إذا ما تردَّيت فيمن ظَلمْ
تجاور قارون فى قعــرها
وفرعون والمُكتنى بالحَكَمْ (٢)

فلما عاتبه المجوسى على هذا الجزاء وهو الذى فك ضيقته ، أجابه الأقيشر :

أو ما ترضى أن جعلتك مع الملوك وفوق أبى جهل ؟

بل إن بعض الرِّثاء إذا صاغه شاعر ظريف ، لطيف الحس ، لمست فيه العزاء الجميل ، والفلسفه التى تذهب الحزن .

---

(١) رطب المشاش بمعنى كريم النفس .
(٢) الحكم هو أبو جهل .

فقد حدث أن أبا دلامة زند بن الجون الكوفى المنبت ، الماجن المضيع للقروض ، والمجاهر بذلك ، كان الخلفاء والولاة يتجاوزون عن آثامه للطفه وظرفه .

وكان من ندماء أبى جعفر المنصور ، الذى حبّبه فيه ظرفه . ومما يروى عنه أنه دخل على أم سلمة المخزومية ، امرأة الخليفة أبى العباس السفّاح ، بعد وفاة زوجها ، فإذا بفجيعتها فيه تبعث الدموع فى عينيه ، فبكت معه . وراح ينشدها قصيدة فى رثائه ، فقالت له :

لم أر أحداً أصيب به ، غيرى وغيرك يا أبا دلامة .

فقال : يرحمك الله ، ولكن لا سواء ، فأنت لك منه ولد ، وما ولدت أنا منه . . . . .

فضحكت ، ولم تكن ضحكت قبل ذلك ، وقالت :

لو حدَّثت الشيطان لأضحكته . .

* * *

طاف المؤرخ الأعظم بنظره بين المستمعين ، فلمح وجوهاً مصرية كثيرة ، فابتسم لها مرحباً ، ثم أردف يقول :

يطيب لى قبل أن نوغل فى عالم الشعر الفكاهى عند العرب ، أن نعرض بعض ملامح رقيقة من شعر ظرفاء مصر ، فى عصر ، لا هو بالبعيد ، ولا هو بالقريب ، وإن كان العلم به غير منتشر ، حتى ليخشى أن يندثر .

كان هذا العصر وشعراؤه ، يقع فى نهاية القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر ، وبلغ ذروة إشراقه ما بين عام ١٧٥٠ وعام ١٧٩٠ .

ولم يأل صديقى الجبرتى جهداً فى بحث أحوال ذلك العصر ، فى نواحيه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية والعسكرية ، ليؤرخ لها تأريخاً ، التزم فيه كالعهد به ، صدق الحس ، وأمانة العرض ، والإحاطة بالوقائع .

وشعراء مصر من الظرفاء ، لا يحصيهم العد .

والظرف فى مصر فن له أصالته وطريقته ، وله سدنته وفرسانه .

وإنك لتدركه فى كل مقال ومجال ، فإن لم تدركه أدركك ، لما يتميز به من سرعة بديهة وإشراق لماحيته ، وظرف معناه ومبناه .

وإنك لتقرأ لافتات على محال تجارية ، فيما تسلك من طرقات ، تثير فى نفسك الضحك وتشيع بين جوانحك البهجة .

من ذلك أن جزاراً فتح محلا فى شارع من الشوارع غير المعروفة ، وعلق لافتة للمحل جاء فيها : « الجزارة العالمية . . . . »

ويبدو أن الرجل ، أخذه الحياء مما أقدم عليه من ادعاء العالمية ، فعاد يكمل اللافتة مستدركاً بظرف لمّاح ، لتصبح : « الجزارة العالمية . . . الصغرى . . . »

وعندما عُرض فى مصر فيلم الوردة البيضاء ، استهوى الاسم أفئدة كثيرين من أصحاب المحلات التجارية ، من غير مراعاة لمقتضى الحال ، كما هو الأمر فى البيان .

فكنت ترى مثلاً « فسخانى الوردة البيضاء » أو « أسماك الوردة البيضاء » أو فرارجى الوردة البيضاء »

وصدرت فى مصر مجلة فى الثلاثينات ، طاب لصاحبها أن يسميها

« مجلتي » . وكانت هذه التسمية كفيلة بأن تجتذب إليها المولعين بالتجديد ، فراح كثير من التجار يطلقونها على محالهم ، فكنت ترى على سبيل المثال : « بفتتي » لمحل بيع الأقمشة الشعبية من بفتة ودمور وغيرها . أو « لحمتي » . . . على محل جزارة متطور .. حتى بلغ الحال بحانوتي عصري بالإمام الشافعي ، أن أطلق على دكانته : « طُربتي » . . . .

وأنت إذا كلّت عينك من قراءة اللافتات ، التقطت أُذنك وأنت تسلك طريقك ، أحاديث المارة التي تنطوي على متعة ما بعدها من متعة .

فقد أبلغني صديق ، أنه كان يتنزه على شاطئ النيل ، وإذا برجل يصحب أولاده الأربعة في نزهة اقتصادية ، فهو موظف محدود الدخل من المال لا من الولد . . . ، وكان منظر بائع « السميط » الذي مرَّ بهم ، قد حرَّك شهية الأولاد ، فرضخ الوالد لإلحاحهم ، واستوقف البائع ليسأله عن ثمن الواحدة من السميط ، فلما علم أنه قرشان ، راح يتلمس مخرجاً من هذا الحرج ، وسرعان ، ما وجده في جس السميط وقوله للبائع : منذ كم من الأيام وأنت تبيع هذا السميط ! . .

وإذا بالبائع يرد عليه بصوت عال ليقول : إذا لم تكن قادراً على السميط ، ابحث لك عمّا يتفق ومقامك . . .

وذكر لي صديق آخر أنه كان يمر في الطريق ، وإذا به يسمع حواراً بين صاحب عربة « كارو[1] » تحمل نسوة رقيقات الحال ، وبين

---

(١) الكارو عربة يجرها في الأغلب حمار وتتكون من ألواح خشبية عريضة فوق عجلتين . ويجلس على الألواح ركب هذا النوع الذي يعد أقل أنواع المواصلات نفقة وقدراً . والاسم إيطالي محرَّف .

امرأة تسأله عما يتناوله بين أجر من المنيرة للصليبة . فلما أبلغها أنه يتناول قرشاً صاغاً أجابته بأنها لا تدفع أكثر من نصف قرش ، وإذا به يحث حماره على الإسراع فى السير ، ليقول لها وهو مُدْبر :

مادمتم غير قادرين على « الكارو » ما لكم ومالها . . . . .

وقد حفلت مصر بشعرائها الظرفاء منذ القرن الخامس عشر ، وبزَّهم صفى الدين الحلى وابن نباتة .

وقد جاء من بعدهما شعراء عرفوا بشعراء (وجه البركة) .

وكانت آثارهم الأدبية ، كما سوف نرى ، تنم عن طول باعهم فى الشعر ، وجمال تصورهم لما كان يحيط بهم من متع وحياة وارفة الظلال ، تميل أغصانها بثمار المنى ، على مذهبهم .

ولعل المقام يقتضينا أن نذكر أمثلة من شعر صفى الدين ورفيقه ابن نباتة ، قبل أن نعرِّج على شعراء وجه البركة .

يقول صفى الدين الحلى فى الغزل :

يا ضعيف الجفون أمرضت قلباً ... كان قبل الهوى قوياً سوّيا
لا تحارب بناظريك فؤادى ... فضعيفان يغلبان قويا

وله فى موضع آخر .

أبت الوصال مخافة الرقباء ... وأتتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودةً ... وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحيَت بزورتها النفوس وطالما ... ضنَّت بها فقضت على الأحياء
أمَّت بليلٍ والنجوم كأنها ... درٌّ بباطن خيمة زرقاء
أمست تعاطينى المدام وبيننا ... عتبٌ غنيتُ به عن الصهباء

وأبيت غير مسالم من طعنـة نجلاء أو من مقلة نجـبلاء

ولابن نباتة هذا النظم الرقيق :

شكوت فما أَلْوى وقلت فما صَغَى وجَدَّ بقلبي حبُّه وهو هـازلُ
طويل التـوانى ، دلُّـه متواتر مديد التجنى وافر الحسن كامل
أُطارحه بالنجـو يوماً تعلُّلا فيبدو وفى الإعراب فيه دلائل
ويرفع وصلى وهو مفعول فى الهوى وينصب هجرى عامداً وهو فاعل
تفقَّهت فى عشقى له مثل ما غدا خبيراً بأحكام الخلاف يجادل
فيا مالكى ما ضُرَّ لو كنت شافعى بوصلك فافعل بى كما أنت فاعلُ
فإنى حنيفىٌّ الهـوى متحنبـلٌ بعشقك لا أُصغى وإن قال قائل

* * *

نخلص من هذا إلى الشعراء الذين وفوا بشعراء وجه البركة ، واشتهر شعرهم بلطف المعنى وظرف المبنى .

ولا بأس من ذكر نبذة عن تاريخ وجه البركة ، لنصل منها إلى شعرائها الذين تأثروا ببيئتها وأثرها عليهم .

بعد زوال الدولة الفاطمية ، قيض الله للبركة حوالى عام ١٤٦٠ ميلادية ، أميراً وقائداً شجاعاً ومحارباً مغواراً ، هو الأمير يزبك الخازندار.

وعندما استتب له الأمر فى مصر ، فكر فى أن يشيد له قصراً منيفاً ، يجمع فيه أطراف الترف من طارف وتليد . وقد وقع اختياره على بركة بطن البقرة ، التى شاء لها الزمن أن تحمل اسمه ، فأصبحت تسمى ببركة الأزبكية .

ومما يجدر ذكره ، أن القاهرة فى العصور الماضية ، كانت تكثر

فيها البرك ، فكان منها بركة الفيل ، وبركة الرطلى. وبركة الحاج ، وبركة الجيش ، وبركة الأزبكية .

وكان الخليج المصرى يخترق القاهرة ، ومن أجل ذلك كثرت القناطر المقامة عليه ، مثل قنطرة الدكة وقنطرة السباع وقنطرة الليمون ، وقنطرة الحسينية .

وذكر الجبرتى ، فى تأريخه لهذه الحقبة ، الكثير من أحداث ذلك العصر ، وأدباء وشعراء هذه البركة ، التى انتشرت من حولها القصور والمنازل الفخمة التى شيَّدها ثراة القاهــرة وتجارها الكبار أصحاب الجاه والمال العريض .

من ذلك ما ذكره ، من أن عائلة الشرايبى ، كانت تسكن قصراً منيفاً بناه عميدها فى وجه البركة .

وفى عام ١٧٢٦ شيد قاسم بن محمد داود الشرايبى ، جامع الشرايبى الذى يعرف الآن بجامع البكرى بشارع الرويعى

وقد سمى (جامع البكرى) لأن المجذوب على البكرى قد دُفن فيه عام ١٧٩٢ .

ولم يكن هذا المجذوب يمت لعائلة البكرى المعروفة التى كانت قصورها حول البركة منيفة عامرة ، ولكن انتماءه للطريقة البكرية ، أكسبه هذا اللقب .

وعندما أتى الجبرتى على ذكره قال : « كان رجلاً من البُلْه ، يمشى بالأسواق ، عرياناً مكشوف الرأس والسوأتين ، غائباً »

واستطرد الجبرتى ليصل إلى أن أخا هذا المجذوب ، كان فقيراً

لا يكاد يجد قوت يومه ، فعنَّ له أن يحتال على الناس ، عندما رآهم يتبركون بأخيه ، ويعتقدون فى قدرته على الاطلاع على الغيب ، ويشفى المرضى ، ويفرج هم المكروب ، فراح يشيع بين الناس أن أخاه أصبح قطباً يزار ، وحجزه فى داره ، فانهالت عليه الهدايا والنذور والأموال ، حتى جمع أخو المجذوب فى فترة قصيرة ، أموالاً طائلة من وراء هذه الحيلة الاحتيال .

ولما مات البكرى المذكور ، دفنه أخوه ، فى ضريح يجتمع حوله الآن المنشدون الذين يذكرون وينشدون المدائح الشعرية فى القطب على البكرى) .

ومما ذكره الجبرتى كذلك فى تأريخه لهـذا العصر ، أن الشيخ عبد الله الشبراوى ، المتـوفى عام ١٧٥٥ ، كان من أبرز شعراء وأدباء عصره . وقد تولى فى أخريات حياته مشيخه الأزهر وقد شيَّد قصراً فى حى الرويعى جمع فيه النادر والثمين وحوى ألوان الترف والبذخ التى عرفها الأمراء والأثرياء بفضل ما ورثه من والده .

وكان فى ريعان شبابه ، يخرج مع خلانه وأخدانه ، إلى مطارح اللهو المنتشرة حول البركة وفى الملاهى العديدة المنبثة فى كل ركن من أركان حى وجه البركة ، وما تحويه من كل ما يخطر على بال من شراب أو مأكل أو رقص أو لعب ومن متعة مجالسة فاتنات هـذه الأماكن ، حيث لا رقيب أوحسيب .

وقد اندفع مع خلانه ليغترف من هذه المتع قبل أن يمضى الشباب ويذبل العمر .

وقد انعكس أمر هذه الحياة على شعر عبد الله الشبراوى الذى شهد له أهل عصره ومن أتى بعدهم بالرقة والظرف .

انظره فى قوله :

ألا إن دينى فاعلموه هو الهوى ... وموتى شهيداً فى الصبابة مذهب

وأصبو إلى الوجه الجميل إذا بدا ... وأهرب من ذكر السلوّ وأغضب

وعشق القدود الهيف عندى عقيدة ... وطبع عليه ، قد رُبيت ومذهب

قضى الله أن الحب أعلى فضيلة ... وأن الهوى أحلى نعيماً وأعذب

* * *

وإن الذى يمعن النظر فى نظم هذا الشاعر ، يستوقفه حرصه على ذكر ما يرد عادة فى العبادات من مثل « الدين والشهادة والمذهب والعقيدة وقضاء الله والفضيلة والنعيم » .

فى شعر غزلى ، لا فى تصوف أو ابتهال ، وكأنما كان يريد أن يشعر قارئه ، على طريقته ، أن الرجل نشأ فى بيت دين وفضيلة ، غلب ما يشيع فى البيت من ألفاظ العبادات على نظمه الغزلى ، فى ظرف ناعم متعمد شديد الذكاء .

وكان فى حياته تلك التى عاشها فى صدر شبابه ، قد وقف قلبه على أهل الحسن وذوات الفتنة والجمال ، حتى إذا وقعت عينه على إحداهن ، انصرف إليها ، تاركاً كل ما عداها ، وإذا بالنظرة يعقبها ابتسامة و الهوى مُيَسّر حيناً ، ومتعذر أحياناً ، وهذا شأن الجمال وأهل الجمال .

اسمعه فى وصف اجتماعه بإحدى فاتناته :

عانقتُهُ فاسْودت المقل التى ... هى بلوتى ، واحمرت الوجَنات

وضممت قامته فخلت كأنها قد عجّلت لذاتها الجنّات
يا قلبُ إن زعم العوازل أنه في الحسن يوجد مثله ، قُل هاتوا
ما زلت أجنى من لذيذ حديثه تحفاً لها من طيبه نفحاتُ
وبلغت قصدى حين وافى طيفه ليزور من راقت له الأوقات
ودنا يودّعنى فلا وأبيك ما بقيت لدى التوديع فىَّ حياةُ

* * *

ومن أدباء وشعراء وجه البركة المبرّزين ، الذين ذكرهم الجبرتى ، عندما كان يؤرخ لهذا العصر اللاهى ، قاسم بن عطا الله المصرى ، المتوفى عام ١٧٨٥

نظم شعراً كان يسمى فى ذلك الأوان ، بالمزدوجات ، وهو مقطعات شعرية ، ذات جرس حلو وسلاسة عذبة .

ومن ذلك ما قاله فى وصف بديع لحدائق بركة الأزبكية ، وما بها من طير وشجر ، وزهر وجداول ، ورياض وورود :

حديقة بها السرور مُحدِقُ جدولها مسلسل منطلقُ
فى جوها نجم الزهور مُشرقُ وبانُها طوراً يميل ويسرقُ
من وجنة الماء احمرار الوردِ

* * *

باكر صبوح روضة الزهور فأبرك الأشياء فى البكور
ورِدْ على اللذات والسرور واترك هوى وساوس الصدور
فمنهل اللذات عند الموردِ

* * *

والورْق مذعنَّت على العيدان بين قَدٍّ ، ماس غصن البان
والآس فوق وجنة النُّعمان من ذا رأى الجنَّة فى النيران
عجبت للتأليف بين الضّدِ

* * *

وقد وصف الجبرتى حياة ذلك العصر ، بماعرف عنه من دقة وإحاطة وشمول وغوْصٍ وراء أبعد الغايات .

يقول فى وصف قصر من قصور الأمير (كتخذا رضوان) المتوفى عام ١٧٧٥ ، وكان قد شيَّدْه على ضفاف بركة الأزبكية :

« أنشأ قصراً فى الأزبكية ، له قبابٌ عجيبة الصنعة ، منقوشة بالذهب واللازورد ، والزجاج الملوَّن ، والألوان الزاهية ، والصنائع الدقيقة . وبنى قصراً آخر مطلا على الخليج الناصرى وبوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى ، وينصب منها إلى حوض من أسفل ، ويجرى إلى البستان فى سقى الأشجار .

وبنى قصراً آخر بداخل البستان ، مطلا على الخليج . فكان يتنقل بين هاتيك القصور ، وبخاصة فى أيام النيل » .

وفى مجلس بأحد هذه القصور المطلة على البركة ، وصف الشاعر قاسم بن عطا الله المصرى ، يوماً قضاه مع الأمير وحاشيته من أصدقاء وندمان وقيان وعازفين ، فى قصف وشراب وضحك وابتهاج :

لله ما أبهى وما أسناها فى كأسها كالشمس فى مرآها
يسعى بها البدر وقد أدناها من شفتيه اللُّعس ما أحلاها
إذ مزجت من ريقه بالشهد

* * *

شعاعها سطا على الندمان ساوى شجاع القلب بالجبان
ومالت الحمراء فى الميدان بين صفوف صحبة القيان
كأنها من الدما فى بُرْد

* * *

مليكــة لطيفــة المــزاج تختال فى برد من الدّيباج
عـلى جوادٍ أشهب الزجاج ببهجة احمرارها الوهّــاج
تحكى خدود قاتلى بالصَّد

* * *

وكان حى وجه البركة لا ينام . ليله كله حركة وصخب وعربدة وتهتك وخلاعة ومجون وحشيش وخمر وميسر ونساء من كافة الأجناس . وفى ذلك يقول الشيخ حسن العطار ، وهو من أدباء وشعراء وجه البركة ، الذين تأثروا فى أدبهم بما تزخر به هذه البيئة الماجنة .

« يوقد بها كثير من السُّرج والشموع ، فالأنس منها غير مقطوع ولا ممنوع . وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور ، ولطالما مضت لى بالمسَّرة فيها أيام وليال ، هن فى سمط الأيام من يتيم اللآلى » .

ومما ذكر عن الشيخ الشعرانى أحد هذه العصبة الخليعة ، المتوفى عام ١٥٦٩ ، قوله الماجن فى صدر شبابه « لابد لكل معصية من عاص » . وكأنما على غير لقاء مع (راسبوتين) يلتقى معه بالفكر الداعر ويذهب مذهب (راسبوتين) الذى وضعه ليصل به إلى مبتغاه ، ومفاده « أنه لا يتأتى لامرئ معرفة الفضيلة ، حتى يقترف الرذيلة » .

وانتشر اللهو والغناء والطرب فى ملاهى البركة ، واتصل المغنون بالشعراء ، يلتمسون منهم نظم المقطّعات والموشحات الغنائية المناسبة للعصر الذى يعيشونه .

وقد استجاب الشعراء لهؤلاء الداعين ، وانتشرت الموشحات والمقطعات والأشعار بين أرباب الفن والغناء . كما ذاعت بين الناس الذين كانوا يحفظونها ويتغنّون بها فى مجالسهم الخاصة وفى أوقات سمرهم .

وكان من أشهر مغنى هذا العصر ، فى أوائل القرن التاسع عشر : مصطفى الصيرفى ، وإبراهيم الورّاق ، والمقدِّم ، وحسن قشوة والحبابى .

وكان التنافس على أشده بين الصيرفى وحسن قشوة وقد انتصر الشاعر الخشاب للصيرفى ونظم له شعراً كان يتغنى به ويتيه بما احتواه من مدح لصوته :

صوت رقيق ولحن حـــين يُعربه   يأتى بما عنه تعيا طاقة البشر
فلو تغنَّى لميْتٍ مات من قـــدمٍ   جرت به الروح جرى الماء فى الشجر

* * *

ومن الشعر الغنائى الذى اشتهر فى ذلك العصر ، وما يزال نابضاً بالحياة إلى هذا العصر ، بفضل ترديده من سيدة الغناء العربى ، منذ أن ترنَّم صوت بغناء عربى ، السيدة أم كلثوم ، قول الشيخ عبد الله الشبراوى :

وحقِّك أنت المنى والطلب   وأنت المراد وأنت الأرب
ولى فيك يا هاجرى صبوةٌ   تحيَّر فى وصفها كل صبْ
أبيت أُســـامر نجم السّما   إذا لاح لى فى الدُّجى أوغرب

ويعجبنى منك حسن القوام ولين الكلام وفرط الأدب

وكان ملحن هذه الخريدة الخالدة الأستاذ أبو العلا محمد للسيدة أم كلثوم .

* * *

ولم يخل ذلك الزمن من بعض أهل الفضل الذين ورد ذكرهم على لسان الجبرتى ، وكان شعرهم عفًّا وإن كان موقفهم مما حولهم من فجور ، لم ينغمسوا فيه ، ولم يحاولوا دفعه أو وقفه ، أشبه بموقف أصحاب الأعراف . وكان (دانتى) قد كشف فى الكوميديا الإلهية عن أناسٍ لا يستحقون عذاب النار ، ولا يستحقون نعيم الجنَّة .

ويبدو أن (دانتى) تأثر بما تناوله أبو العلاء المعرى فى كتابه (رسالة الغفران) ، عند وصوله إلى أحاديث المعراج وفى قوله : « إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنَّة » .

وقد وصف الجبرتى أحد هؤلاء الأدباء وهو مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى ، المتوفى عام ١٧٥٥ بقوله :

« أفضل النبلاء ، وأنبل الفضلاء ، بلبل دوحة الفصاحة ، وغريدها ، من انحازت له بدائعها ، طريفها وتليدها .

ومن شعره فى وصف حديقة الأزبكية :

وهات لى حديث الأزبكية وما حوت أرواحهـا الزكيَّة

يا حبَّـذا معاهـدُ حِسان يُغنيك عن وصفى لها العيَان

قد حلَّ فيها الزنبق الفتَّان   حصباؤها اليـــاقوت والمرجان
فانظر تراها جنَّة كالخلد

* * *

فكم بهـــا من دوحةٍ أنيقهْ   وروضَةٍ أغصانهـــا وريقهُ
وربوةٌ أنهـــارها غديقـــة   ومرجـــةٌ أزهارهـــا عبيقـــهُ
من نرجس وسوسن وورد

* * *

تزهو بهـــا حدائق الأزهار   عن طيب نفح عَرْفها المعطار
تُعيد نشر طيبها وتُبدى

* * *

هذه المزدوجات التى نأتى على ذكرها ونعيدها على أسماعكم ، إنما نحرص على إثباتها لما تحتويه من ظرف التناول ، وما تحمله من إشارات رقيقة ، وأسلوب قصصى بديع ، وشعر خلا من التكلف ، وتبرأ من الملل والسأم . وهل هناك ما هو أظرف من هذا ؟

شاع الفجور حول البركة ، حتى لم يكن هناك موضع قدم لفسق جديد . وأقبل أبناء الموسرين ، وتبعهم متوسطو الحال على ملاهى ومراقص وملاعب وجه البركة وحاناتها . وأضاعوا ثرواتهم وصحتهم ومستقبلهم . وغدوا فوق الفقر مرضى .

وكم بيعت ضياع وقصور ومتاجر بثمن بخس ، للحاق بقطار اللذات ، الذى يتطلب الكثير الغزير من الوسائل والمال ، والقليل الأقل من العقل والحجا .

وتلقَّفت هذه الثروات موائد الميسر وجماعات الرقص ، الأمر الذى ارتفعت معه أصوات الكتاب والمفكرين والمصلحين وراحوا يطالبون الحكومة بالعلاج والإصلاح ، إلا أن الامتيازات الأجنبية كانت تغل يد الحكومة عن إتيان أى إصلاح ، بحكم مراعاة الصالح الأجنبي الذى من أجله قامت الامتيازات ، ومن أجله أنشئت المحاكم المختلطة ومن أجلهما قام الاستعمار لحمايتهما .

ولقد كان شاعركم الكبير وشاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم فى طليعة من ندَّدوا بشعرهم ، بهذا الحال المفجع ، عندما قال مخاطباً الأزبكية :

كم وارتٍ غضَّ الشباب رميته   بغرام راقصة وحب هلوك
ألبسته الثوبين فى حاليهما   تيــــه الغنىِّ وذِلّة المفلــوك

وفى موضع آخر يقول :

يقولون فى النشء خير لنا   وللنشء شر من الأجنبى
أفى الأزبكية مثوى البنين !   وبين المساجــد مثوى الأب ؟

* * *

ولم يصدر إلا فى عام ١٩٤٩ الأمر القاضى بإلغاء البغاء .

وعند ذلك فقط ، جدَّت الحكومة فى غلق أمكنة الدعارة ومطاردة القوادين والمفسدين ، وعاد الحى مُبرءاً من كل فساد ، وشغل مبانيــه القديمة ، أصحاب الصناعات والتجارة والحرف ، وأصبح من أنشطه الأحياء فى الصناعات الصغيرة وبيع بضائع الطبقات الوسطى .

وقد أورد على مبارك باشا فى خططه إحصائية عن عدد المقاهى والخمارات بخلاف بيع البوظة ، فكان فى وجه البركة ٢٥٢ مقهى ، ٢٢٨

خمارة ، ١٥ محلا للبوظة . وهذا يعادل كل ما كان فى القاهرة عام ١٨٨٠ من خمارات ومقاه .

* * *

يتوقف المؤرخ الأعظم للشعر الفكاهى قليلا ، ليستجمع شوارد ذكرياته ، وهنا ، استأذن أحدُ المستمعين ، الأستاذ المؤرخ ، فى سؤاله عن السِّر فى انفراد الشعر العربى إلى حد بعيد وتميزه بالقدرة على استخدام السخرية والتهكم والتنديد ، وهنا أضاف المؤرخ مكملا قول السائل ، بل على الشعر الكاريكاتيرى الذى لم يسبقهم إليه سابق ، حتى لكأنك تشاهد أمامك صورة متحركة ، نابضة بالحياة والمجون والفكاهة .

انظر إلى ابن الرومى وهو يصف قزماً بصندوق صدرى (أتب) .

قصرت آقاذعه وطال قذاله ... فكأنه متربصٌ أن يُصفعا

وكأنما صُفعت قفاهُ مرَّةً ... وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

وصورة أخرى لعمر بن أبى ربيعة يقول فيها :

أبتْ الروادف والثَّدِىٌّ لقُمْصِها ... مَسَّ البطون وأن تَمَسَّ ظهورا

وراح المؤرخ يزيد الأمر وضوحاً بقوله :

لقد ميّز الله العرب بالأديان والشعر . وميَّز مصر وروما بالمعمار والنحت ، وميَّز اليونان بالحكمة والفلسفة ، وميَّز الألمان بالأوبرات والسيمفونيات ، كما ميَّز أوربا الصناعية قديماً . . بالاستعمار والاحتلال . . حتى لقد كانت كلمة الاستعمار لا تذكر إلا وعدا وراءها الوعى واستحضر إلى جانبها عالم الغرب .

والعرب أهل سخرية تجرى على ألسنتهم فى شعر كان ذلك أو فى

نثر . وهم أئمة الهجاء والتهكم والسخرية التى تملأ مجلدات إن أردنا لها ذكراً أو تمثيلا . وهم على هذا الحال فى حال يسر أو عسر . انظر إلى قول جحظة البرمكى فى أخريات حياته :

يطول علىَّ الليــل حتى أملُّهُ　　فأجلس والنوَّام فى غفلةٍ عنِّى
فلا أنا بالراضى من الدهر فعله　　ولا الدهر يرضى بالذى ناله منِّى

* * *

وربما كان مرجع ذلك إلى ما كانوا عليه فى بداوتهم من رزق محدود ، وشظف بغير حدود ، فأطلقوا ألسنتهم بالتهكم والسخرية . ومم يخافون ! والمفلس يغلب السلطان .

وعلى الرغم مما كانت عليه بداوتهم من خشونة فى العيش ، وندرة فيا حولهم مما يوصف ، فقد أتوا بالعجب العجاب فى وصف أى شىء يقع عليه نظرهم ، فى قصائد ومعلقات طوال ، بارعة العرض ، عميقة الفكر والتحليل . وقد يكون الموصوف نخلة أو ناقة أو أطلالا دارسة ، ولكنك سوف تجد فى السَّرد وفى الوصف وفى التأمل وفى الظرف ، نواة لدراما أو عرضاً مسرحيًّا . نجترئ لنعرض إلى مشهد الأعرابى الذى اعترض طريقه أسد هصور وكان هو يركب حصاناً تقاعس عندما رأى الأسد ، فراح الأعرابى يصف موقعته مع الأسد كما لو كانت مشهداً يستحضرك إليه لتراه رأى العين مع أخته :

أفاطم لو شهدت ببطن خبتٍ　　وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذن لرأيت ليثاً أمَّ ليثـاً　　هـزبراً أغلبـاً لاقى هـزبرا

وأخذ يُعد حصانه للهجوم عليه ، ولكن حصانه جفل وجُبُنَ وتقاعس ،

فراح الأعرابى يقول :

أَنِل قدمىَّ ظهر الأرض إنى　　رأيت الأرض أثبت منك ظهراً

وتنتهى الدراما ، باستشهاد الأسد وفوز الأعرابى .

وإذا كان أهل الغرب قد بزّوا العرب فى ميادين التمثيل والمسرح بأنواعه ، فإن من أسباب تأخر العرب فى ذلك ، خشونة النشأة ، وصعوبة العيش فى محيط وبيئة تصعب فيها الحصول على مطالب الحياة ، وصعوبة التناغم مع محيط كل ما فيه عدوٌ لهم ، بدءاً بعصف الرياح الهوج ، وختاما بعطشٍ لاهب لا يرحم ، وكر وفرّ بينهما بلا نهاية .

وبرغم ذلك تناغموا مع هذا المحيط وأتوا بالعجب فيما تركوه من آثار ، فلما نزحوا إلى الأندلس ، ومن بعدها إلى أوربا ، أثاروا دهشة العـــالم حتى اليوم ، بما حصلوا عليه من علم وفن ومعمار وموسيقى وأدب وشعر وفلسفة وطب وجراحة ، أخذها عنهم الغرب وأزدهى بها ، وعاش عليها قَروناً ، كان الغرب فيها عالة على علوم العرب وفنونهم .

* * *

ولعلنا إذا ألممنا إلمامة عاجلة ، بقطبين من أقطاب المجون ، من شعراء الدولة العباسية ، هما أبو نواس الذى ولد عند قيام الدولة العباسية ، وحمّاد عجرد الذى شهد الدولتين وارتفع ذكره فى عهد الدولة العباسية ، نكون قد عرضنا نموذجاً بارزاً يغنى عن أخبار الآخرين الذين ملأوا بمجونهم صفحات الأدب العربى ، حتى إننا إذا شئنا أن نجمع جانباً مما قالوا ، لاحتجنا إلى مجلد فى حجم دليل تليفونات القاهرة عام ٢٠٠٠ .

وأبو نواس ، الحسن بن هانئ يُعد إمام العابثين الماجنين .

وعندما قدم الكوفة ، تفتقت شاعريته الباكرة ، عندما أحب فتاة صغيرة هى التى قال فيها قصيدته الغزلية الرقيقة :

حامل الهوى تعبُ يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ليس ما به لعبُ
تعجبين من سقمى ! صحتى هى العجبُ

ثم راح يتردد فى البصرة على حلقات الدرس والتحصيل والعلم واللغة والرواية حتى حذق كل ما كان يجلس لسماعه . ولم يكن يفوته منها حلقة .

وعندما دخلت الجارية جنان حياته ، برزت فيه ملكة الشعر الغزلى والوجدانى والفلسفى والصوفى كذلك كأنما انفتحت على وجهها كنوزه .

وكانت حلوة ناعمة ، أديبة ذكية . وحدث أن رآها مرة ، ولم تكن تظهر سافرة ، وإنما كانت تتحجّب ، نقول رآها وهى تبكى وتلطم خديها حزناً على موت بعض سادتها ، وكان يرقب المنظر من بعيد ، فقال :

يا قمراً أبرزه مأتم يندب شجواً بين أترابِ
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعنابِ
لا تبك مَيْتاً حلَّ فى حفرةٍ وابك قتيلاً لك بالباب

ويوم أن خرجت جنان للحج فى ركاب سيدتها ، لم يستطع صبراً على فراقها ، فلحق بها . وعندما دنا مأخوذاً بقدسية الكعبة ، تملكته رهبة المكان المقدس ، وهو الزنديق العابث الفاسق ، فانخرط فى بكا صادق ، لعل الغفران يحل به والعفو يناله ، وراح ينظم ابتهالا ما يزال يسمع ويتغنى به الناس حتى هذه الأيام :

إلهنـــا ما أعــدلَكْ   مليك كل مــن ملكْ
لَبَّيك قــد لبَّيت لكْ   وكل مــن أهلَّ لكْ
لبيَّك إن الحمـــد لكْ   والملك لا شريك لكْ
يا غافــلاً مــا أغفَلكْ   عجِّل وبـــادر أجلكْ
لبيَّك إن العـــزَّ لك   والحمد والنعمــة لكْ

* * *

أما قصة استغفاره وتوبته وابتهاله ، فقد نفذ إلى صميم حقيقتها كاتبكم الكبير دكتور حسين هيكل عندما قال عن هذا الحدث ، قول طبيب نفسانى ، يتعمق الظواهر ، ليصل إلى المكنون : «لا تقل إن الازدواج النفسي شأن الشعراء . وإن أبا نواس الذى كان يقول :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سرًّا إذا أمكن الجهــر

هو أبو نواس الذى كان يقول :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفت
له عن عدو فى ثيــاب صديق

فليس هذا من أبى نواس ازدواجاً فى الروح . وما الحكمة الزاهدة عنده إلا فتور نفس أجهدتها اللذة فأضعفتها ، فأخافها الضعف ، فألجأها إلى حمى الحكمة والزهد ، وإلى استغفار الله والتوبة إليه . لذلك لا تلبث نفسه إذ تحاورها القوة ، حتى تعود إلى نعيم الترف والإباحة » .

* * *

أما حمَّاد عجرد فقد عاش خلال الدولتين الأموية والعباسية وكان

نديم ابن يزيد الأموى . واشتهر فى الدولة العباسية .

وقامت بين حماد وبشار بن برد مهاجاة لا تهدأ ولا تستقر . وكان ما بينهما من هجاء ، لو تفرغ له باحث لأخرج مجلداً ضخماً ، لا أقول يسر القارئين ، ولكن أقول ، يسر الهجّائين الذين يفتخرون بأنفسهم لهذين القطبين ، مثلما ينتسب الرسَّامون إلى مدارس بعينها ، فهذا كلاسيكى وهذا تأثيرى وهذا سيريالى وهذا واقعى .

ومن أقذع ما هجا به حمّادٌ ، بشَّاراً ، قوله :

وأعجمى يشبه القـــرد	إذا ما عمى القـــرد

ويروون أن بشّارًا أبكاه هذا القول أكثر من كل هجاء سبقه ، ولما سألوه عن بكائه أجاب ، وفى إجابته سخرية مُرَّةٌ لاذعة : يرانى فيصفنى ، وأنا لا أراه حتى أصفه . . .

وتُروى رواية أن بشَّاراً بلغه موت حماد عندما اشتدت عليه علته فقال :

لو عاش حماد لهونـــا به	لـكنه صار إلى النـــار

وعندما سمع حمَّاد هذا البيت قال :

نبئت : بشار نعانى وللشعر	برانى الخالـــق البارى
يا ليتنى مت ولم أهجُــهُ	نعم ، ولو صرت إلى النار
وأى خِزىٍ هو أخزى من أن	يقال لى : يا سابَّ بشَّار

ومن عجيبِ أمر نهايتهما أنهما اشتركا فى قبرين متجاورين ، بعد أن مات حماد بعلته ومات بشار مقتولاً . ولما مر على قبريهما شاعر بصرى ، هو هشام الباهلى قال :

قــد تبــع الأعمى قفا عجرد | فأصبحا جارين فى دار
قالت بقاع الأرض لا مرحباً | بقــرب حمّــاد وبشّــار
تجاورا بعــد تجــافيهمــا | ما أبغض الجــار إلى الجــار
صارا جميعاً فى يدىْ مالكٍ | فى النــار والفاسق فى النار

* * *

وماذا أقول عن شاعر العروبة شوقى . إن كل ما تقرؤه له ظريف يعبق باللطف والطرافة والجِدَّة . . ولو شاء أن يكتب شيئاً لا ظرف فيه لا ستعصى عليه ما أراد . إنه رسول الحياة .

وهو يجمع ثلاث صور فى نفس واحدة . إنه شاعر نهج البردة الذى قال :

ريم على القاع بين البان والعلم | أحلَّ سفك دمى فى الأشهر الحُرُمِ

إلى أن يناجى رسول الله بقوله فى نجواه الطاهرة :

سَرَتْ بشائر بالهـادى ومولــده
فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
أتيت والناس فوضى لا تمــر بهم
إلا على صنم قــد هام فى صنم

وهو نفسه ، رسول الحياة وترجمان ما بها من متع ولذائذ ، والداعى لما تشتاقه النفس من هذا النعيم قبل أن يولى العمر ، ويذبل الشجر ويذوى الزهر . وهو يقول فى حلبة رقص وفى كأس :

حفَّ كأسها الحبب | فهى فضــة ذهب

ثم يهرب من واقع ما يأمر به الدين فيفزع إلى المتعة :

رمضـــان ولىَّ هاتهـــا يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

ثم تراه فى صورة ثالثة ، كالروح الشفيفة التى ترِفُّ وتملأ الحياة مجوناً لطيفاً ، كأنه رفيف الفراشة أو نسمة الربيع .

فتراه يصف ذقن دكتور محجوب ثابت التى أوت إليها البراغيث كملجأ تخرج منه فى سبيل العمل والسعى فى طلب الرزق من الغير .

براغيث محجوب لم أنسهـا ولم أنس ما طعمت من دمى

تشق خراطيمهـــا جوربى وتنفـذ فى اللحم والأعظم

بواكير تطلع قبـل الشتاء وترفـــع ألويـــة الموسم

وقال مرَّة على لسان محجوب شعراً هو ترجمة للمثل الشعبى « يشتمنى فى زفة ويصالحنى فى عطفة »

أيشتمنى سليمان بـــن فـــوزى

(وپايپى) فى يدى ومعى (طَبَاقى)

بقارعة الطـــريق ينـــال منى

ويوسعنى عناقاً فى الزقــــاق

وذلك عندما اختلف سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول مع محجوب ثابت .

وعندما استبدل دكتور محجوب ثابت عربته وجواده الذى كان يسميه (مكسوينى) نسبة إلى محافظ (دبلن) عند إضراب أيرلندا مدى عام للحصول على استقلالها ، وكناية إلى ضعفه وهزاله ، استبدل هذه العربة وجوادها بسيارة (أو فرلاند) قال شوقى قصيدته الشهيرة

لكم فى الخُطِّ سيـــارهْ حديث الجـــار والجـــارهْ

وقــد تحــزن أحياناً وتمشى وحدهـا تـاره
ولا تشبعهـا عينٌ من البنزين فـوّاره

إلى أن يقول وقد عاودته الحكمة :

أدنيـا الخيل يا (مكسى) كدنيـا ، الناس غـدّاره
لقـد أبدلك الدهـر من الإقبـال إدبـاره
فصبرًا يا أخـا الخيـل فنفس الحـرِّ صبّـاره

وكان شوقى رحمه الله قمة فى كل ما نظم ، والنبع الصافى لا يتغير صفاؤه . من حيث تفجرت عين مائه ، أو حيث يستقر فى الوادى تجده كاللُّجين .

أما شيخ شعرائكم فى مصر ، وهو إسماعيل صبرى باشا ، فقد كان على شاكلة شوقى فى ظرف نظمه ، وصدق حسه ، ورقة خياله . وإنه ليعييك أن تجد شعرًا نَبَت فى باطن الكفِّ ، مثلما يعييك أن تجد شعراً لهذين الإمامين خلا من الظرف والطرافة وحلو الرنين .

يقول إسماعيل صبرى ، عندما سقطت وزارة حشمت عن صدر الشعب عام ١٩٠٨ بعد سنوات أعانت فيها المستعمر على ما يريد :

عجبت لهم قـالـوا سقطت ومن يكن
مكانك يأمن من سقوط ويسـلمُ
فأنت امرؤٌ ألصـقت نفسـك بالثرى
وحرَّمت – خوف العَزْلِ – ما لم يُحرَّمُ
فلو أسقطـوا من حيث أنت زجاجـة
على الصـخر لم تصـدع ولم تتحطم

وقال يعتب على صديق يتوب عن شرب الخمر ثم يعود إليها :

في كل يوم عندكم دم كَرمةٍ
لك توبة من توبة من سفكه
والصدق من شيم الكرام فقل لنا
أمن الشراب تتوب أم من تركه !

وكان يؤثر الكاتبة الكبيرة الآنسة مى بالتقدير والإعجاب وكانت هى أهل لأكثر من ذلك .

وقد كانت موضع رعاية واهتمام الأئمة من الكتاب والشعراء ورجال الصحافة ، عند بداية القرن العشرين .

وكانوا يكتبون إليها ، وتكتب إليهم ، على بساط من الطهر ممدود ، من أجل استثارة كوامن الشعر والأدب .

نظم لها إسماعيل صبرى هذه الأبيات :

أهاجرتى أطفئى ، لواعج لا تنتهى
مضت فى هواك السنون ، وما نلت ما أشتهى
إذا قيل مات الأديب بفاتنة ، أنت هى .

فلما بلغتها الرقعة كتبت تحتها :

زمانك قبلى انتهى ولا يرجع المنتهى
فحسبى أن أزدهى وحسبك أن تشتهى

* * *

النيل وشاعره جديران أحدهما بالآخر . كل منهما فيَّاض على على طريقته . هذا بالماء والخيرات ، وذاك بالشعر والحسرات .

سعيت إلى أن كدت انتعل الدما
وعُدت وما أعقبت إلا التندُّ ما

ولم يكن حافظ يضمِّن شعره ما كان يجول فى خواطره وحواشى نفسه من أخيلة مجونية اشتهر بها فى مجالسه ، ابتعاداً بشعره من أن يترخصه غير عالم ولا بصير .

ولقد كان له ذوق بارع فى اختراع النكتة وإدراك موضع الفكاهة فى أى حديث أمامه ، فيلتقط الخيط ويسير فى اتجاهه الضاحك .

وكان فى مجالسه موضع الإعجاب ومنبع السرور . وهو ممن يرسل النكتة من بديهة حاضرة ، فتستخف الوقور ، وتستهوى الرزين ، على عكس ما يُعطيك شعره من صور جادة صادقة عبوس .

ولو قد أتيح له أن يدخل صوراً من فكاهته فى شعره ، لربح الأدب والشعر المجونى من ذلك ربحاً وفيراً .

ولكن كان يُغلّب على أمره إذا تعرَّض لما لابد منه من فكاهة فى مناسبة أو موضع ، وهنا تبرز موهبته الخارقة فى النكتة التى تستخرج أعمق الضحك من أكثر الناس وقاراً .

ففى حفل تكريم للشاعر الكبير حفنى ناصف بك بمناسبة انتقاله من القضاء إلى التفتيش بنظارة المعارف ، تجد مواضع فى قصيدته ، تبتعث الضحك الذى تدمع منه العينان .

يا يـــوم تكريم حفنى أرهقت للقــول ذهنى
فيـــا قريض أجبنى ويا بيــان أعنّ

إلى أن يقول :

فكل رَبٍّ يـــراعٍ في مصرَ خرِّيج (حفنى)
إن قال شعـــراً فـراحٌ تـدار فى يـوم دُجـن
أو قال نثراً فـــروحٌ يجتـــازنا غِبّ مُــزْن

إلى أن يصل إلى :

لولا الحيـــاء ولــولا دينى وعقــلى وسنِّى
لقمت فى يــوم (حفنى) أدعـــو لسكره (ينىّ)

ويمضى ليقول :

أقـــول هـــذا وإنِّى لمحسن فيــك ظنِّى
فإن غـــدوت وزيـــرًا يوماً وجئتنـــا نهنِّى
فلا تكـــن ذا حجـــاب ولا تُطل فى التجنِّى
ولا تقـــل مــــن غُرور يا أيهـــا الناس إنِّى

ثم يأخذنى التذكير بأمر حدث لهما وأصبح مما ترويه أحاديث الأدب . ذلك أنه لما توفى الشيخ محمد عبده ، وقف على قبره يوم تأبينه ، ستة من الخطباء هم على الترتيب التالى : الشيخ أبو خطوة ، وحسن عاصم باشا ، وحسن عبد الرازق باشا وقاسم أمين بك ، وحفنى ناصف بك ، وحافظ إبراهيم بك .

وقد مات الأربعة الأولون ، واحداً فى إثر سابقه ، وعلى نفس ترتيب أصحاب كلمات التأبين . وجاءت النوبة على حفنى بك ، وكان قد بعث إلى حافظ بأبيات يذكره فيها بالموت ، ويدعوه إلى الاستعداد له ، إذا نزلت به المنيَّة .

وقد تذكرَّ حافظ عندما وصل إلى الحد الذى ذكرناه آنفاً ، تذكرَّ هذه الحادثة ، فرأى أن ينبه إليها ذهن المحتفى به فراح يقول له :

أخشى عليك المنايـــا حتى كأنــك منىّ
إذا شكوتَ صداعـــا أطلت تسهيـد جفنى
وإن عــراك هُــزالٌ هيأتُ لحــدى وقُطنى
وإن دعــوتُ لحيٍّ يومـــاً فإيَّاك أعنيِ
عمــرى بعمــرك رهن فَعِش أعِشْ ألف قـرنِ
وليس على الله بمســتكـثر أن يجمع العالم فى واحـد

ذلكم هو حفنى ناصف القاضى المربى العالم اللغوى الشاعر الكاتب الأديب الخطيب الفكه ، السادن للغة العربية ومتنها وشرحها ، ونحوها وصرفها . أو الوصية به ، شأن غيره من المثرين :

أتمضى معى إن حان حَيْنِىْ تجــاربى
ومــا نلتهــا إلا بطـــول عنـــاء
ويحــزننى ألا أرى لى حيلـــةٌ
لإعطائهــا من يستحــق عطـــائى
إذا ورَّث المـثرون أبنــاءهم غـنًّى
وَجَاهاً فمــا أشـقى بنى الحكمـــاء

ولقد أطلنا الحديث عن شعراء المجون منذ زمان بعيد ، إلى زمان قريب ، ولولا أننى أرى على الأفق شواطئ الأرض الإيطالية تبدو مؤذنة بانتهاء هذه المرحلة ، لأطلت ، وخاصة فى ذكر الطيِّب من أقوال وأشعار الشاعر العالم الفيلسوف حفنى ناصف بك .

وأختتم ببعض ما أثر عنه :

فقد قال عندما نقل وهو فى القضاء إلى مديرية قنا ، وجوّها على ما هو معروف قائظ لاهب ، قال : إن اسمها مشتق من الآية الكريمة « وقِنا عذاب النار » .

ولكنه يستدرك بسرعة بديهة غلاَّبة ، حتى لا يغضب أهل قنا . فكان يقول ، عن شهرتها فى عالم صنع الأوانى الفخارية ، إن أى جرَّة من الفخار أو قُلَّة تَشْرُف بين الناس لانتمائها إلى قِنا ، ثم يزيد :

ويكفى ان يُقال قِنا لتُقتنى

وأنجبت مصر من شعراء الفكاهة محمد الأسمر وحسين شفيق المصرى وعبد الحميد الديب والعقاد (وإبراهيم ناجى ومحمود غنيم) وكان بينهما مثل ما كان بين بشّار وعجرد . والمجال يطول والنهاية اقتربت .

قام المؤرخ الأعظم للشعر ، ليستعد للهبوط إلى ميناء تريستا التى يغادرها إلى (فيرونا) وِفق ما اتفق عليه مع جامعة المدينة العتيدة التى شهدت أحداث روميو وجوليت ، ليلقى محاضرته عن هذه المأساة ومقارنتها بمأساة مجنون ليلى .

وقد شكرنا له ما أفدنا منه ودعا لنا بالتوفيق وسمعناه يُردِّد قول ابن حزم الأندلسى :

لم يستقر بـه دارٌ ولا وطــن ولا تدفأ منـه قط موضعــه
كأنما صيغ من بعض السَّحاب فما تزال ريحٌ إلى الآفاق تدفعــه

الفصل السادس

أدب الفكاهة في الرسم عند الرسامين

هبط المؤرخ الكبير ميناء تريستا مع الهابطين ، ومضى لغايته نحو الأديج الأعلى الذى تقع فيه مدينة ڤيرونا .

وهبطنا نحن للقيام بجولة فى الميناء الذى تقتسمه يوجوسلافيا مع إيطاليا ، فى عالم وزمن تميزا بانقسام الكل إلى قسمين أو أكثر مثل كوريا والصين وفيتنام وألمانيا والكونجو واليمن .

ثم نترك تريستا الى (فينيسيا) لمشاهدة شوارعها المائية التى تجد بينها أزقة مثلما هو الحال فى طرق المدن ، وأضل سبيلا . . .

كما سوف نشاهد أو نستقل ، من باب التذكار ، واحداً من (جناديلها) إن صح هذا الجمع . وكم وددت ألا يرى الجندول ، كل من رسم له فى خياله صورة ترتفع به إلى عربة (ساندريلا) ، من ابتكار (والت ديزنى) أو فى القليل عربة زينب هانم التى كانوا يؤجرونها للعرائس فى العهد الخديوى .

لون الجندول المعروف بسواده الحالك ، يقبض الصدر ويدفع الفكر إلى الغراب النوحى وسواد شعره الفاحم ونحسه القائم . . .

ولا جمال فيه إلا فى أخيلة العشاق وشعرائهم الغادين ، الذين يهيمون

بهم وبعقولهم كل هيام ، ويعصبون أعينهم برقيق نظمهم الذى يحجب عنهم حقائق الملموس ، وقسوة الواقع .

والملاح الشادى الذى يجدف بالعشاق وهو يغنى ، إنما هو طير يرقص مذبوحاً من الألم ، فى ملابس تقليدية ، تبدو فى الأفلام أنيقة برَّاقة ، ولا يسعد بها إلا لحظة التصوير ، ثم تعود إلى مخازن الشركة المنتجة للفيلم ، ويعود هو إلى ارتداء بزَّته التقليدية التى بليت من فرط الاستعمال وارتفاع نفقات المعيشة فيما حوله ارتفاعاً لا يسمح له بأن يتناول فى غذائه أكثر من رغيف أسمر كبير ، يغمسه فى دفقات من نبيذ أحمر ، صبَّه فى إناء من صفيح ، هو زاده خلال عمله الخيالى الذى عشش فى أخيلة المحبين . وله فى العشاء (سباجيتى ساخنة) .

عدت مع صحبى بعد جولتنا السريعة إلى باخرتنا التى كانت ستقلع بنا إلى مارسيليا ثغر فرنسا الكبير ، الذى اشتهر بماريوس أو اشتهر ماريوس به ، حتى لا يذكر أحدهما حتى يرد على الخاطر ذكر الآخر .

والفكاهات التى أجراها الفرنسيون على لسان ماريوس ، تشبه فكاهات جحا فى الأدب العربى وخوجه نصر الدين فى تركيا .

من ذلك ما رواه من حكاية مفادها أن أحد أصدقائه الباريسيين ، كان على موعد مع فتاته أمام صيدلية معيَّنة . وكان الشتاء على أشده فى شهر يناير ، والثلج قد جمَّد كل شىء حتى كاد يجمِّد الأنفاس .

وكان صاحب الصيدلية يضع باروميتراً لقياس حرارة الطقس على جدار مُعرَّضٍ لتقلبات الجو ، حتى يكون تحرك مؤشره طبقاً لمقتضى الجو . . .

وقد رأى العاشق أن مؤشر البارومتر قد وصل إلى درجة عشرة تحت الصفر . وطال انتظاره وهو يمشي ذهاباً وجيئة استجلاباً لبعض الدفء ، وقد دس كفيه فى قفاز شاموا ، واختفى قفاه وراء ياقة المعطف والتف حول رقبته شال صوف (أنجورا) ، وعلى أذنيه واقية من جلد سميك وأصبح كالقواقع التى لا يبين من هيكلها الصدفى إلا رأسها أو جزء منه تخرجه إذا اطمأنت لما حولها .

ولما طال الوقوف بالعاشق ، قال بينه وبين نفسه : سأنتظر حتى تصل البرودة إلى خمسة عشر تحت الصفر ، فإذا لم تحضر (چانيت) فسوف أنصرف . . .

* * *

غادرنا ميناء مارسيليا إلى محطة السكة الحديدية لنسافر إلى باريس فى قطار المساء الذى يصل باريس فى ساعة مبكرة من الصباح التالى .

وعندما خلوت إلى نفسى فى مقصورة النوم الخاصة بى ، كان الإرهاق قد أخذ منى مأخذه ، فما إن لامست رأسى وسادة الفراش ، حتى رأيتنى مستغرقاً فى نومٍ ، غالبتنى فيه أحلامٌ ، كنت أستمع من خلالها إلى صوت عميق هادئ ، ينساب كالنغم الشجى الذى ملك علىَّ كل حواسى ، ولقيتنى أستمع إليه فى اهتمام ومتابعة وإعجاب وهو يقول :

الكاريكاتير من فنون الرسم ، كالشعر من فنون القول ، فيه بلاغة وبيان وبديع ، تستسيغه حواس النظر والفهم والذوق ، وتحتفظ به لتردده وقتما تشاء .

وإذا كان الشعر هو الرقص ، والنثر هو السير ، فإن الكاريكاتير

رقص باليه ، لأن الرمز يجمع بين الفنين .

ولن تجد رسماً كاريكاتوريًّا لا يبعث على الضحك .

فالضحك مادته التى يستعين بها على الوصول إلى هدفه من نقد وإصلاح وتقويم اعوجاج ، مثلما هو الحال مع النكتة التى تتخذ من الضحك وسيلة لتحقيق مآربها فى هذه الوجوه .

والنكتة قولا أو رسماً ، إنما تنبع من وراء كبت تثور عليه بالكلمة أو بالصورة للتنفيس عن ضغط هابط ، أو حكم جائر ، يعانى وقعهما شعب يقول النكتة اللاذعة ، ويرسم الصورة العميقة الأثر التى تأتى فى حيز ضيق ، بما لا يستطيعه كتاب .

أما عن الكلمة ، فيمكن أن نذكر ما أورده (بيكاسو) عندما كانوا يحتفلون ببلوغه سن الثمانين ، ودهشة البعض من نشاطه وحيويته فى هذه السن فأجاب بيكاسو :

الأمر فى غاية البساطة . . . فأنا لم أشرب نقطة من الخمر ، أو أدخن سيجارة أو أعرف امرأة ، أو أسهر . . قبل أن أبلغ العاشرة من عمرى . .

وأما عن الصورة الكاريكاتورية ، فقد حدث أن اختفى اللبن فى إحدى المدن ، ولم يكن من السهل العثور عليه إلا بأعلى الأثمان ، بسبب المستغلين ، وضعف الرقابة .

وقد رأى رسَّام كاريكاتورى الفرصة سانحة ، ليسخر من المشرفين على توزيع هذا الغذاء الحيوى وخصوصاً للأطفال فعمد إلى رسم أطفال

يقفون فى حلقة وهم يقولون :

« يعملوها الكبار ، ويقعوا فيها الصغار »

. . . .

والرسم الكاريكاتورى يمكن وصفه بأنه الجزء الذى يجمع فى كيانه خصائص الكل . وهو التعبير الذكى ، والإيماءة البارعة ، والفجر الذى لا يطيل فى إقامته ، فهو بعد أن يشرق ، يدع للنهار مكانه بعد أن أدَّى ما عليه . أو هو كالهلال الذى يبزغ ثم لا يلبث أن يغيب تاركاً مكانه للدورة القمرية .

والكاريكاتير ، كلما أمعنت النظر فى أهدافه أو هواتفه ودواعيه ، وجدته دعابة غير مخلوعة العذار ، وعلى قدر كبير من التهذيب الراقى .

وقد تصيب النكتة رجلاً فترديه ، لما تضمنته من فحش فى القول وبذاءة فى الألفاظ ، وإيلام جارح دون أن يكون من ورائها نفع أو جدوى للمجموع .

وليس الحال كذلك بالنسبة للكاريكاتير ، لأنه لا يهاجم فرداً ، إلا إذا كان حاكماً خرج عن جادة العدل ، وهو بإصلاحه إنما يسعى إلى إصلاح حال يعود الخير من ورائه على المجموع .

وكثيراً ما يكون الكاريكاتير عميقاً فى فهم مؤداه ، كما لا يكون من اليسير تبين غوره .

وإنك إذا نظرت إلى الحصى اللامع فى قاع النهر ، أو السمك السابح فى مجراه ، ظننت أنه قريب من متناول يدك ، بفعل خداع انكسار الضوء فى الماء .

وكثيراً ما يصادفك شعر يحتوى على شحنة قوية من الكاريكاتير .
انظر إلى أبى نواس وهو يصف بخل شحيح اشتهر بتقتيره الشديد .
قال يصفه فى هذا الشعر الكاريكاتيرى :

يُقَـتِّر عيسى على نفسه وليس ببـاقٍ ولا خالد
ولو يستطيع بتقتـيره تنفَّس من منخـرٍ واحد

ولصلاح جاهين ولع شديد بهذا الشعر الكاريكاتيرى الذى تراه فى شعره الشعبى أكثر مما تراه فى صوره .

لقد أراد أن يصور الشرور التى تحيط بالعالم ، حتى تكاد أن تغرقه دون ما أمل فى إنقاذ أو نجاة كما نجا نوح :
استمع إليه فى هذه الرباعية الكاريكاتيرية :

نوح راح لحاله والطوفان استمر
مركبنا تايه لسَّه مش لاقى له بر
آه من الطوفان وآهين يا برّ الأمان
ازاى تبـان والدنيـا غرقانـه شر
عجبى

* * *

ويقولون إن كلمة (كاريكاتير) مشتقة من اللغة اللاتينية .
وتشير إلى معنى من يحمل شيئا Carrier .

ثم تطورت إلى أن استعملها الإيطاليون بمعنى القيام بعمل ، من فعل Caricare .

وقيل فى التدليل على ذلك إن القائم بالأعمال – فى السلك الدبلوماسى –

يطلقـون عليه باللغـة الإيطالية ، اسم Caricato d'affare بمعـنى أنه يقوم بعمل أحد فى حال غيابه

ومن ذلك يبدو أن الصورة الكاريكاتيرية ، طبقاً لهذا المفهوم ، تعنى أنها تحل محل الصورة الأصلية ، لا بصورة كاملة ، ولكن على وجه قريب من الوجه الأكمل . وهذا هو الحادث بالنسبة للصورة الأصلية والصورة الكاريكاتيرية .

وكان لابد من احتوائها على عنصر المبالغة ، حتى تصل إلى هدفها من التهكم والسخرية . فإذا كان صاحب الصورة ذا أنف يطول قليلا عن الأنف الطبيعى ، ركّز الكاريكاتيرست على حجم الأنف ، وبالغ فى تكوينه مبالغة تحمل على الضحك منه والهزء به . وقل المثل فى السياسة والاجتماع .

* * *

لقد بدا لى أن إمكانيات النفس ليست مقصورة على منطقة الشعور ، وإنما تكمن وراء هذه المنطقة ، قوة أخرى تعمل بطريقة ما ، وبكيفية لا يشعر بها الإنسان ، ولا يدرى من أمرها شيئاً ، حتى جاء « سيجموند فرويد » وأطلق على هذه القوة المختفية اسم(اللاشعور) .

ويبدو أن هذا هو الذى حدث لى ، عندما استغرقت فى النوم ، ومرَّ على صفحة ذهنى هذا الشريط من الحديث عن الكاريكاتير وأصله وهدفه وغاياته .

ثم تذكرت وأنا بين النوم واليقظة ، أن بعض النقاد ولعلهم من الوجوديين — قبل وجودهم — زعموا أن فن الكاريكاتير بزغ فى عهد

النهضة (Rènaissance) ، من أجل إثبات أهمية الفرد ووجوده ، وهو ما كان يُعنى به هذا العصر ، تأكيداً لإظهار شخصية الفرد فى أى مجال من المجالات وعلى أى صورة من الصور .

وتذكرت أن يعقوب صنوع ، هو أول من استخدم فى صحيفته (أبو نضارة) فن الكاريكاتير ، فى بداية القرن العشرين ليصلح من ورائه ما يريد إصلاحه ، بلغة يفهمها حتى الأميون .

ثم جاءت مجلة اللطائف المصورة قبل وخلال الحرب العالمية الأولى واستخدمت هذا الفن الجديد . وكان يرسم لها الأخوان . . . إيهاب ونهاد خلوصى ، وهما من أصل عثمانى .

ثم جاء سانتس ورسم للكشكول وأعقبه صاروخيان فى روز اليوسف وأخبار اليوم .

وزخرت مصر بعد ذلك بفنانى الكاريكاتير أذكر منهم على سبيل المثال وبلا ترتيب رخا وصلاح جاهين وزهدى وناجى ورجائى وجورج ، وحجازى وبهجت والليثى وطوغان وعبد السميع، ورفقى وشوقى ومصطفى حسين

وظهرت شخصيات مصرية،على يد الفن الكاريكاتيرى ، منها : رفيعة هانم والسبع أفندى ، والمصرى أفندى ، وبنت البلد ، وابن البلد ، وكشكش بك .

أما الفهّامة فهى شخصية آلية ، يستخدمها قصيرو الفهم ، مثلما يستخدم النظارة ، قصيرو النظر . ويستخدمها مبتكرها بكل اقتصاد .

* * *

كان الفجر قد أخذ يبعث بنوره ، وقد أزحت ستارة شباكِ المقصورة ، لأمتع بصرى بمنظر الريف الفرنسى قبل الوصول إلى باريس . هذه هى نعمة الحياة التى تتجدد مع كل فجر وصباح .

هذه هى اللوحة الإلهية التى تتقطع أيدى كل الفنانين دون أن يصلوا إلى سرِّ مزجِ هذه الألوان على صورتها الطبيعية ، عند الأفق وعلى صفحة السماء وعلى أديم الأرض . إعجاز يفوق كل إعجاز .

الهواء كأنه العطر ، وألوان السماء تبدو كما لو كانت قد ارتسمت على جبين ووجنات عذراء ، مسَّها سحر الرغبة ، ثم أخذ يزايلها كلَّما اطمأنت ، رعشة المفاجأة ، وحمرة الخفر .

بعد قليل من الوقت ، أخذ الركب يستعد لمغادرة القطار فى محطة الشمال بباريس ، التى كانت أنوارها ما تزال تختطف الأبصار وإن كان نور النهار قد حثَّها على الانصراف .

هبطنا باريس العزيزة التى لها فى صدر وخَلَد وقلب وخاطر كلٍّ منا ، ألف حديث وذكرى وتاريخ .

وذقت من عطرها كأساً مشعشَعَةً

فعـاد لى الأطيبان الشِّعر والغَـزَلُ

ولكل أديب وشاعر ومصور وفنَّان ، وطنان : موطنه الأصلى ، ووطنه الفكرى ، فرنسا ، حيث عاش أو درس أو زار أو قرأ أو نقل عن الصفوة من فنانيها فى كل مجال .

وكنا على اختلاف جنسياتنا ، واختلاف لغاتنا ، لو شئنا أن نقول شيئاً ، نحيي به ذكرى أيامنا المواضى ، لما خرج ما نقوله عما قاله

إسماعيل صبرى منذ عهد بعيد :

سقى الله عهد الشَّباب النضير
فقد كان روضاً شَهِىَّ الجنىَ
إذ العيش كالغصن فى لينه
يميل بعبء ثمار المنَى

* * *

كان موعدنا مع المؤرخ العالمى الكبير للرَّسم والرسّامين قد تحدَّد ، بعد ظهر اليوم التالى ليوم وصولنا ، وفى الساعة الخامسة مساء بمدرج من مدرجات المعهد العالى للفنون الجميلة فى الحى اللاتينى ، وهو يتبع كلية الفنون الجميلة التى تقع ضمن مبانى السربون .

أمضينا ما كان لنا من وقت بين الوصول وبين موعد المحاضرة ، فى زيارة عاجلة لمتحف اللوفر وحده . إنه موجز الفنون جميعاً . ومقيل أهل الفن كلهم .

وبعد ظهر اليوم المحدَّد ، شخصنا نحو الحى اللاتينى .

حيَّاك الله أيها الحى العتيد . إنك مازلت منذ القرن الخامس مقصد ومهبط ومقيل أهل الفنون جميعاً من كل فجّ عميق ، فى شرق كان أو فى غرب .

وكان هذا الحى يتبع من ناحية التقسيم الإدارى لباريس (البانثيون) ثم (لوكسمبورج) فى القرن السادس ، إلى أن أصبح منذ القرن الثانى عشر ، مركز الإشعاع الفنى والفكرى والجامعى فى باريس .

اجتمعنا من كل الجنسيات التى كانت تضمها الرحلة ، فى مدرج

متسع ، زوَّده القائمون بالعمل فى المعهد ، بمكبرات للصور التى تعرض على شاشة خاصة ، كما أعدت منصة المحاضرات لتكون مرئية بوضوح من كل الجوانب .

كذلك كان الصوت يصل هادئاً عميقاً للمتحدث إلى كافة أنحاء المدرج .

دخل المؤرخ الكبير من أحد جوانب (الكواليس) وكان يرتدى الروب الجامعى ، وقد أطلق لحيته وشعر رأسه وأمسك فى يده عصا رفيعة ، شبيهة بعصا قائد الأوركسترا ، لتساعده فى الشرح كلما اقتضى الأمر ذلك .

ساد الصمت المدرج الكبير جداًّ . واشرأبت الأعناق وأطرقت الأسماع واتسعت الحدق لترى كل ما تريد رؤيته ، مهما ابتعد المنظور ، واللهفة تتملك الجميع .

حيا الجمهور ، الأستاذ المؤرخ المحاضر ، وجلس على فوتيل كبير وراء طاولة عالية ، حملت أوراقاً ومراجع ومصباحاً خافت الضوء إن شاء ، قويّة إن أراد .

بدأ الحديث بقوله :

ليس من المهم أن يتابع الرسم والنحت والحفر ، العارفون بهذه الفنون ، الذين هم فى كل أمة قليلون .

ولكن من اليسير على كل مشاهد ، لأى معرض مما ذكرت من فنون ، أن يحكم على ما يرى ، دون أن يكون عارفاً بأصول هذه الفنون وحرفيتها .

ولا يتحتم ألّا يقدر الشعر ولا يجيد فهمه إلا العارف بأوزانه وأسرار

الصناعة فيه . أو يتحتم ألا يطرب للموسيقى إلا واضعوها ، والواقفون على ضروبها ، وهذا أمر يرفضه العقل ، وتنكره الغريزة والفطرة والبديهة .

وأنا إذا سلّطت الأنوار الآن على صورة (الأمل) (لجورج فردريك) التي تعرض صورة فتاة تقف على كرة وعيناها معصوبتان ورأسها مائل إلى قيثارة فى يسراها ، لم يبق من أوتارها سوى وتر واحد ، راحت تعالجه بأصابع يمناها فى جو مكفهر جهم ، وسماء ملبدة بغيوم كأنها حَلك الليل ، فليس من المهم أن يستعين المشاهد بقواعد الفن فى فهمها ، أو يكون عالمًا بقواعد الرسم ، ليبدى فيها رأياً .

ذلك أن هذه القواعد إنما هى كالنحو فى اللغة ، يعصم الكاتب من الخطأ .

أما مشاهد هذه الصورة ، فقد رأى الكفاية فى الصورة وفى تعبيرها عن الشيء الغامض الذى تتشبث به النفس فى أعصب الساعات ، استمساكاً منها بالإيمان والأمل وحب البقاء

وجدير بى أن أذكر لكم أن رسم الوجوه من أصعب ما يتعرض له الفنان فيما يرسم .

ذلك أن لكل إنسان صندوق أسرار ، يحرص على أن يبقيه مغلقاً ، حتى لا تنتهبه العيون ، وترى ما لا يشاء أن تراه .

والمصور ذو منظرٍ فاحصٍ ، يغوص وراء السريرة لينتزع منها ما خفى .

وهو فى موقفه هذا كالمحقق الذى يجلس أمام صاحب الوجه ، كما لو كان متهماً ، ويروح يسائله ويحاوره ، لعله يعثر على خيط يعين على كشف أستار الجريمة ، أو يهتدى به إلى براءة المتهم .

فإذا استطاع الجالس إلى المصور ألا يرفع القناع عن شخصيته ، غمض على المصور إظهار خصائصه من ملامح طلعته ، وخرجت الصورة فاترة ليس فيها من معالم التصوير سوى وجه أخرس ، فقد النطق والتعبير .

وفى يقينى وحكمى ورأيى ، أن المصور فى هذه الحالة ، لم يكن هو الذى قصَّر أو عجزَ ، ولكن الجالس إليه هو العاجز وهو المقصر .

ولقد راعتنى مرَّة صورة لرأس إنسان ، لم أستطع أن أنقل النظر عنها ، رغم بساطتها .

وقد اختار المصور لهذا الرأس ، صاحباً بسيطاً تافهاً ، يضرب فى أحشاء الأرض على غير هدى .

وكأنما أراد المصور أن يكشف عن تلافيف عقل هذا الرأس ، فصوَّرها على هيئة جمجمة فارغة ، لو نقرت عليها لسمعت صدى نقراتك يرتد إليك ، حاملاً الدليل على فراغ ما نقرت عليه . والآن وجهوا إلىّ ما تشاءون من أسئلة .

* * *

بعد صمت ساد دقيقة ، سأل أحد المستمعين ، عن رأى المؤرخ فى فن الكاريكاتير .

أجاب المؤرخ بقوله : إنه سيستعير من الكاريكاتير أسلوبه ، فى وصفه ، بقدرته البلاغية الموجزة المثيرة للضحك والابتهاج .

إنه قديم كالقارة الأفريقية ، وجديد كاليورانيوم .

لقد استخدمه قدماء المصريين بنحته على الجدران أو رسمه على أوراق البردي . وهو يعيش بين ظهرانينا الآن موفور القدر والاحترام .

وأنا إن نسيت لا أنسى صورة كاريكاتيرية لمسجون يتحدث إلى زميله فى الزنزانة ، ويقول له ، إنه كلما رأى قضبان نافذة الزنزانة ، تذكر على الفور ، أيام أن كان صرّافاً فى البنك ، ويجلس وراء نفس القضبان . .

أو أنسى صورة سيدة فى عيادة دكتور نفسانى ، تقول له فى قلق ظاهر ، إنها لا تخشى ولا يهمها إذا كان زوجها يتصور أنه نابوليون ، ولكن ما يهمها وتخشاه ، هو أن يتطور المرض مع زوجها فيظن أن الخادمة هى جوزفين . . .

والرسامون من كل المدارس ، أهل مرح ونكتة وانطلاق ، ويحيلون مجالسهم إلى ندوات بهيجة .

كان سالفادور دالى صاحب الأطوار الغريبة يقول ، إن الفارق الوحيد بينه وبين المجنون ، إنه ليس مجنوناً .

وكان يقول : الحب كالحرب ، نبدؤهما متى نشاء ، ونتوقف عنهما ساعة نستطيع . . .

ويقول عن شاربيه الطويلين المعقوصين إلى أعلى بطول يقدر بخمسة وعشرين سنتيمترا ، إنهما يمثلان أنتين الراديو ؟ بالنسبة له ، ويستخدمهما أحياناً فى تنظيف أصابعه بعد تناول حبات من العنب أو ثمرات من البلح . . .

وهو رجل أعمال ، همه من الدنيا جمع المال بلذة وشغف ، ويتقاضى مثل بيكاسو أضخم المبالغ ثمناً للوحاتهما .

وكان يقول إنّنى شبيه لبيكاسو فى كل شيء . فبيكاسو من أصل

إسبانى وأنا كذلك ، وهو يحب جمع المال وأنا كذلك ، وهو عبقرى وأنا كذلك ، وهو شيوعى وأنا لست شيوعيًا كذلك . . .

وبيكاسو كان يحب المال ولكنه كان بارًّا بالفقراء . وكان يساعد كل من يلجأ إليه .

كان يعتز بلوحة فنية تمثل مدينة (جيرنيكا) التى أزالتها الطائرات النازية من الوجود . وفى أثناء الاحتلال الألمانى لفرنسا ، زاره فى مرسمه بعض الضباط النازيين .

ولما وقع نظرهم على تلك اللوحة ، سألوه ، أنت صنعت هذا ؟ فأجابهم : كلا ، أنتم الذين صنعتم ذلك .

وإنى لأذكر بافتخار بعض الرسامين الذين تركوا للعالم ثروة من الفن لا تقدر بمال . وهم إلى جانب ذلك أئمة فى عالم المجون .

إنهم رسل السماء إلى الأرض ، ليثبت الله على أيديهم ، قدرته على خلق كل ما هو بديع ، لأنه هو فى النهاية صانعهم .

والأفذاذ فى كل علم أو فن ، قلة بين الناس ، توحى بأنهم رسل ، أراد الله بهم أن يشيعوا بين خلقه المتعة واللذة والمعرفة وحب الحياة ، وأن يروى بثمراتهم ما يجف من جوانب العيش ، وأن ينعش بهم ما ذوى من حيوات أرهقها الكد والعناء

وقد أودع الله فى نفوسهم طاقات خالقة ، شاء الله لها أن تكون بارزة متألقة ، ليست يسيرة على كل الناس ، إلا من اصطفى واختار . وتلك حكمة الله التى نفذ إلى دخيلتها العقاد عندما قال :

والشعر من نفس الرحمن مقتبس
والشاعر الفذُّ بين الناس رحمن

والراجح أن العقاد لا يقصد هنا بالشاعر ، ناظم الشعر ، وإنما يقصد كل من عبرَّ بشعوره عن لونٍ من ألوان الفنون ، بآلته التي اختصه الله بها ، شعراً كانت أو رسماً أو عزفاً يطرب السامعين .

* * *

والرسامون فى كل العهود ، يشتهرون بخفة الروح وسرعة البديهة ، وروعة الكلمة . فهم الذين يتوغلون داخل كل شيء وحول كل شيء .

من هؤلاء على سبيل المثال : كلود مونيه . كان يتعشى عند زوجين اشتهرا بالبخل والشح ، وكان عدد المدعوين كبيراً جدًّا ولا يتناسب مع دجاجة واحدة توسطت المائدة . فما كان من مونيه إلا أن هز رأسه فى شفقة وحسرة وهو يقول :

مسكينة هذه الدجاجة ، لعلها الآن تقول بصوت حجبته الرهبة :

ياللوحشية ! كل هذا الحشد سوف يأكلنى . . .؟

وكان للرسامين منذ أقدم العصور ، مقام مرموق فى بلاط أكبر الملوك ، وكان قدرهم لا ينازعهم فيــه منازع . فى أيام مايكل انجلو ودافنشى لم يكن هناك من ينافسهما من شخصيات وكذلك الحال بالنسبة لجويا فى إسبانيا .

ولعل ما تركه دافنشى ومايكل أنجلو من شهرة ، لم تستطع أية قدرة أخرى أن تنافسهما وتملأ الدنيا إعجاباً بإيطاليا مثلهما .

وما صنعه آل جريكو وجويا لإسبانيا لم تستطع أساطيلها أن تبلغ

ما بلغاه من مجد انعكس عليها حتى اليوم .

وقل المثل عن سيزان الرسام الفرنسى ورودان المثال الفرنسى ، وما تركاه من شهرة ومجد يطاول الزمان .

وكذلك (ڤيلاكيز) البرتغالى المنحدر من أصل يونانى .

أما هولندا فإن شهرة روبنز ورامبرانت وفان جوخ قد ملأت الآفاق فى كل بقاع الأرض ، وقد أكسبُوا هولندا من المجد ما لم تستطع كل جيوشها وأساطيلها أن تبلغه .

ويطيب لى أن أذكر كمثال لما كان للرسامين من قدر لدى أعلى الشخصيات ، حادثة كلود مونيه ١٨٤٠ – ١٩٢٣ الذى كان كما قال عنه ساشا جينرى الكاتب المسرحى والممثل ، إنه لم يستطع أى إنسان أن يكون نموذجياً ومثالاً يحتذى مثل مونيه .

وكان من أحب الأصدقاء ، إليه كليمنصو ، وقليل جداً من أرقى الطبقات ، إذ لم يكن يميل إلى استقبال الكثيرين .

وكان وهو فى الثانية والثمانين من العمر يبدو نشيطاً محتفظاً بكل قوته كما لو كان سنديانة هرمة تهزأ بأعتى العواصف .

وكأنما احتار الموت معه ، وكيف يصل إليه ، فلما أعيته الحيلة ، رأى أن يخادع ويغدر فتسلل إليه وأصابه فى أعز ما يملك . . فى عينه .

ويروى ساشا جينرى أنه عندما زاره قالت له زوجة ابنه ، إنك تجىء فى أنسب الأوقات ، فانظر إلى أى حد بلغ بمونيه اليأس والقنوط بعد ما حلَّ بعينيه .

ولما دخل عليه ، شد على يده وقال له يا عزيزى ساشا إننى لم أعد

أرى اللون الأصفر .

وبعد قليل فقد بصره تماماً .

وراح فى نوم لم يشأ أن يقوم منه حزناً على بصره ، ولزم فراشه ، وكان قد طلب من زوجة ابنه أن يرى كليمنصو ، صديقه الأثير .

وقد عملت على ذلك ، ولم يضع النمر لحظة بل سارع إليه ليراه بأقصى سرعة ممكنة إلى (جيفرنى) سبعمائة كيلومتر لكى يودعه الوداع الأخير .

وكان وصوله فى الوقت المناسب . فقد أسلم مونيه الروح بين يدى صديقه الحميم كليمنصو رجل فرنسا الشهير بالنمر الذى انتصرت فرنسا بحسن قيادته فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وصار اسم النمر رمزاً له ، وعنواناً على قدرته وقدره .

وقد أشرف بصمت وتأثر على وضع جثمانه فى النعش .

وعندما أراد المشرفون على الدفن أن يُغطى النعش بالغطاء الأسود التقليدى ، أمسك كليمنصو بيده ذلك الغطاء وقال للمسئول وهو ينزع الغطاء :

لا ، ثم تلفَّت حواليه ، وتقدم من إحدى النوافذ ، وانتزع إحدى الستاير المزهرة ، وغطى به نعش الرَّسام الكبير بنفسه وهو يردّد :

اللون الأسود ليس لمونيه ! . .

وأروى لكم عنه هذه الحادثة . عندما زاره فى مسقط رأسه (جيفرنى) وزير التربية عام ١٩٢٣ ليطلب إلى كلود مونيه لوحة من أعماله ليزين بها متحف اللوفر ، قال مونيه .

بكل سرور على أن أختار اللوحة بنفسى .

ووافق الوزير على الفور . وهنا اختار مونيه لوحة اشتهرت باسم « غذاء فوق العشب » .

فسأله الوزير :

هل لى أن أعلم يا سيدى البروفيسير ، لماذا اخترت هذه اللوحة ، لا سواها .

أجاب مونيه :

لقد اخترتها ، يا سيدى الوزير ، لأنهم رفضوا قبولها فى « المعرض » عام ١٨٨٧ . . . !

صفّق الجمهور المحتشد فى المدرجات ، للمؤرخ المحاضر تصفيقا طويلا تقديراً لما حوته كلمته الجامعة من شمول وتعريف بالرّسم والرسامين

انحنى المؤرخ الكبير وانسحب داخل الكواليس ، فى تؤدة ووقار .

تفرقنا شيعاً شيعاً ، ورحنا نتلمس طريقنا إلى خارج المعهد ، لنمضى بعض الوقت فى الحى اللاتينى وفى بعض المطارح التى كان لها عند أغلبنا ذكرى عزيزة فى صدر الشباب وأيام الدرس والتحصيل .

وعدت إلى باريس بعد أن أطفأت بعض الظمأ برؤية مآلف قديمة عزيزة ، أراها على النوى خيالات فى أحلام اليقظة .

وبعد أيام انتظرتها لحين حصولى على مقعد فى طائرة Caravelle ، كانت ستغادر مطار (أورلى) ، فى طريقى إلى مصر ، بعد فترة حرّكت أشواقى وأثارت فى نفسى حنين المغترب لمن يحب ، ولهفتى على عودة

لظلالٍ ألفتها وأحباب فارقتهم ، ومطارح للصِّبا هي في الشيخوخة الزاد والمعادً ، ومبعث النجوى والعماد .

وبعد ساعات بلغنا مطار القاهرة الدولي ، الذي غادرته مسرعاً إلى داري لأستكمل ما بقي أمامي من هذه الأوراق .



الفصل السابع

أدب الفكاهة في الكتابة وعند الكتّاب والصحفيّين

لن يستطيع كاتب مهما أوتى من الجلد وحب المتابعة ، أن يحصى الظرفاء من الكتاب فى مصر ، قديماً وحديثاً .

فالظرف صناعة أتقنها المصريون ، وأتقنها الكتّاب منهم ، حتى إنك لتحار فى تعليل ذلك .

وقد كتب مرَّة الأديب الشاعر أحمد فارس الشدياق عندما زار مصر أول مرَّة : « كلُّهم فصيح اللهجة ، بيِّن الكلام ، سريع الجواب ، حلو المفاكهة والمطارحة » .

وذكر البشرى أنه « لا يعرف أمة من الأمم العربية ، أحسنت هذا النوع من النكات ، أو برعت فيه ، براعة المصريين » .

ويمضى ليقول : « لست بالضرورة أعنى تلك النكت القائمة على التلفيق بين صدر معنى من المعانى ، وبين ألفاظ ثانية لمعانٍ أخرى » .

ويسوق عن ذلك مثلا بقوله : « فى قافية الغناء ، يقول الرجل لمناظره : إخوانك لما يشوفوك متعلّق فى حبل المشنقة يزعقوا ويقولوا : كده العدل . .

فلا ذكاء فى مثل هذا ، ولا مجال لسرعة الخاطر ، إنما أريد ذلك

النوع الذى تُلهمه دقة المتفطِّن ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، والقدرة القادرة على لطف التصوير والتخيُّل » .

وإذا كنت قد آثرت أن أروى نماذج من كتابات أهل الظرف فى مطالع هذا القرن العشرين ، فإنما لأننى رأيت أن ألتزم بحكمة صينية قديمة تقول : (إن النبع القريب لا يروى ولا يرضى عنه أهله) .

إلى جانب أن من بيننا من ظرفاء الكتّاب فى أيامنا هذه ، هم ملْء القلب والعين ، ومهوى النفس والخاطر ، وكتاباتهم نسعد بها ونستزيدهم منها كل يوم ، ونحسد أنفسنا على أن حبانا الله بهذا القدر من كتاب الفكاهة فى جيل واحد .

فلدينا الأساتذة يحيى حقى وأحمد بهجت وأحمد رجب وكامل الشناوى ومأمون الشناوى ومحمد عفيفى وعباس الأسوانى وعبد الله أحمد عبد الله ، وعبد الحميد الديب على سبيل المثال لا الحصر .

وإننا لنباهى بهم كل الأقوام ، وندخرهم ليوم كريهة وسداد ثغر .

ولعلنى إذا اخترت من بين كتّاب الجيل الذى أعنيه ، اثنين فى طليعة كتاب مصر ومفكريها ، هما الأستاذ عبد العزيز البشرى والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ، فذلك ليكون ما أرويه لهما ، وأكتبه عنهما ، بمثابة نماذج لأمثال المويلحى وإمام العبد وعبد الله النديم ويعقوب صنوع وحسين شفيق المصرى .

وقد جمع البشرى بين ثقافات متباينة دَرساً ونقلا ، قديماً وحديثاً ، وعاش الحياة طولا وعرضا ، يتناغم مع ما حوله وبإحساس لنبض كل نأمة تطرق سمعه .

أما ثانى الفارسين ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، فهو المصور البارع بآلتى الشعر والنثر ، والمحلل المعلل الساحر الساخر ، القاص الضاحك ، فقد امتلك ناصية التصوير والتحرير ، بخفة ظله ولطف حسه ، ودقة شعوره ، دون أن يشعرك بأن ما يكتب هو قصده أو غايته ، من فرط ما به من انطلاق سجية ووضوح بيان .

* * *

لم تكن كتابات البشرى تغضب من يتناولهم فى صوره القلمية من عظماء عهده ، بل إن منهم من كان ينتظر صدور المجلة التى خصها بهذه الصورة بصبر فارغ .

فقد كان عف اللسان ، حسن القصد ، دون التواء أو تجريح .

وكان الجاحظ يقول : « لا يغضب من المزاح إلا كز الخلق ، ولا يرغب عن المفاكهة إلا ضيق العطن » .

وكنت لا تلقى البشرى إلا مشرقاً كديباجته ، مرحاً فرحاً كأسلوبه ، فإذا ضحك استحال وجهه كله إلى ثغر ضاحك .

ولم يتأثر البشرى فى كتابه « فى المرآة » أو فى صوره القلمية العديدة ، بالأساليب الغربية التى قدمها واشتهر بها جون جونتر ومارك توين لعظماء وسياسيين ، أبدعا فى تصويرهم ، وإن كان تأثره بالجاحظ فى كتاباته وأسلوبه وتصوراته واضحاً فى كثير مما تناول .

والذى أعان البشرى على بلوغه ما بلغ ، سيطرة على اللغة ، ووضوح فى بيانه ، وخفة روحه فيما يصف ، ودقة حسه فى المرئى وما وراء المرئى ، إلى جانب طبيعة مرحة بغير حدود قبل أن يغافله المرض ويندس إليه

فى غدر لم يكن يتوقعه .

يروى الجاحظ عن الطفيليين ، أن المأمون أمر بأن يحمل إليه عشرة من الزنادقة ، قد سُمُّوا له بالبصرة .

فجمعوا وأبصرهم طفيلى فقال : ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع . فانسل فدخل وسطهم . ومضى بهم الموكلون حتى انتهوا إلى زورق قد أعد لهم فركبوه ، فقال الطفيلى ، هى نزهة ، ودخل معهم فلم يكن بأسرع من أن قيدوا ، وقُيد معهم الطفيلى ، ثم سير بهم إلى بغداد .

وأدخلوهم على المأمون ، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلاً رجلاً فيأمر بضرب أعناقهم ، حتى وصل إلى الطفيلى وقد استوفى العدد ، فقال للموكلين ، من هذا ؟ فقالوا ، والله ما ندرى ، غير أنَّا وجدناه مع القوم فجئنا به .

فقال له المأمون : ويلك ! ما قصتك ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، امرأتى طالق إن كنت أعرف من أمرهم شيئاً . وإنما أنا طفيلى ، رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة . فضحك المأمون وأمر بتأديبه .

وكان إبراهيم بن المهدى حاضراً فسأل المأمون أن يهبه ذنبه ، فوهبه ، فعفا عنه المهدى وأطلقه.

ويصف البشرى بصورة قلمية ، بخيلا كان يقتر على أبنائه ويخص نفسه بما يحرمهم منه . وكان يأكل ما يستطيب خارج الدار حتى لا يشركونه مأكله وعددهم كبير ، ونفقتهم باهظة .

ويقول البشرى : « فعندما مات ، لم ينتظر أولاده حتى يقسموا التركة ،

ويهتدوا إلى اسم البنك الذى يكتز فيه المرحوم أمواله ، بل إنك كنت ترى أحدهم يهرول فى الطريق وعلى رأسه شباك ، والثانى على كتفه مصراع ، والثالث يحمل بين يديه طشتًا ، والرابع يحمل مقطفاً امتلأ (بحنفيات) .

وللبشرى صورة قلمية أخرى لأحد الوزراء فى عهده يقول فيها : « جاءهُ مرَّةً أحد زملائه من الوزراء ، فسأله أن يُرقى أحد صنائعه ، على أن يرقى هو أحد أقرباء هذا الوزير فى ديوانه . فأدار الوزير الأول ذهنه الرياضى الكبير فى الحسبة ، فرآها تفرق ٢٤٠ قرشاً فى كل شهر . وتعاصى الأمر ، وتعذّر الحل . وأخيراً وبعد طول محادثات ومفاوضات توسط أحد الوزراء الحاضرين فى الأمر ، على أن يزيد قريباً للوزير الأول ، فى وزارته هو ، مائتى قرش ، هى كل ما تسعه طاقته ويدخل فى جهده . وبعد لأى رضى الوزير الأول بهذا الحل ، محتسباً عند الله أربعين قرشاً كل شهر .

* * *

ومن أرق ما وصف به البشرى صوت محمد عبد الوهاب ، فى مطلع حياته الغنائية ، قوله : ده صوته زى الخسْ . . . وقال فى موضع آخر : إن صوت عبد الوهاب فى يده ، وكل مغنٍّ آخر صوته فى فمه . . .

وللبشرى قدرة على التوغل فى نفس الشخص الذى تتناوله كاميرا قلمه ، فترى ما لا تراه إلا بالمجهر ، أى عين خلا عينه .

يقول عن الجراح الكبير على إبراهيم : « إنك تستطيع أن تلحظ أن لهـذا الرجـل أصـابع ليست من جنس سـائر الناس ، فإنها تشير عليك بطولها وسراحتها وانسجام خلقها . على أنه إذا تحدث رأيته يستعين

دائماً بسبابته ووسطاه ، فما تزالان كالمقص فى انفراج والتئام إلى أن يفرغ من حديثه ، حتى إنك تعرفه من أصابعه ، كما تعرفه من وجهه . ولو قُدر لمصور أن يرسم أصابعه وحدها ، لدَلَّت عليه إلى غاية الزمان » .

وكتب يصوِّر الراديو عند ظهوره ، على لسان أعرابى قادم من البادية ، لم يحدث أن رأى فى باديته هذا الجهاز :

(دعانى صاحبك ذات عشية إلى أن أصعد إليه . فلما استوينا فى مجلسنا من إحدى الغرف ، أومأ إلى ركنها فحوّلت بصرى ، فإذا دمية من خشب ، بتر ساقاها ، فأقعدوها على منضدة لها أنف صغير ، ولها أذنان دقيقتان ، وقد توسط ما دون الجبين عين لها . واعجباه ! واحدة تمزَّقت حدقتها فتناثرت فى بياضها تناثر أكارع النَّمل على صفحة الرمل . ولها فم ، يا حفيظ ! قد استهلك نصف وجهها . سجوه ديباجة من حرير ، وليتهم سدّوا عليه مسامير من حديد . وما أحسب والله هذه الدمية إلا صنعت على صورة الجن . لم تصنع على صورة الإنسان) .

وعندما أدار صاحب الراديو جهازه ، مضى على لسان الأعرابى يصف ما حل به بعد سماعه همهمة ودمدمة من الجهاز « خلت أن الأرض قد زلزلت علىَّ ، وأحسست قلبى يتمشى من الروع فى صدرى حتى يصل حنجرتى . فجمعت ثوبى للهرب ، فجذب صاحبك فضل ردائى ، ولو قد أطلقنى ما أصبت المهرب . فلقد تخاذلت عنى ساقاى ، وأظلم ما بينى وبين وجه الطريق ، وجعلت ألتمس آية الكرسى أستعصم بها من هذا الشيطان ، فأذهب بها الرعب عنى ، وكأنى لم أحفظ منها فى دهرى الطويل كلمة واحدة » .

وللبشرى كتب وأبحاث ومقالات عديدة بليغة . ومن كتبه المطبوعة : فى المرآة ، والمختار ، وقطوف .

وقد نشر الكتاب الأخير مشفوعاً بمقدمة للدكتور طه حسين جاء فيها : « إن الشيخ عبد العزيز البشرى من القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل ، والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث لا يبلو الإنسان أقلَّه ، إلا كلف له أشد الكلف ، وافتتن أشد الافتتان ، وأصبح لا يستطيع له نسياناً ، ولا يجد فيه سلوًّا ، مهما يلم به من الخطوب ، ومهما يختلف عليه من الظروف » .

ولقد كان الدكتور طه حسين على حق فى وصفه هذا للبشرى ، وعلى تركيزه على خفَّة روحه وعذوبة نفسه . فقد أعانته هذه الروح الشفيفة على الوقوع بخفة امتلك ناصيتها باقتدار ، على مواطن إثارة الضحك ، بالكتابة التصويرية ، وبالصور القلمية وبالحديث الماتع .

ولادة كاتب صاحب أسلوب فكاهى من هذا الفريق ، حدث كبير فى أى بلد ، لا يقل عن مولد مخترع أو طبيب عالمى أو مكتشف لفيروس مثل باستير ، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له .

ولقد شاهدت إحدى صحف المليونير الأمريكى Hurst التى كانت تصدر فى سان فرنسسكو باسم San Francisco Examiner ، تنشر صباح كل أحد ، عموداً واحداً لكاتب فكاهى ، كانت ملايين النسخ التى تنشرها الصحيفة تنفد بسبب إقبال القراء على قراءة هذا العدد .

وكان يتقاضى هذا المحرر أجراً يفوق ما يتناوله رئيس مجلس إدارة بشركة أو مؤسسة كبرى ، وهو رقم خيالى أو فلكى ، كالأرقام الرابحة من شهادات الاستثمار حرف ج . .لا الجائزة نفسها . . .

وانظر إلى هاتين الصورتين القلميتين الناطقتين .

أما الأولى فهى لشاعر النيل حافظ إبراهيم :

« إنه جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم ، كأنه قُدَّ من صخرة فى فلاة موحشة ، ثم فكّر فى آخر ساعة أن يكون إنساناً فكان (والسلام) .

وأما ما يدعي فمه ، فكأنما شق بعد الخلق شقًّا . وأما عيناه فكأنما دُقَّتا بمسمارين دقًّا ، وأما لون بشرته ، والعياذ بالله ، فكأنما عهد به إلى نقّاش مبتدئ ، تشابهت عليه الأصباغ والألوان ، فذاب أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجها ، فمزج مزجاً من هذا كله ، لا يرتبط من واحد بسبب ، ولا يتصل بنسب » .

وأما الصورة الثانية ، فهى لدولة أحمد زيور باشا . وكان ضخم الجثة ، يحب الهزر والمجون :

« أما شكله الخارجى وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته الساقطة الأفقية ، فذلك كله يحتاج وصفه وضبطه وضبط مساحاته إلى فن دقيق ، وهندسة بارعة .

وهو مؤلف من عدة مخلوقات ، لا تدرى كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض . . وإنك لترى بينها الثابت والمختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره .

ومنها اليابس ومنها المتحجر . وفيها المسترخى والمترهل . وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعابها إلى الأمام ، شعبة طويلة أطلّ من فوقها على الوادى رأس فيه عينان زائغتان ، طَلَّة من ترقّب السقوط إلى قرارة ذلك الهوى السحيق .

* * *

ونأتى إلى ذكر خصائص ثانى النموذجين اللذين اخترناهما من كتّاب المجون فى عصر يُباهى ويزدهى بما خلّفاه من آثار ، وأعنى به الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى .

إن الذهب فى غير حاجة إلى طلاء . فهو لامع أبداً ، مشرق أبداً ، مُبتهج أبداً ، مفرح أبداً ، وإن كان الذهب نفسه – وأقصد المازنى – يفور داخله ويمور ، وتعبس فى وجهه الدنيا فيترضّاها ، وتعصف به الأزمات فيصمد لها ، ويلجأ مراراً إلى بيع مدّخراته من الكتب الثمينة ، للحصول على ما هو أثمن ، وهو البقاء على قيد الحياة .

وبالرغم من ذلك كنت لا تلقاه إلا مستبشراً متفائلاً مقبلا على الحياة ، داعياً الآخرين إلى الاحتفال لها معه والاحتفاء بها على ما يحبه ويرضاه من دنيا استعلى أن ينهزم أمامها .

ولعل المازنى هو النسخة الوحيدة من كتاب جيله ومن جاء بعدهم من كُتّاب ، الذى جمع إلى الكتابة ، مهنة الصحافة والشعر والترجمة والقصة والتحليل والتعليل لما يقرأ من نوادر الكتب ولما يدور حوله من أحداث بصورة يهضمها ، أى فكر ويتشهّاها كل عقل ، لجاذبية خاصة فيما يكتب ويعرض ويناقش . وكان فى كل ما طرقه من هذه الأبواب ،

النابغ المتألق ، البارع الذى لا يُبارى ، دون أن يعتد أو يتعاظم أو يتيه بما يحسن . وهذا هو موضع العجب منه والإعجاب به .

وكأنما كان يلتزم بدعاء صوفى تقول كلماته :

« اللهم جنِّبنا الإعجاب بما نُحسن ، والكَلَف بما لا نحسن » .

والمازنى من أقل الكتّاب والأدباء حظًّا من التقدير والتكريم ، ومن أبعدهم عن ذاكرة الجماهير ، برغم ثرائه فى الفكر واللغة والقصة والسُّخر المهذَّب البنَّاء .

لم يكن يكتب إلا ما يحسُّه ولا يترجم إلا ما يرى نفعه للناس . وعندما أحس أن ما نظمه من شعرَ ليس بذى جدوى للناس ، أتلف ما نظم وعكف على الكتابة ، برغم جزالة شعره .

وبرغم تجهُّم الحياة له فقد أحبَّ الناس ، وأحب الحياة ، ونفر من المتشائمين الذين لا يحسنون التناغم مع الحياة .

وكان ابن الرومى ، فى معرض الاعتذار عن دوام هجائه يقول : لو كنت أكثر حظًّا ، لكنت أقل هجاءً .

وهذا هو الفارق بين الرجلين ، وبين المعدنين .

* * *

وللمازنى رأى فى النكتة وفى الفكاهة ، يجلو ما بينهما من فارق ، يتعين العلم به ، لمن يريد أن يتابع رحلة المجون ، على يد أساتذة المجون .

يقول : « إن النكتة مظهر فطنة . والأغلب أن يكون مدارها على ظاهر السلوك . ويندر أن يستطيع صاحبها أن يُحلِّق فوق الظاهر ، أو الغوص إلى الأغوار البعيدة . وهى تُضحكنا بما فيها من مقارنة بين

أمرين أو حالين أو سلوكين .

أما الفكاهة فشيء مختلف جداً . لأنها تدور على المعانى والحقائق ، وتغوص فى الجوهر ، ولا تتعرض للصورة الظاهرة » .

وهكذا ترى الفرق واضحاً بين أمر عارض كالنكتة ، وبين فكاهة مدروسة فى تعمق وأناة » .

وليس أجدر بالحديث عن إبراهيم عبد القادر المازنى ، من صفيِّه ، عباس محمود العقاد ، صديق عمره وخدين هواه فى تحقيق ما عقدا عليه الآمال ، فى تطوير الشعر والأدب على ما يحبَّان وما يبتغيان .

وقد أجرى العقاد هذا الحديث ، أمام أعضاء المجمع اللغوى عند اجتماعهم على أثر انتخاب المازنى عضواً به ، وليقوم بتقديمه لأعضاء المجلس كما جرت العادة ، فى كلمة جاء فيها :

« كان من حظِّى أن وُكل إلىَّ إلقاء هذه الكلمة فى استقبال صديقى القديم ، وزميلى الجديد فى المجمع ، الأديب الشاعر الثائر الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى .

ولكن ليس من حقِّى أن أسميها كلمة تقديم . فإن المازنى مُقدم ، متقدِّم له من بحوثه وقصائده ومقالاته وقصصه ، رسل شتى تتقدم به إلى كل مكان تصل إليه لغة الضاد .

عرفت المازنى منذ نيف وثلاثين سنة ، أى منذ جيل كامل فى عصر النهضة الحديثة ، وقعت فيه حربان عالميتان ، وشجرت فيه حروب لا عِدادَ لها فى ميادين الأدب أو الثقافة أو السياسة . ولم نكن فى تلك الميادين على انتماء دائم إلى صف واحد ، ولكننى راضٍ ومغتبط بأن أقول : إنه كان

لسماحته وحسن تقدير الفوارق بين اختلاف الآراء واختلاف العقول والطباع ، فضل مشكور في بقاء هذه الصداقة التي أعزها وأعتز بها ، ويسرني أن تصبح من الصداقات النادرة في تاريخ الآداب العربية الحديثة .

وكان المازني طالباً بمدرسة المعلمين العليا ، يكتب في صحيفة الدستور التي كنت أشترك في تحريرها ، ثم عرفته فيما يصح أن نسميه بمدرسة « البيان » . . وهو اسم المجلة التي كان يصدرها الأديب البليغ الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي رحمه الله . وكان يكتب فيها نخبة من ناشئة تلك الفترة ، شيوخ هذا الجيل ، أمثال : محمد السباعي ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد الرحمن شكري . وكنا نزاملهم في كتابة فصول المجلة . فكنا نتلاقى على مائدة الأدب والمطالعة : نقرأ ابن الرومي ونعارضه . ونقرأ الجاحظ والشريف الرضي ونختلف فيهما . ونقرأ وليام هازليت ناقد الإنجليز الأكبر ، ونرفعه مكاناً عليًّا فوق زمرة النقاد العالميين ولا نسمع بشاعر أو كاتب من أعلام الأدب والفكر في اللغات الأجنبية إلا ذهبنا نلاحقه ونطارده في كل ما يصل إلينا من كتبه ، ثم نقتسم نصيبنا منه بالمذاكرة والمشاورة ، كما نقتسمه بالمنازعة والمشاجرة في أحايين .

ولست أحب أن أختم هذه الكلمة قبل أن أنصف المازني الذي لا يحتاج إلى الإنصاف . .

وهو لا يحتاج إلى الإنصاف إلا في موضع واحد : هو موضع الكلام عن نفسه . فلم أر أحداً يجور على المازني ، كما يجور المازني على فضله وقدره .

وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بجدواه . فأنكر على نفسه الشاعرية . وأنكر غناء ما يكتب وما ينظم وما عسى أن يكتب وينظم . وقد تُغنى أسماء كتبه عن الاستشهاد منها بما قاله فى تصغير فضله وقدره . ومن هذه الأسماء « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » !

وقد غالطته أحياناً فقلت له : إن هذه البدعة منه ضرب من المكر الحسن الذى لا يستغرب ، كأنه أراد أن ينزل عن مكانه ليجلسه الناس عليه ، وأن يجحد حقه ليثبته له الناس .

ولو كان هذا قصده ، لكان فى كلامه ما هو أقوى جواب عليه . وذلك حيث قال فى حصاد الهشيم ، « واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون منزلتها التى تستحقها ، لم يرفعك الناس إليها . بل أغلب الظن أنهم يدعونك عما هو دونها أيضاً ، ويزحزحونك إلى ما هو وراءها ، لأن التزاحم على طيِّبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف مجالا للعمل » .

والأرجح أننى غالطته حين استفززته بمثل تلك التهمة البريئة فى حقيقة الأمر فى هذه الخصلة » .

* * *

ونختار للمازنى بعضاً من كتابته فى فصول منوَّعة ، لنقف على أسلوبه فى معالجة ما يتناوله بروح يشيع فيها التبسُّط والمرح والمجون المهذب .

كتب فى بحث له عن القاهرة التى يعتبرها بلدته، يقول :

« كان ينبغى أن تكون بلدة – « كوم مازن » – مركز تلا ، على ما أظن ، من أعمال المنوفية – مسقط رأسى . فإن فيها أهلى وعشيرتى . . .ولكن

المقادير أتت بخلاف ذلك . فلا رأسى سقطت فى كوم مازن ، ولا كتب لى قط أن أزورها أو ألم بها .

وشاءت إرادة الله – لحكمة ولا شك – أن أكون قاهريًّا ، مولدًا ، ونشأة ، وإقامة . وأنا أطوف ما أطوف ثم آوى إلى القاهرة . ولا يخطر لى أن أرى هذه البلدة – الطيبة على ما سمعت – التى نزل فيها أجدادى ونسبوها إليهم .

وكنت أظن لفظ (كوم) ، مُحرفاً عن (قوم) . ولكن الدكتور زكى مبارك – وهو أدرى – يقول إن الصواب (الكوم) بالكاف ، وإنه لا تحريف هناك ، لأن أهل القرى التى تقع على النيل ، كانوا يؤثرون الأرض المرتفعة ، حتى لا يغمرها الماء فى موسم الفيضان . .

والقاهرة التى عرفتها – أو قل الرقعة التى عرفتها منها – فى صدر حياتى ، شىء مختلف جدًّا عن هذه القاهرة الحديثة التى أشابتنى . . والرقعة التى أعنيها ، هى التى لا تزال معروفة بأسمائها ، وإن كانت معالمها القديمة قدعفا عليها الزمن ، وهى تشمل أحياء الجمالية والأزهر ، والسكة الجديدة وغيرها مما يتفرع عليها .

وكانت الحارات فى الأغلب ضيقة جدًّا ، والبيوت فيها متقاربة ، فالطريق لا يتسع لأكثر من اثنين يسيران جنباً إلى جنب .

وللبيوت « مشربيات » جميلة دقيقة الصنع ، من خشب ، تبرز من المنازل المتقابلة ، وتكاد تتلاصق ، وفيها توضع القلل ليبترد الماء . وما زلت أذكر كيف كنت أمد يدى إلى مشربية الجار ، فأشرب من قلله إذا وجدت قللنا فارغة ، أو ماءها غير بارد ، أو لمجرد العبث والشيطنة ! . .

وكان الترام قد ظهر فى قلب المدينة . ولكنى لم أره إلا بعد أن اجتزت مرحلة التعليم الابتدائى ، ودخلت المدرسة التوفيقية الثانوية – أقول لم أره قبل ذلك ، ويحسن أن أضيف أنى لم أركبه إلا بعد ذلك بسنوات ، لا لأنهم خوّفونى منه – وقد حاولوا تخويفى فعلا – بل لأننا كنا افتقرنا بعد موت أبى ، واستطاع قريب لى أن يحصل لى على ، « أبو نيه » مجانى « لعربات سوارس » ، وهى مركبات طويلة ضيقة تتسع لعشرة ركاب أو خمسة عشر ، ويجرها بغلان أو ثلاثة ، وتستطيع أن تسبقها وأنت راجل ! . . .

على أن حياة الصغار لم تكن كلها لهواً . فقد كنا نصلى الفجر فى مسجد الحسين ، ونقيم الصلاة فى مواقيتها فى البيت ، ونحضر الأذكار ، ونحفظ الأوراد ، ونذكر مع الذاكرين ، وفى الصيف – فى الإجازة المدرسية – يرسلنا أهلنا إلى « الكتاب » فى الأزهر لنحفظ القرآن الكريم .

وكانت على بعضنا واجبات عجيبة . فكنت أنا مثلا ، مكلفاً أن أعلف لجدى حماره ، وكان جدى – لا الحمار – ضعيف النظر . فكنا نجىء له بالحمار مسرجاً ملجماً ،ويتوكل على الله ، ويخرج من جيب القفطان « التغييرة » أو الملزمة (صفحات من كتاب) ، ويدنيها من وجهه ويقرأ ، حتى يبلغ به الحمار باب « المزينين » ، وهو أحد أبواب الأزهر ، فيقف ، فيعرف جدى أنه وصل ، فيترجل ، ويترك الحمار لمن يُعنى به : ويلقى درسه أو دروسه ثم يعود كما جاء ! .

فحدث ذات يوم أنى أهملت إطعام الحمار ، فجاع ، فلما ركبه لم يذهب به إلى الأزهر ، بل كر به راجعاً إلى الإسطبل ، فلما ترجّل

جدى لم يجد ما ألف ، ولم يدر أين هو ؟ فما دخل الإسطبل قط . . !

وقد ضربت فى ذلك اليوم علقة – لا من جدى ، فقد كان أحنى على من أن يضربنى – بل من أخى الأكبر رحمه الله ! . . .

* * *

وكتب مرّة عن عجزه فى وظيفته كصحفى ، لا فى الكتابة ، ولكن فى الوسيلة لحصوله على الأنباء :

« دارت الأيام ، وقامت الثورة ، ونفى سعد ، ثم أطلق سراحه وذهب إلى باريس ثم عاد إلى مصر ، فاوفدتنى جريدة (الأخبار) التى كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى بك ، إلى الإسكندرية ، لأكتب لها وصف استقبال سعد . . .

وعدت فى القطار الخاص معه ، واضطررت أن أحمل حقيبتى من محطة مصر إلى ميدان الفلكى ، لأنى لم أجد سيارة ولا مركبة خيل ، ولا رجلا يحمل عنى ، لأن الدنيا كلها مضت وراء ركب سعد . . .

ومضى الليل ، وطلع النهار ، فحدثت معجزة . !

ذلك أنى كنت قبل ذلك بعام ، قد نزل بى مصاب رجّنى رجّة شديدة ، وأتلف أعصابى ، فآثرت أن أتخذ مسكناً لى بين المقابر ، وكان موقعه موحشاً ، والقبور حوله تقبض الصدر . وكانت لى قريبة كلما زارتنى تقول لى : « يا ابنى ما هذا ؟ كلما نظرت من النافذة اضطررت أن أقرأ الفاتحة ! ولكنى كنت أجد فى هذه الوحشة أنساً . وكنت لا أكاد أطيق رؤية الناس . وبلغ من تلف أعصابى ، أنى كنت إذا تناولت الصابون لغسل يدى مثلا ، أشعر أن فيه شعراً . فخفت على نفسى وطلبت الراحة

والسكون . وأى سكون أتم من سكون الموت ؟ .

وطبيعي أنى كنت أعرف « الطُّربية » بضم الطاء ، وفى صبيحة اليوم التالى لعودة سعد ، خرجت من بيتى ، ووقفت أنتظر الترام ، وإذا بشيخ « الطُربية » المرحوم الشيخ عبد الخالق الطحاوى يخرج فى سيارته مسرعاً ، فلما رآنى وأخبرنى أن سعد باشا آت لزيارة مقابر الشهداء ، وأنه ذاهب لاستقباله عند القلعة ، وأن هذا الخبر سر ، لا ينبغي أن يذاع ، وهذه رغبة سعد .

وتركت الترام وانتظرت ، وبعد قليل أقبلت سيارات ، فى الأولى سعد وواصف غالى باشا ، وفى الثانية أمين بك يوسف والمرحوم سينوت بك حنا ، فأشرت إليهما وركبت معهما . وزرنا مع سعد مقبرة الشهداء المسلمين ، وفيها ألقى سعد خطبة وجيزة ، كتبتها على ركبتى ، فما كان ثم مقعد أو حائط . ثم انطلق الجمع إلى مقبرة الشهداء الأقباط فى شارع الملكة نازلى (رمسيس حاليا) ، وهناك خطب سعد أيضاً مترحماً على الشهداء ، حاضًا على الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الوطن ، وهناك أيضاً سلّم علىّ سعد ، وشكرنى ، ولم يزد . وعاد إلى سرادق مضروب بجوار بيت الأمة ، وخطب أيضاً ، ثم ذهبت إلى (الأخبار) ودخلت على المرحوم أمين بك الرافعى أعتذر عن التأخر ، فضحك رحمه الله وقال « لقد أبلغنى سعد باشا أنك رافقته فى زيارته لمقابر الشهداء ، وهو يستغرب جدًّا أنك علمت بأمر هذه الزيارة مع أنه أخفاه حتى عمن رافقوه . وهو يثنى عليك ويقول إنك أبرع صحفى ، وأن ما كان منك يشبه السحر . . !

وضحك أمين بك وقال : « طبعاً لم أفضح السر ، ولم أقل له ان بيتك فى المقابر ! » .

وهكذا فزت بثناء لا أستحقه ، ولا فضل لى فيما استدعاه ، وإنما الفضل لمجاورتى يومئذ لأهل القبور . . ! .

وكتب مرة فصلا بعنوان : « من ذكريات عابر سبيل » جاء فيه :

كان أحد الإخوان يصحح قول الشاعر ، « سافر ففى الأسفار خمس فوائد » فيقول – بعبارة لا أستطيع أن أرويها بحروفها – أن الفوائد ثلاث فقط : البعد عن المرأة ، والنوم كيفما اتفق ، وتكليم الناس بلا معرفة .

فأما البعد عن المرأة – أى الزوجة – فإنى لم أعد أدرى أهو مزية خير أم ضرورة وعيب وشر ؟ . ولكن الذى أدريه أنى جادلته مرة بلا لف أو مداورة ، ثم عدلت عن التماسه ، ووطّنت النفس على اليأس منه ، ورضتها على السكون إلى القرب والمودة .

وتجاربى فى هذا الباب تخولنى أن أنصح لمن يريد أن يسافر وحده ، أن يجازف ويلح على زوجته أن تكون معه ، فإذا أبت ، كان هذا هو المراد من رب العباد ، وإلا فلن يصيبه إلا ما كان مكتوباً عليه . على أنه يجب أن يكون مفهوماً ، أن المعول فى هذا الأمر على أسلوب الحوار ، وطريقة الكلام ، والزواج ، – كما هو معروف – من مزاياه أن يكسب الإنسان مرونة فى التعبير ، وقدرة على الاحتياط ، وبراعة فى التحرز ، وسعة فى الحيلة .

وإنى لأذكر أنى كنت فى سوريا مع أسرتى منذ نحو سنتين ، فذهبنا مرّة إلى بيروت لنشترى أشياء نهديها إلى أهلنا ومعارفنا عند عودتنا .

فرأت زوجي معطفاً من الفرو ثميناً جدًّا ، فأعجبها واشتهت أن يكون لها ، ولكني نظرت إلى ثمنه فدار رأسي ، وأيقنت أننا إذا اشتريناه سنضطر إلى الاستجداء والتسول . فأصابتني فجأة نوبة عصبية حادة ، لم ترها زوجتي قط من قبل . ففزعت ودعت أصحاب المحل أن يدلوها على طبيب بارع فى الأمراض العصبية . فقد خيل إليها أن هذا الذى أصابني لابد أن يكون ضرباً من الصرع أو التشنج ، أو لا أدرى ماذا غير هذا . فحملوني إلى طبيب فرنسي ، قالوا لها انه هو الإخصائي الوحيد هنا ، وإنه من آيات الله ومعجزاته فى طب الأمراض العصبية . فأدخلوني عليه ، فاتضح له من استجوابي ، ومما عرفه من تاريخ آبائي وأجدادى من قبلى ، أن أهلي – فى حداثتي – خوفوني مرة بدب صناعي ، له فرو كثيف ، وكانت صدمة الفزع الذى انتابني فى صغرى شديدة جدا ، فأنا من ذلك الحين ، أضطرب جدا إذا وقعت عيني على الفرو . فسألته زوجتي التي لم تكن تعرف هذا الجانب من تاريخ حياتي الحافل بالمفاجآت ، سألته عن العلاج فقال : « أوه . . لا شيء . . لا داعي للقلق . . ولكن يجب ألا يرى الفرو أبداً . . »

والحق يقال إنه كان طبيباً بارعاً جدًّا ، فإن مرضي العصبي لم يعاودني بعدها أبداً . . والفضل بعد الطبيب ، هو بلا شك لزوجتي التي حرصت أعظم الحرص ، على ألا أرى الفرو . أبداً . .

* * *

ولا أحسبني ارتددت بالقارئ أكثر من غمضة عين ، من غمضات عيون تاريخ مصر الأدبي فى حقبة حافلة تقع بين العشرينات والأربعينات

من هذا القرن العشرين ، والعهد بهذه الفترة ما يزال عالقاً بالأذهان .

وما زلنا نرى القوم فى الغرب يتجادلون فى أخطاء معركة (ووترلو) وثغرات معاهدة أوسترلترزوأخطاء بسمارك الذى كان يقول عنه ، أعداؤه ، انه جعل ألمانيا كبيرة والألمان صغاراً . .

وما يزال النقاش محتدماً حول ما كان يجب أن تكون عليه ختام مأساة شيكسبير (روميو وجولييت) . وهل كان يجب من الأصواب أن يتزوج روميو من جولييت وتنفض الحكاية . . . أو يتركها (شيكسبير) كما تركها ، دمعة حائرة فى أعين الرومانسيين فى زمن عزّت فيه الرومانسية ، وهرولت تلتمس نجاة من تهديد المادية لها بخنقها وإخماد أنفاسها بحيث لا يشفع لها إسعاف أو حجرة إنعاش . .

حتى قطع فى الأمر ناقد لماح بقوله : لو أن روميو تزوج من جولييت لعاشا فى (تبات ونبات) وخلّفا (صبيان وبنات) وسكتت الناس عن الحديث عن روعة مأساة (شيكسبير) الخالدة ، وتلاشت تنهداتهم على العاشقين الصغيرين . والخيرة فيما اختاره الله . .

ويجرى ذلك أيضاً على مأساة المجنون وليلاه . فلو أن قيساً تزوج من ليـلى بدلا من ورد ، لعاشا فى (تبات ونبات) وخلّفا قيسا صغيراً غير مجنون ، وليلى صغيرة سمراء ، ولخمدت الحسرات التى دأب على ترديدها الرومانسيون من العشاق ، كلما جرى على الخاطر ذكرى مأساة المجنون الشديدة، أو أخطرها على بالهم شبيه لذلك العشق العقيم مع استحالة ذلك فى زمن أصبح القمر فيه فى متناول رجل الإنسان . .

* * *

رحم الله الكاتبين الكبيرين ، عبد العزيز البشرى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وأحسن إليهما بأسخى مما فضَّضَا من ظلام العيش ، وأنارا من حلك الأيام ، لنفوس كلَّت فى طلب الرزق ، وقلوب جفَّ فيها معين الحياة ، بما كانا يفيئان به على الناس من حكمة ورشاد ، فى أفانين من حلو الحديث وبراعة الرواية .



الفصل الثامن

أعلام الفكاهة فى الغرب

لكل أمة فكاهتها ، تبعاً للبيئة والميراث والتقاليد ، والجو وحالة الرخاء أو الفقر ، فى كل صُقع من الأصقاع .

والشعوب فى كل أرض ، فى إقبالها على الفكاهة ، تتباين فى أذواقها وفى قدر فهم ما يستمعون إليه ، وإن التقوا جميعاً عند الإعجاب بما يثير الضحك ويبعث المرح .

وهم فى هذه الحالة ، يتفاوتون فى درجة الضحكة ، وتراوحها بين الابتسامة والقهقهة ، عندما ترتسم على وجوههم .

والفكاهة فى الغرب لها خصائص تتميز بعمق الثقافة ، ولمس الوقائع لمساً يعتمد على الثقة فى فهم المتلقى ، دون أن يغوص فيشرق فيغرق فيها لا قبل له به ولا طاقة له عليه .

وليس من اليسير على الغربى أن يفهم فكاهات المجتمع العربى ، لغياب كثير من تقاليده عن أذهان كثير من أهل الغرب .

ونسوق فى هذه المناسبة ، القصة التالية :

جلس أعرابى على مائدة بعض الخلفاء . وكان من بين ما قُدّم جَدى مشوى . وراح الأعرابى يلتهم التهاماً أجزاء كبيرة من الجدى ،

فقال له الخليفة :

إن من يراك على هذه الحالة من الالتهام ، يعتقد أنه لابد أن تكون أم هذا الجدى قد نطحتك .

وهنا أجاب الأعرابى على الفور وببديهة حاضرة :

وإن من يراك أنت يا أمير المؤمنين فى عطفك على هذا الجدى ، يظن أن أمه أرضعتك . .

والذى يغرب عن فهم الغربى لهذه القصة ، صعوبة تصور العيش فى البوادى النائية ، وارتفاع الكلفة بين البدوى البسيط ، والخليفة ذى الشأن والسلطان .

وعلى نفس هذا المستوى من الصعوبة فى فهم فكاهات المجتمع الغربى للمجتمع العربى ، نسوق قصتين ، تستلزمان فهماً لأوضاع وثقافات خاصة بالغرب :

وتتلخص القصة الأولى فى أن (Tiers تييرس) كان أول رئيس جمهورية فى فرنسا عام ١٨٧١ . وكان هو الأول كذلك فى إطلاق لقب President على رئيس الجمهورية ، بعد أن كان Chef du - Pouuoir Executif أى رئيس السلطة التنفيذية . وكان يقول فى معرض التشبث بالتسمية الجديدة : لماذا تريدوننى على أن أكون مشتركاً فى الوظيفة مع صاحب مهنة أخرى وهو الطباخ (إذ أن Chef بالفرنسية تعنى طباخ) ثم يردف قائلا ، ومع احترامى لأصحاب هذه المهنة ، إلا أن تنازع الاختصاص يبرّر تغيير الاسم . وهذا ما نادى به (مونتسكيو)

وقد كان قصير القامة ، وجاء اسمه Tiers أى (الثلث)

مؤكداً لهذا القِصَر . إلا أن أصحاب المجون من الفرنسيين استكثروا عليه الثلث وأطلقوا عليه اسم Le Quart أى الربع . . .

كما أن القصة الثانية تتلخص فى أن جان – بول سارتر فيلسوف الوجودية ، روى مرَّة أنه كان فى زيارة لميناء طولون ، وقابل على رصيف الميناء بحاراً يعرض سلعة فنيَّة صنعها بنفسه ، تمثل زجاجة ويسكى فارغة ، بداخلها مصغَّر دقيق لبارجة حربية .

وقد بادره سارتر بالسؤال :

لا شك أن إدخال بارجة إلى داخل زجاجة ويسكى أمر فى غاية الصعوبة . أليس كذلك ؟

فأجابه البحَّار .

لا يا سيدى ، إنه لأسهل بكثير من إدخال زجاجة ويسكي إلى البارجة . . .

والخفىُّ الذى لا يظهر فى هذه القصة ، أن طولون تعتبر قاعدة للأسطول الفرنسى . ولهذا تحكم القاعدة قوانين عسكرية شديدة ، من بينها تحريم إدخال الخمور إلى بوارج قطع الأسطول .

* * *

سوف أصحب القارئ معى فى رحلة نجوس فيها خلال ألوان من الضحك ، تبعثه فكاهات من الغرب ، على مختلف المستويات .

وتجنباً للسير الطويل الذى قد يجهد القارئ ، ونأيا عن الدخول فى متاهات ومسالك ، أن بدت لها بداية ، عزَّت نهايتها على أى تحديد ، لاتساع مجال القول فيها وتعدد طرق الشعوب فى رواية الفكاهة وقول

النكتة ، أقول ، تجنباً لكل ذلك ، رأيت أن أستعرض ثلاث شخصيات من أهل الظرف فى كل من إنجلترا وفرنسا وأمريكا .

ثم أستعرض فكاهات اشتهرت وذاعت على لسان أو نقلاً عن أصحاب الوظائف والمهن المختلفة ، دون التقيد بجنسية أصحابها .

وسوف أدخل مع القارئ إلى حياة ثلاثة من أهل الظرف من الإنجليز ، نبدؤها بحياة برناردشو ، وما جذب الناس إليه ، إلى جانب نبوغه وعبقريته وتفرّده بفكاهة ذكية بارعة .

جورج برنارد شو :

لا يختلف اثنان فى أن جورج برنارد شو ، كان أعظم أدباء هذا العصر الذى يفترش عهداً يبدأ بأيام الملكة فيكتوريا ، وهو ما اصطلح النقاد على تسميته بالعصر الفيكتورى ، حتى عصر القنبلة الذرية الذى نعيشه وهو القرن العشرين .

وكثير من الناس الواقعيين ، يوقنون بأنه كان روائياً أعظم من شيكسبير ، وأخبر بالموسيقى من بيتهوفن ، وأبعد نظراً فى الاشتراكية من كارل ماركس .

كما أن كثيراً أيضاً فى العالم الأدبى ، يرفضون أن ينظروا إليه إلا على أساس أنه مهرج خفيف الظل ، وأغفلوا من حسابهم ذلك العمق الفلسفى فى نظرياته وأفكاره التى كان ينثر عليها طبقات رقيقة من منثور السكر ليجذب إليها قراءه .

وبرغم الأربعة والتسعين عاماً التى عاشها ، فإنه لم يحظ فى أخريات حياته بتحقيق ما كان ينادى به من آراء وأفكار .

فلم يقدر أن يثنى الناس عن أكل اللحم ، اكتفاءً بالخضراوات والفاكهة ، ولا امتنعوا عن التردد على الكنائس بدلا من دور الأوبرا التى كان ينصح بالذهاب إليها ، ولا انقطعوا عن زيارة الأطباء ، بعد أن عصوه فى المحافظة على حرارة القدمين وبرودة الرأس .

وكان يقول عن التراجم الشخصية ، إنك عندما تطالع ترجمة رجل ما ، اذكر دائماً أن الحقيقة غير صالحة للنشر .

استوقفه مرّة أحد الأشراف الإنجليز nobles ، وسأله : عفواً يا سيدى ، ألم يكن والدك خيّاطاً ؟

فأجابه شو بقوله : نعم يا سيدى كان والدى خياطاً .

فسأله النبيل : ولِمَ لَمْ تأخذ مهنته .

وهنا راح شو يسأل النبيل : عفواً يا سيدى ، ألم يكن والدك نبيلاً ؟

فأجاب النبيل : نعم يا سيدى كان والدى نبيلاً .

وفاجأه شو بقوله : ولِمْ لَمْ تأخذ عنه النُّبل ! . . .

وكثيراً ما كانت تنتابه حالات من التفاؤل تحمله على أن يدعو الناس إلى التفاؤل مهما بلغت بهم الشدة وقسوة الحياة . وكان يقول : إذا كنت أصم فاستمتع بالسينما وإذا لم تكن مبصراً ، فاستمتع بالراديو ، أما إذا كنت قد فقدت سمعك وبصرك ، فعليك أن تحمد الله الذى أنقذك من السينما ومن الإذاعة . . . والتليفزيون . . . .

كانت إحدى الممثلات تعجب بشو وأرادت أن تدعوه إلى منزلها بطريقة توهمت أنها مبتكرة ، فكتبت إليه رقعة حملها إليه رسولها ، وقد جاء فى الرقعة :

سأكون فى منزلى فى الساعة السادسة من يوم السبت القادم

فرد عليها شو بقوله :

وأنا كذلك . . .

وكان يقول إنه ليس هناك من فوارق بين الإنجليز والأمريكيين سوى اللغة ، أو بمعنى أوضح أن إنجلترا وأمريكا بلدان ، تفرقهما نفس اللغة . .

ولقد قام بتصنيف عجيب للرسّامين فى ردّه على سؤال فى هذا الشأن :

يمكن تصنيف الرسّامين على النحو التالى :

الرسامون الذين يرسمون ما يرون

الرسامون الذين يرسمون ما يظنون أنهم يرون

الرسامون الذين يظنون أنهم يرسمون ما يرون

الرسامون الذين يظنون أنهم يرسمون ما يظنون أنهم يرون

الرسامون الذين يظنون أنهم يرسمون . . .

كان شو يعتنى بحديقته على عادته المألوفة ، وحدباً منه على نباتاتها وخضراواتها التى يعيش عليها . وإذا بسيدة صديقة لزوجته لم تكن تعرفه ، جاءت للمنزل ورأته وهو منهمك فى عمله ودار بينهما الحوار على الوجه التالى :

هى : هل مضى عليك زمن طويل وأنت تعمل لحساب آل شو ؟

شو : بين العشرين والخمسة والعشرين عاماً يا سيدتى .

هى : وكم تتقاضى منهم ؟

شو : إننى أعمل فى مقابل طعامى وكسوتى يا سيدتى .

هى : (بلهفة) ما رأيك فى العمل عندى بنفس الشروط مع منحك

أجراً شهرياً ؟

شو : يؤسفنى يا سيدتى أن أعتذر ، لأننى مرتبط مع السيدة شو مدى الحياة .

هى : (وهى تصيح) مدى الحياة ! إنها عبودية ؟ إنها سخرة ،

شو : (ببرود) : كلا يا سيدتى ليس فى الأمر عبودية أو سخرة ، نحن ندعو ذلك زواجاً ..

* * *

أوسكار وايلد :

كان يحلو له أن يقول إنه من مواليد ١٨٥٦ برغم أن الثابت عن حقيقة عمره ، أنه من مواليد عام ١٨٥٤ .

وكان يقول إن السنوات التى تنقصها السيدات من أعمارهن لا تعتبر سنوات ضائعة بالنسبة للناس ، لأنهن يضفنهـا إلى أعمار صديقاتهن العزيزات .

وكان شاعراً نابغاً بليغاً ، وقصصياً بارعاً ، وقد خلّدت ذكره روايته « صورة دوريان جراى » .

وكان مغرماً بتدخين السجائر ، وهو القائل عنها إنها الشىء الوحيد الذى يدعك دون أن تشبع رغبتك منه .

وكان يقول ، إن السجائر ذات الأطراف المذهّبة مرتفعة الثمن ، بحيث إننى لا أستطيع الحصول عليها ، إلا عندما تتراكم علىَّ الديون . .

وكان يروى القصة التالية : وصلت سفينة إلى جزيرة نائية مجهولة .

وقد شاهد ربّان السفينة التجارية التي رمت على الشاطئ عجوزاً تبلغ لحيته الطويلة البيضاء قدميه الحافيتين ، فسأله قبطان السفينة :

– لماذا أتيت إلى هذا المكان ؟

– لأنسى

– لتنسى ماذا ؟

– نسيت ! . .

وقد قصده مرّة شاعر مغمور وراح يشكو إليه ويسأله المشورة .

– ماذا أعمل ؟ هناك مؤامرة لإسكاتي تُحاك ضدي ، فلا كلمة ولا إشارة ولا حديث عني . ماذا تنصحني أن أفعل ؟

فأجابه وايلد :

رأيي أن تنضم إلى المتآمرين ! . .

وكان أوسكار وايلد صديقاً حميماً للرّسام المشهور جيمس هويسلر . وذات يوم قرأ وايلد قصيدة جديدة له أمام هويسلر وسأله رأيه في القصيدة بعد أن ناولها له ليقرأها بنفسه . فأعادها هويسلر وهو يبتسم ابتسامة مبهمة ويقول لوايلد إنها تساوي ثقلها ذهباً .

وقد سمع وايلد رّنة الإخلاص في صوت صديقه الرسام فارتاح نفساً وغلبه السرور ، ثم فجأة انقلب ساخطاً على هويسلر عندما اكتشف أن القصيدة كان قد كتبها على ورق رقيق خفيفٍ لا يكاد يزن شيئاً . .

وعندما مات في باريس ودفن في مقابر الفقراء (بيير لاشيز) أحضروا له قبل وفاته طبيباً كشف عليه وبعد الكشف قدّم فاتورة لم يكن يملك أجرها وقال لمن حوله :

إنى أموت ميتة فوق مستوى إمكانياتى . .

ولم يستطع بالتالى أن يسدد إيجار حجرته فى الفندق الذى مات فيه ، مما حمل صاحب الفندق على إرسال إكليل من الزّهر وضع فوق نعشه وقد حمل العبارة التالية :

« إلى المستأجر » ! . . .

* * *

سير ونستون تشرشل :

المنتصر فى الحرب العالمية الثانية عندما كان رئيساً لوزراء بريطانيا .

سئل مرة عما إذا كان يعتقد أن حرباً ثالثة ستنشب قريباً فأجاب بقول :

الواقع أن مستر شنويل كان وزيراً للفحم ولم يكن لدينا فحم فى بريطانيا . . .

والآن مستر شنويل هو وزير الحربية . . . إذن . . . . . .

وفى أثناء الحملات الانتخابية فى إنجلترا ، شاعت بين المجتمعات النادرة التالية :

استقل تشرشل هذا الأسبوع سيارة الميجور أتلى زعيم العمال الذى قال لتشرشل لدى إحدى المنحنيات المفاجئة الخطيرة :

أود أن أطرد هذا السائق المتهور الذى يقود السيارة بسرعة جنونية . وقد كاد يقتلنى مرتين !

فقال له تشرشل :

كن متسامحاً معه ، وأتح له فرصة أخرى .

استغل برنارد شو نفور تشرشل من الناس ، فبعث إليه يوماً ببطاقتي دعوة لحضور مسرحية له ليلة الافتتاح وذيّلها بالعبارة التالية :

وهكذا يمكنك أن تصطحب صديقاً ، هذا إذا كان لك صديق . . . .

فرد عليه تشرشل ببطاقة جاء فيها :

آسف جداً ، إذ لا أستطيع لموانع طارئة الحضور الليلة . وسوف أشهد العرض الثانى . . . . إذا كان هناك عرض ثان . . . .

* * *

ذات يوم فى مجلس العموم تحمست سيدة من حزب العمال ، هى عضو فى المجلس ، بعد أن أثارها تشرشل ببروده ، فى موضوع هام مطروح للبحث ، وكانت المناقشات صارخة صاخبة ، فقالت :

لو كنت زوجى لوضعت لك السم فى الشاى ! . . .

ولم تكن السيدة على شىء من الجمال ، وجهاً أو جسماً ، فرد عليها بابتسامة ساخرة خبيثة :

لو كنت زوجتى يا سيدتى ، لشربت السم عن طيب خاطر ! . . .

ومن أقواله المأثورة :

يروج استعمال الكذب فى الحالات الثلاث الآتية :

- قبل الانتخابات . . .
- أثناء الحرب . . .
- بعد رحلة صيد .

قال ذات يوم عن أحد خلفائه فى الحكم :

– إن الوقت الذى لا يقضيه فى تأمل نفسه فى المرآة ، يكرسه لإهمال واجبات المهمة الملقاة على عاتقه ! . .

أنتقل بالقارئ إلى جولة ثانية ، نعيش فيها بين أعلام النكتة من الفرنسيين . وقد اخترت ثلاثة هم :

فولتير – تريستيان برنار – ساشا جيترى

ڤولتير :

أقام الفيلسوف ڤولتير والكاتب بيرون رهاناً حول أقصر رسالة يمكن أحدهما أن يكتبها للآخر . تاركين لنفسيهما حرية اختيار اللغة . (وبيرون كاتب فرنسى عاصر ڤولتير)

وكان بيرون يستعد للذهاب إلى الريف ، فاستخدم اللغة اللاتينية وكتب رسالة إلى بيرون فحواها وكلماتها باللاتينية :

سأذهب للريف . وكان واثقاً من كسب الرهان . إلا أنه فوجئ بفولتير يرد عليه برسالة أقصر مستعملاً كلمة لاتينية واحدة هى :

اذهب . . . !

فى حديث بين فولتير وأحد أصدقائه ، قال الصديق :

إنها لشهامة منك أن تمدح دائماً فلاناً فى حين أنه دائماً أيضاً ، يذمك . فقال فولتير :

لعل كلينا مخطئ . . . !

فاجأ فولتير عشيقته العجوز مع شاب صغير السن وهما يتناجيان . فندت عن فولتير صيحة بالرغم عنه :

أوه . . . أيها الشاب المسكين . . بالتعاستك ، إنك لم تكن مكرهاً على ذلك . . .

ومن أقواله : إن كل بيت شعر ، وكل عبارة ، فى حاجة إلى شرح وتفسير ، لا يستحقان الشرح والتفسير .

* * *

تريستيان برنار :

الروائى الساخر الأديب ١٨٦٦ — ١٩٤٧ ، كان يقول للكاتب المسرحى الأديب ساشا جيترى :

هل لاحظت التقدم الذى يسجل الجهل هذه الأيام ؟

كان يروى تريستيان فى أحد الصالونات القصة التالية :

كان ذلك فى ليلة كنت أشاهد فيها رواية تمثيلية فى أحد المسارح الباريسية . وكان النعاس يراود عينى وأحاول دفعه فأفشل . وعندما أضيئت الأنوار للاستراحة ، قمت وقصدت مكان حفظ المعاطف وتناولت معطفى عندما كان مدير المسرح يلاحقنى بقوله

– أمنصرف أنت يا سيد برنار ؟

– أجل . . . .

– ولكن الرواية لم تنته بعد ؟

– . . . ومن أجل ذلك أنا منصرف . . . .

كان يستمع لإحدى العجائز تسدى نصائحها لحفيدها بقولها : إنك لن تخسر شيئاً إذا كنت مهذباً فى تصرفاتك .

فقاطعها برنار بقوله للصبي :

لا تصدق هذا ، إنك على الأقل ستخسر مقعدك فى الترام . . .

لم تلق إحدى مسرحيات تريستيان برنار نجاحاً وبرغم ذلك تقدم إليه أحد معارفه فى طلب تذكرة لدخول التياترو فلبيَّ الروائى الساخر طلب الصديق وقال له وهو يناوله بطاقة الدعوة لحضور المسرحية :

يستحسن على سبيل الاحتياط أن تحمل معك مسدساً فالمكان مقفر . . . والحذر واجب فى مثل هذه الظروف . . . .

فى إحدى مآدب العشاء كان الروائى الساخر برنار يجلس إلى جانب شاعرة معروفة بالتعصب لبنات جنسها وبضرورة المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة دون أى تمييز للرجل .

وكان تريستيان برنار يستمع ويهز رأسه ويقول « نعم . نعم »

واحتار الناس كيف يسكت عن كل هذا الاعتداء على الرجال دون أى تعليق منه على الشاعرة المتعصبة للمساواة ، حتى إذا انتهت ، قام واقفاً وقال لها : سأذهب إلى . .وأشار إلى التواليت المخصص للرجال — فهل تأتين معى . . . .

* * *

ساشا جيترى :

الكاتب المسرحى والممثل والمخرج الفرنسى صاحب مسرحيات ناجحة منها (الحارس الليلى وفضيحة مونت كارلو وباستور وزواج طيِّـب) كان يمثل فى جميع رواياته التى بلغت المائة والثلاثين .

وقد ولد فى سان بطرسبرج من والدين ممثلين وترعرع بين الكواليس . . وكان على أكبر جانب من الظرف وخفة الروح فى مسرحياته وحديثه .

كان البعض يتحدث عن كاتب تافه سخيف أمام ساشا جيترى فقال أحدهم ، متأثراً لأن رجله سوف تبتر :

رحمة بالمسكين . إن إحدى قدميه أصبحت على حافة القبر فقال ساشا معلقاً : نرجو أن تكون القدم التي يكتب بها . . .

وهذه القصة تذكرنى بقول لحسين الترزى إمام النكتة فى مصر بلا منازع .

كنا جلوساً معه وجاء صديق ينبئنا بأن أحد معارفنا — وكان جاحداً بالنعمة كافراً بكل خير — ومضى الصديق ليقول إن هذا الجاحد قد كُسرت رجله فى حادث :

فقال حسين على الفور : إنشا الله تكون رجله اللى بيرفص بها النعمة . .

تزوج ساشا خلال حياته بخمس زوجات ، واحدة تلو الأخرى بعد الانفصال والطلاق طبعاً . . وكانت أولى زوجاته تروى هذه النادرة :

فى يوم جرى بينى وبين ساشا الحوار التالى :

إنى أحبك ! وأنت ؟

فأجابها ضاحكاً :

إننا متفقان فى حب شخص واحد . . . .

بعد أن أنهى أحد المنتجين السينمائيين زيارته لساشا جيترى فى داره ، اتجه نحو علبة السجائر الكبيرة فى الصالون ، وتناول منها ملء قبضة يده وقال بلا تحرج :

هذه مؤونة الطريق .

فقال له ساشا :

لم أكن أعرف أن منزلك بعيد إلى هذا الحد . . . .

ومن أقواله فى النساء :

من الجنون المطبق منح المرأة نفس الحقوق التى يتمتع بها الرجل . يمكن منحها حقوقاً أخرى . . يمكن منحها – إذا لزم الأمر – أكثر من حقوق الرجل ، لا بأس فى ذلك ، ولكن لا حقوق الرجل نفسها . . . .

وكان زوجاً لجاكلين دولوباك الممثلة ، فلما انتقلت بعد الطلاق لتقيم فى شارع (إيليزيه – روكلو) ، وكان المنزل الذى اختارته لإقامتها يقع قبالة مسكنه ، علّق على ذلك بقوله :

عشنا جنباً إلى جنب ، ثم ظهراً إلى ظهر ، وها نحن الآن نعيش وجهاً لوجه . . . .

* * *

بعد هذه الرحلة الفرنسية ، سوف أصحب القارئ إلى رحلة أبعد ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لنطّلع معاً على روح الفكاهة عند الأمريكان ، من خلال أعلام الفكاهة عندهم . وقد اخترت ثلاثة منهم ، هم على الترتيب التالى : مارك توين ، بوب هوب ، إخوان ماركس .

مارك توين ، ١٨٣٥ – ١٩١٠ :

إنه من أكبر الأدباء الساخرين فى العالم ، حتى إن كثيراً من النقاد يقدمونه على (أرسطوفاليس ورابليه وسرڤانتس وسويفت وأمثالهم)

وفكاهاته ذات طابع عام ، بحيث يتفهمها أى شعب وهذا سر نجاحها .

وقد قال عنه الروائى الأمريكى (أرنست همنجواى) ، إن مارك توين بقدرة أسلوبه وذكائه لخص الأدب الأمريكى كله فى روايته (هكليرى فن) .

سئل مارك توين عن رأيه فى الفيلسوف الألمـــانى Nietgsche نيتشه – هكذا يكتب اسمه – فقال توين لسائله :

تسألنى عن رأيى فيه ؟ هناك حروف كثيرة فى اسمه لا فائدة منها .

وصل مارك توين ذات مرة إلى فندق للمبيت ، فقدم إليه المستخدم ، السجل الخاص بأسماء النزلاء ليكتب اسمه ، فلاحظ أن آخر سطر فى السجل اشتمل على اسم « البارون أونتيل وخادمه » فكتب هو فى السطر التالى له : (مارك توين وحقيبته) . . . .

ذهبت إحدى السيدات إلى مارك توين ، وقالت له إنها متعلقة بالأدب وتود أن تشتغل به ولذلك فقد جاءت إليه لتسأله عن أفضل طريقة للكتابة ، فقال لها على الفور :

من اليسار إلى اليمين يا سيدتى . . . . .

أرسل مارك توين مرة اثنتى عشرة برقية إلى اثنتى عشرة من أكبر الشخصيات فى مدينة هانيبال الأمريكية ، وكانت جميعاً بنص واحد ، هو :

« اهرب ! لقد اكتشف كل شىء »

وفى أقل من ساعة كان الاثنا عشر المعنيون قد غادروا المدينة . . . .

فى حفلة عشاء كبرى ، التفت مارك توين إلى السيدة التى تجلس

إلى جواره وقال لها وهو يشير إلى أحد المدعوين :

إننى أكره هذا الرجل الذى يجلس أمامك .

فدهشت السيدة وسألته إن كان يعرف أنه زوجها !

فلم يرتبك ، ولكن ساعفته سرعة خاطره فأجابها على الفور :
طبعاً أعرف ذلك . . . وأنا أكرهه لأنه سبقنى وتزوجك ! . . .

كان على مارك توين أن يتحدث فى نهاية إحدى المآدب الرسمية بإلقاء كلمة ولم يكن راغباً فى الكلام ، فقام ، وقال :

سيداتى سادتى . . شيكسبير مات ، وسويفت مات ، ومولبير مات . . .
وأنا لا أشعر بأننى على ما يرام ! . .

ثم جلس . . . .

ومن أقواله اللاذعة :

لاحظت أنه فى باريس ، يتكلم خدم المقاهى الإنجليزية بإتقان ، ولكنهم لا يفهمونها .

كن طيباً ، تعش وحيداً .

إذا كانت الموسيقى بلا كلام لا تطرب الكثيرين ، فإن الموسيقى بلا موسيقى ، توغر الصدر .

جلس مع صديق يستمع إلى عازف كمان ، كان أقل من المتوسط فقال لصديقه ، إن هذا العازف ، يعزف كما كان يعزف شيكسبير ، فقال الصديق :

إن شيكسبير لم يكن يعرف العزف !

فقال تـوين ، ولا هذا أيضاً . . . . ! . .

بوب هوب :

لقد بلغ من مكانة هذا الممثل الفكاهى الكبير فى قلوب مواطنيه ، أن الكونجرس الأمريكى – أيام أزمة كوبا – وجد لديه من الوقت ما يسمح بأن يناقش ضرورة منح وسام ذهبي لبوب هوبت واعتباره كما لو كان مَعْلماً من معالم أمريكا ، تفيض فكاهاته على المجتمع بالسعادة والاستبشار.

لم يجد ما يعبر به عن إعجابه بالممثلة الأسوجية الفاتنة ، أبلغ من أن يقول : « إن والدى أنيتا يستحقان جائزة نوبل للهندسة »

وكان يقول عن زوجته الحسناء (دولوريس ريد) التى مضى على زواجه منها ثلاثون سنة ، إن ثلثها أيرلندى ، والثلث الثانى إيطالى ، والثلث الأخير جهاز لكشف الكذب ! . . . . . .

ولم يصل فى تعليمه إلى أبعد من السنة الأولى الثانوية . وبرغم ذلك فقد منحته جامعة جورجتاون درجة علمية فخرية تقديراً لعمله المستمر. ولما قدموا له براءة الدرجة العلمية المكتوبة باللغة اللاتينية ، قال : إنى شديد اللهفة على العودة إلى المنزل لكى يقوم ابنى المتخرج من الجامعة نفسها ، بترجمة مضمون البراءة .

وابنى هذا ، بوسعه أن يكتب إلينا ، من أى مكان هو فيه بخمس لغات مختلفة ، ليطلب نقوداً . . . . .

ومن أقواله : لقد قلقت جداً لكثرة ما قرأت من المقالات والأبحاث عن ضرر التدخين وما يعقبه من ويلات بصحة الإنسان ، مما جعلنى

أتوقف تماماً . . . . . عن قراءة الصحف . . . . .

في أثناء مرور بوب هوب بميكسيكو عرفوه بمصارع الثيران المحلي الشهير في المنطقة ، وقد قال لبوب هوب بكل ثقة واعتزاز واعتداد :

إنك تصافح من قابل أكثر من أربعمائة ثور . . فرد عليه بوب يقوله : إنك ولا شك تثير غيرة كل البقر في مكسيكو . . .

وهو يروى عن الممثل الفرنسي الشهير جان – بول – بلموندو ، أنه عندما كان ضيفاً على صديقه الممثل جان – كلود ، صادف عند دخوله المنزل كلباً ضخماً استقبله بنباح متواصل ، فتردد بلموندو في الدخول ، فصاح مضيفه كلود :

تقدم ولا تخف ! ألا تعرف المثل القائل ، إن الكلب الذى ينبح لا يعض !

فأجابه بلموندو : أنا أعرف هذا المثل ، ولكن هل كلبك يعرفه ؟ . . .

* * *

إخوان ماركس :

لقد ظل الإخوة الثلاثة : تشيكو وهاريو وغروتشو يبسطون ظلهم على السينما الضاحكة في أمريكا طوال عشرين عاماً .

في أحد أفلامهم قدّم غروتشو قلم الحبر إلى تشيكو ليوقع به على عقد عمل . فيجيبه أخوه تشيكو

ولكني لا أعرف الكتابة !

فيقول له أخوه : لا بأس ولا أهمية لذلك ، فليس في القلم حبر .

عندما كان الإخوة ماركس فى المكسيك لحضور مهرجان سينمائى ، وكانوا ضمن وفد هوليورد ، جاء رئيس تشريفات القصر الجمهورى وأبلغهم الرسالة التالية :

يشرفنى كثيراً أيها السادة ، أن أنقل إليكم أن رئيس الجمهورية سيستقبلكم غداً فى الساعة الخامسة .

فما كان من غروتشو إلا أن قال :

ونحن كذلك . . .

وعندما رأى الممثلة مانسفيلد ذات الصدر الرائع قال :

إن حياة الممثلة تبدأ عندما تجد صعوبة فى إدخال ثدييها داخل البلوزة . . وتنتهى حياة الممثلة عندما لا يعود فى استطاعتها أن تحشر نفسها فى جونيلتها . . .

وكان غروتشو دائم الشكوى من الأمبريزاريو (وهو المتكفل بتقديم ممثليه للفيلم والتعاقد معهم مقابل نسبة له) .

وقد قال مرة إنه أوصى فى وصيته بأن تحرق جثته ، على أن يُعطى عشر كمية الرماد إلى (الأمبريزاريو) طبقاً للعقد الموقع فيما بيننا . . . . .

* * *

والآن ، سوف نتجول فى رحلة أخرى ، نجوس خلالها بين مختلف المهن والوظائف ، لنلتقط الفكاهات الذائعة من أهل كل مهنة ، والتى تنم عن خفة روح قائليها ، مهما كانت مراكزهم ، فالقافية كما يقولون ، تحكم .

سأل السائح الأمريكى الذى يريد أن يعبر بحيرة طبرية صاحب

زورق عن أجرة العبور بالزورق .

– مائة دولار !

– إنه مبلغ مرتفع . . .

– يمكن يا سيدى أن يكون المبلغ مرتفعاً ، ولكن تذكر يا سيدى أن البحيرة تاريخية وأن السيد المسيح سار على الماء ههنا . .

فقال السائح الأمريكى :

لا عجب . . . فهو عندما رأى أسعاركم الفاحشة ، فضل أن يلجأ إلى وسائله الخاصة . . .

الفكاهة بين الموسيقيين :

يروى ملك الجاز (لويس أرمسترونج) أنه كان فى مطلع حياته فى حال من الفقر لم تسمح له بأن يمتلك ساعة من أى نوع . فكان إذا أراد أن يعرف الساعة فى الليل يلجأ إلى آلة الكورنيت ليعزف عليها بالنفخ العالى الذى يوقظ من غير شك أحد الجيران ليقول له :

« ألا تخجل من العزف فى الساعة الثالثة صباحاً » .

كان أحد الموسيقيين الأمريكيين (جورج آلنتى) ابتكر عرضاً للباليه يتفق مع المعيشة الآلية المعاصرة ، فاستخدم فى الأوركسترا عشرة بيانوات أفقية الأوتار وستة من آلات تحدث الصوت بمطارق تطرق على قضبان من الخشب وصفارة إنذار وجرس من أجراس رجال الإطفاء ومروحة طائرة وبضعة أبواق سيارات نفخية . فلما تزايد العزف عنفاً ، أخذ الحاضرون يتململون ويتذمرون ، وقد شاع بينهم الهياج ، واستمر الحال

ثمانى دقائق على هذا الحال وإذا برجل من المشاهدين يجلس فى المقاعد الأمامية يرفع منديله الأبيض على رأس عصا ، فانفجر المشاهدون فى الضحك وسكت العزف . . . .

كان أحد مديرى المسارح الاستعراضية الموسيقية فى مارسيليا ، خفيف الروح حاضر البديهة . وكان مسرحه يعرض استعراضا فاشلاً وكان المشاهدون فى الصالة يعدون على الأصابع ولكنهم أخذوا يصيحون ويهتفون ويحدثون جلبة عالية ، فما كان من مدير المسرح إلا أن دخل فى المكان المخصص للملقن ورفع صوته موجهاً القول للجمهور قائلاً :

ليعلم الجمهور أننا نحن عمال المسرح أكثر منكم عدداً ، فاحذروا عاقبة ما تصنعون . . .

الفكاهة بين السياسيين :

كان تاليران رجل الدولة الفرنسى ومن أدهى رجال السياسة والدبلوماسية فى فرنسا وشغل منصب وزير الخارجية أكثر من مرة ، من أكثر الناس ظرفاً ، ولقد تعرض كثيراً للسخرية من أجل عرجه .

لقد أحسنت وصفه مدام ده ستال ، وكانت معجبة لحسناته وسيئاته على السواء ، عندما قالت فى وصفه :

موريس هذا الطيب ، يشبه كثيراً الدُّمى الصغيرة التى تمثل الجنود ويلهو بها الأطفال . . رءوسها من فلين وسيقانها من رصاص ، مهما قلبتها ، فإنها دائماً تقف على أقدامها . . . . .

وهى تقصد أنه بالرغم من تاريخه الثورى استطاع أن يحظى بتقدير الملكية ...

سألته ذات يوم سيدة فى عينيها حَوَل ، وهى تُعرِّض بعرجه لإيلامه : كيف تسير الأمور ؟

فأجابها على الفور : كما تَرَيْن . . . . !

عندما اشتدت العلة على تاليران ، ولم يكن على تفاهم مع رجال الأكليروس ، قال أحد رجال البلاط فى حضور الملك لويس الثامن عشر :

لا أدرى ماذا يستطيع تاليران أن يصنعه مع الكهنة لتنظيم المأتم :

فقال الملك : لا خوف عليه ، فإن تاليران قد عرف كيف يعيش ، ولا بد أنه سيعرف كيف يموت . . . !

عندما أعلن الملك لويس الثامن عشر عن صدور دستور جديد كان على المتخصصين أن يسرعوا فى وضعه ، وعند عرضه على الملك استشار تاليران رئيس الحكومةِ المؤقت آنذاك ، فقال تاليران :

إنى ألاحظ ثغرة فى مواد الدستور .

فسأله الملك عن أى ثغرة تكون ، التى لاحظها .

فأجاب تاليران بأن النص الخاص برواتب أعضاء المجلس النيابى جاء خلواً من تحديد أى مرتب لهم

فقال الملك : ذلك لأنى أريد أن أدفع مقامهم فى نظر كل الجهات والجميع فقال تاليران : هذا صحيح يامولاى . . . ولكن المجانية دائماً تكلف كثيراً . . . . .

* * *

عندما انتهت مدة رئاسة أرمان فالبير (١٩٠٦) للجمهورية الفرنسية ، سلّم مقاليد الحكم لخلفه فى الرئاسة ريمون بوانكاريه .

وقد قال له وهو يصافحه :

المنصب لا بأس به ، ولكن ليس به مجال للتقدم والترقى . . . . !

من أقوال جاستون دوبيرج :

نحن نحسب وعودنا مجاملات ، فى حين يعتبر المرشحون الذين انتخبونا أن مجاملاتنا وعوداً .

كان ميلران رئيساً للجمهورية فى ظل الجمهورية الثالثة . وكان سيئ الحظ فقد هاجمته جميع الأحزاب وانتقدت الحكم فى عهده . وعندما كان يمر يوماً فى حى من الأحياء سمع هتاف الجمهور فى الشارع : (يحيا ميلران !) . فتمتم لنفسه :

هذا أمر غريب ومثير للعجب . . . . أما يزال فى باريس أناس لا يطالعون الصحف . . . . . !

حدث فى مارسيليا عندما كان جنرال ديجول يستعرض قادة قوات فرنسا الحرة ، أن قدموا له عشرة بين كولونيل وقومندان من المحليين وكانت الأشرطة الجديدة تلمع على أذرعهم وأكتافهم ببريقها .

وعندما بلغ آخر الصف ، رأى جندياً برتبة سرجان ، فتقدم منه ديجول قائلاً ، ألم تزل جاويشاً ؟

لماذا يا بنى ! ألا تحسن الخياطة . . . .

فى آخر عام ١٩٥٩ طلب أحد نواب الجمعية الوطنية مقابلته ليقول له : إن أصدقائى لا يوافقونك على سياستك فى الجزائر .

فأجابه ديجول بكل ازدراء : استبدلهم . . !

كان ديجول يحادث أحد السفراء الأجانب عن صعوبة إيجاد

متضامن فرنسا ، واحتد فى حديثه ثم صاح قائلاً :

كيف السبيل إلى حكم بلاد فيها ٢٥٨ نوعاً من الجبن . . . !

تولى رئاسة الجمهورية فى فرنسا عام (١٨٧٩) جول جريفى وكان طيب القلب مرحاً ولكن كانوا يعيبون عليه شدة بخله .

وقد روى عنه الصحفى هنرى روشفور فى (الأنترانزيجان) القصة التالية :

« ألقى القبض على شاب فى ملابس السهرة الرسمية ، حوالى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، متلبساً بسرقة رغيف خبز من فرن كان ساعتها يفتح أبوابه ، فلما استجوبه رجال الشرطة ، أجاب : « إنها حالة الضرورة القصوى Force Majeur فقد كنت أتناول العشاء على مائدة رئيس الجمهورية . . . . !

فأطلق البوليس سراح المسكين على الفور . . . . !

وقيل إن من كان فى المخفرقاموا بجمع مبلغ قدموه إليه . . . . ليسد به رمقه ، بعد جوع شديد . . . .

الفصل التاسع

أعلام الفكاهة عند العرب

العرب أمة غنية بأفانين القول ، حتى لقد تضمنت علومهم علماً ، أطلقوا عليه اسم (علم الكلام)

وهم فى جميع أطوار حياتهم ، كانت الفكاهة على ألسنتهم تجرى وتفيض كأنها النهر الثرى .

فلقد رزقهم الله بسطة فى سرعة الخاطر ، وحضور البديهة . وكانوا كلما ارتقوا فى حياتهم ، ارتقت فكاهاتهم : نثراً وشعراً ورجزا ، وانتشرت وذاعت وملأت قصور الخلفاء والأمراء ، وتناقلها المولعون بحفظ هذا اللون من الآداب فى كتب ومصنفات عديدة .

وكلما فاضت الرفاهية فى القصور العامرة بكل غالٍ وثمين ، ملأت الفكاهة والمجون تلك القصور بما كان يتطلبه العصر من فنون القول الجميل المختار المفرح الباعث على الاستبشار .

وكثر فى بلاط كل خليفة أو أمير ، المشتغلون بوظيفة ابتعاث الضحك وبمهمة الإضحاك ، إلى جانب ما كان يزخر به البلاط من فاتنات شاعرات عازفات راقصات ، كن هن دوافع الفكاهة والضحك وبواعث المرح والحبور .

وكان يطلب من الشعراء القول المرتجل فى عازفه أو جارية ، ويجزى الشاعر إن أحسن .

قال أبو العتاهية فى مجلس من هذه المجالس شعراً فى جارية :

لم يُبق منى حبهـا ماخلا حشاشة فى بدنٍ ناحـل

يا من رأى قبلى قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل

والعرب ، وأهل الفكاهة والظرف منهم بصورة خاصة ، أكثر الناس اختصاراً فى القول ، وأدقهم فى إصابة الهدف وأوضحهم فى عرض الشئون ، وألمسهم بموقع الداء .

حلَّت فاقة قاصمة بالشاعر أبى الشمقمق وهو الظريف الفطن . وقد لزم داره بعد أن رثَّت ثيابه وبليَتْ وأشفق من أن يقابل بها فى الطريق أحد معارفه . وقد زاره صديق وراح يخفِّف عليه بقوله : إن العارين فى الدنيا ، هم الكاسون فى الآخرة .

فقال : إن صح ذلك فسوف أكون صاحب محل قماش يوم القيامة . .

واختصار القول فى النكتة أعظم من أى باب آخر . لأنها تقال لإصلاح حالة أو علاج أمر ينقده والتهكم عليه والسخر منه سخرية للذع ولا تجذع ، وبإيجاز كأجزاء الدواء ، محسوبة مقاديره وموازينه ، حتى لا تزيد على العليل علته ، ولا تثقل عن وزن (البرشامة) حتى لا يصدعنها المريض ، أو يحسّ مرارتها بعد أن طواها غلاف رقيق .

* * *

وكان (كارليل) يقول فى كتابه (الأبطال والبطولة) إن الأقدمين كانوا أسرع إلى إدراك الحقائق منا نحن . . وكانوا بدلاً من اللغو واللغط فى

شأن الكائنات ، ينظرون إليها وجهاً لوجه .

أولئك كانوا أفهم لآيات الله فى كونه ، وأدرك لسرِّه فى خلقه . .
وربما صح هذا القول فى العرب عن غيرهم من الأمم . وقد يرجع إيجازهم فى القول إلى انشغالهم بشئون الحياة العسيرة التى كانوا يحيونها فى بداوتهم الأولى ، فهم فى شغل بمطالب العيش ومطالب الحياة ، والعمل الدائب على رد عدوان الطبيعة وبنى البشر عنهم على وجه الدوام .

مرَّ أعرابى ضرير على حى من الأحياء وكان يردد قوله :

آه لو أدركتم مصيبة العمى

وسمعه أعور فقال له .

إنى أدركت نصف المصيبة . .

ومنعاً من أن ينفرط بين أيدينا عقد الحديث عن أعلام الفكاهة عند العرب . وخوفاً من أن نَضَل بين مسالك القول ، نبدأ فى هذه الجولة مع القارئ ، بذكر نماذج لأعلام الفكاهة والظرف والإمتاع عند العرب ، ثم نأتى على الأبواب التى كانت هدفاً لسخرياتهم ولواذع كلامهم ونوادرهم ، مع كثير من أهل الحرف . ونختم جولتنا بمتفرقات لا تخضع لباب معين أو يشملها تحديد موصوف

* * *

كان الجاحظ أطولهم باعاً ، وأغزرهم علماً ، وأعمقهم رأياً وفكرة .
وقد أتينا على ذكر كثير من أقواله فيما مرّ بنا .

ونعرض فيما يلى إلى أبى دلامة وأشعب وأبى العبر ، دون أن نطيل القول عملا بحب العرب للاختصار ، كلما وجب الاختصار .

وزعموا أن الحجاج خطب فأطال ، فقام رجل من الحضور فقال : الصلاة ! ، فإن الوقت لا ينتظرك ، والله لا يعذرك . فأمر الحجاج بحبسه . فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون ، وسألوه أن يُخلي سبيله . فقال الحجاج لهم ، إن أقرّ بالجنون خلَّيته . فقال الرجل لأهله : معاذ الله . لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني . وبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه .

أبو دلامة :

دخل الشاعر أبو دلامة ذات يوم على المهدى فى مجلسه وعنده جماعة من بنى هاشم ، فبادره الخليفة بقوله :

إن لم تهج أحداً ممن فى هذا المجلس يا دلامة ، لأقطعن لسانك .

فجال أبو دلامة ببصره فى القوم ، وحار فى أمره ، فصار كلما نظر إلى واحد غمزه وأفهمه أن عليه رضاه . . فما كان إلا ليزيد فى حيرته ، حتى رأى أن أسلم ما يفعله هو أن يهجو نفسه فقال فى ذلك :

ألا بلــغ لــديك أبا دلامهْ ... فلست من الكرام ولا الكَرامهْ

جمعت دمامةً وجمعت بؤساً ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامهْ

إذا لبس العمامة قلت قرداً ... وخنزيراً إذا نزع العمامهْ

* * *

وعندما هبط المهدى العراق ، كان أبو دلامة بين من امتدحوه من الشعراء . فقد قال :

إني نذرت لئن رأَيتك قادماً ... أرضِ العراق وأَنت ذو وفر

لتُصلِّين على النبي محمــد ... ولتمــلأن دراهماً حجــرى

فقال المهدى : صلى الله عليه وسلم

فقال أبو دلامة :

ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية . . فأمر له ببدرة صُبت فى حجره .

كان أبو دلامة يكره علىّ بن سليمان . واتفق أن خرج المهدى فى رحلة إلى الصيد وكان أبو دلامة وابن سليمان يرافقانه . وقد اصطاد المهدى ظبياً واصطاد علىّ كلباً من كلاب الصيد التى كانت تصاحبهم .

وكانت فرصة مواتية سرعان ما انتهزها أبو دلامة ليقول :

قد رمى المهدىّ ظبياً   شك بالسهم فؤاده

وعلى بن سليمان   رمى كلباً فصابه

فهنيئاً لهما كلّ   فتى يأكل زاده

ولد لأبى دلامة ابنة ليلا ، فأوقد السراج وجعل يخيط رقعة على هيئة وعاء من جلد رقيق ؛ فلما أصبح طواها بين أصابعه واستأذن فى الدخول على المهدى فأذنوا له فأنشده شعراً يمتدح فيه آل عباس وأقعدهم فوق شعاع الشمس .

فاستحسن المهدى ما أنشد ثم سأله :

ما الذى غدا بك إلينا ؟ قال : ولدت لى جارية يا أمير المؤمنين .

فسأله إن كان قال فيها شعراً ؟ فأجاب منشداً ؟

فما ولدتك مريم أم عيسى   ولم يكفلك لقمان الحكيم

ولكن قد تضمك أم سوء   إلى أولادها وأبّ لئيم

فسأله المهدى وهو يضحك مما قال : بماذا أعينك على تربيتها ؟

فقال أبو دلامة : أن تأمر بملء هذه الرقعة مالا . فاستصغر المهدى الرقعة فقال أبو دلامة : إن من لا يقنع بالقليل لا يقنع بالكثير ، ثم فرد الرقعة المطوية وإذا بها تملأ صحن الدار فضحك المهدى وأمر بأن تملأ مالا كما وعد . .

* * *

أشعب :

كان – كما قال مؤرخوه – أحلى الناس مفاكهة . وكان أهل المدينة يقولون : تغير كل شىء على وجه البسيطة إلا مِلَح أشعب .

قيل لأشعب : كم كان أصحاب النبى عليه السلام يوم بدر

قال : ثلثمائة وثلاثة عشر رطلاً . .

فقد أحصاهم بما كانوا يحملون من مؤونة الجيش . للأكل . .

وسألته إحدى صديقاته أن يشترى لها خاتماً لتذكره به .

فقال لها : اذكرى أنك سألتنى خاتماً فمنعتك . .

كان يساوم بائع سهام على سهم اختاره فقال البائع : أبيعه بدينار .

فقال أشعب : والله لو كنت إذا رميت به طائراً وقع مشوياً بين رغيفين ما اشتريته بدينار . .

قيل لأشعب : لو أنك حفظت الحديث حفظك النوادر لكان أولى بك . فقال ، لقد فعلت .

فسألوه : فماذا حفظت من الحديث ؟

قال : حدثنى نافع عن ابن عمر ، وفى رواية أخرى عكرمة عن ابن

عباس عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه قال : من كان فيه خصلتان كُتِبَ عند الله خالصاً مخلصاً .

قالوا : إن هذا حديث حسن . فما هما الخصلتان ؟

قال : نسى نافع واحدة ، ونسيت أنا الأخرى . .

سئل أشعب ، إن كان رأى من هو أطمع منه فأجاب :

أجل . كلبة قوم شاهدتها تتبع شخصاً يمضغ علكاً وابتعدت ما يزيد من الفرسخ فى أمل أن يرمى لها بشىء مما يأكل . .

أهدى رجل من بنى لؤى إلى إسماعيل الأعرج فالوذجاً (بالوظة) وكان أشعب عنده ، فدعاه إلى الأكل منها ففعل . فسأله إسماعيل كَيف وجدها ، فقال :

امرأتى طالق، إن لم تكن قد عُملت قبل أن يوحى ربك إلى النحل (لخلوّها من السُّكَّر) .

كان أشعب يختلف إلى جارية فى المدينة ويظهر لها العشق . إلى أن سألته يوماً سلفة نصف درهم فانقطع عنها . . وكان إذا لقيها فى الطريق سلك طريقاً آخر . فصنعت له نشوقاً وأقبلت عليه، فسألها : ما هذا؟ قالت : نشوق عملته لك لعله يذهب عنك هذا الفزع الذى ألَمَّ بك فقال أشربيه . إنه للطمع ، فلو انقطع طمعك انقطع فزعى وأنشد :

اخلفى ما شئت وعدى ... وامنحينى كل صدِّ

قد سلا بعدك قلبى ... فاعشقى من شئت بعدى

إننى آليت لا أعشق ... من يعشق نقدى

* * *

أبو العِبَر :

كان أبو العِبرَ ظريفاً ، بارع الحيلة ، مولعاً بقلب المعانى والألفاظ شعراً ونثراً . وقد كتب ذات يوم إلى أحد أصدقائه :

أما بعد ، فأحكم بنيانك على الرمل ، واحبس المـاء فى الهواء ، حتى يغرق الناس من العطش ، فإنك إن فعلت ذلك أمرت لك كل يوم بسبعة آلاف درهم ، بعد خصم سبعة دوانيق من كل درهم (أى أنه لا ينال من ذلك دانقاً واحداً) . . .

وكان أبو العبر هذا يتردد وهو حدث مع أترابه على رجل يعلمهم الهزل ، فيقول لهم : إن أول ما تريدون ، قلب الأشياء . فكانوا يسألونه إذا أصبح : كيف أمسيت ؟ وإذا أمسى كيف أصبحت ؟ وكان إذا دعاهم إليه بقوله : تعالوا ، تأخروا إلى خلف . .

وكان لهذا الرجلِ أرزاق تتطلب كتابات لها فى كل سنة . فكتب مرة كتاباً وأبو العبر معه . فلما فرغ منه ، ووقعه ولم يبق غير الختم ، قال لأبى العبر ، اجعل عليه التراب ليجف ، وناوله إ ياه . فمضى هذا فصبَّ عليه الماء فأتلفه . فغضب الرجل وسأله : لماذا فعل ما فعل ؟ فأجاب أبو العبر

ما نحن فيه طول النهار من قلب الأشياء . .

فكان رد الأستاذ المعلم المسكين :

والله لا تصحبنيِّ بعد اليوم فقد أصبحت أستاذ الأساتيذ

* * *

نوادر لظرفاء العرب عن البخلاء :

قال الرسول الكريم : (إياكم والشُّح ، فإن الشُّح أهلك من كان قبلكم . والبخل جامع لمساوئ القلوب ، وهو زمام يُقاد به إلى كل سوء) .

وقيل : بخلاء العرب أربعة هم : الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان .

فأما الحطيئة ، فقد مر به رجل وهو على باب داره ، وبيده عصا ، فقال الرجل : أنا ضيف .

فأشار الحطيئة إلى العصا قائلا : لِكعاب الضيفان أعددتها . .

وأما حميد الأرقط فكان هجاء للضيفان كثير الفحش عليهم . نزل به مرة ضيوف فأطعمهم تمراً وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه . .

وأما أبو الأسود الدؤلى ، فتصدّق على سائل بتمرة ، فقال له : جعل الله نصيبك من الجنة مثلها . . فقال أبو الأسود لو أطعنا المساكين فى أموالنا ، كنا أسوأ حالاً منهم .

وأما خالد بن صفوان فقد أجاب على من سأله : لم لا تنفق ومالك عريض . فأجاب : لأن الدهر أعرض . . . .

* * *

استأذن حنظلة على صديق له بخيل ، فقيل إنه محموم ، فقال : كُلوا بين يديه من طعامه ، حتى يعرق . .

قال الهيثم بن عدى : نزل على أبى حفصة الشاعر ، رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ، ثم هرب مخافة أن يلزمه إطعامه فى تلك الليلة .

فخرج الضيف ، واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه :

يأيهـــا الخارج من بيتـــه وهارباً من شـــدة الخـــوف
ضيفك قد جاء بزاد لـــه فارجع وكُن ضيفاً على الضيف

غلب الجوع على امرئ ذات يوم فمضى إلى دار أحدهم ليتغدى عنده . فلما وصـل إلى باب الدار ، أبصر غلامه ، فسأله عن سيده ، فقال الغلام : والله لن أدلك عليه إلا إذا أعطيتنى كسرة خبز . . فولىَّ الرجل هارباً من فوره . .

رُوى عن بخيل أن ضيفاً استأذن عليه ، وكان بين يديه خبز ، وإناء فيه عسل . فسارع إلى رفع الخبز ، وبينما هو يرفع العسل دخل الضيف ، فظن البخيل وقد أخذ على غرة ، أن الضيف لن يأكل العسل بلا خبز . فسأله إن كان يأكل العسل بلا خبز فأجابه بالإيجاب ، وراح يلعق العسل لعقاً . فذعر البخيل وصاح ، مهلاً يا أخى ، والله إنه ليحرق القلب . فقال الضيف :

نعم . صدقت . ولكنه يحرق قلبك أنت . .

قال بخيل لخادمه : هات الطعام وأغلق الباب فقال العبد الرقيق : هذا خطأ يا مولاى . . فإنما يقال : أغلق الباب وهات الطعام .

فسُر منه سيده وقال :

أنت حر لوجه الله ، لوفرة معرفتك . . .

* * *

نوادر ظرفاء العرب عن المغفلين :

اختصمت بنو طفاوة وبنو راسب فى رجل ، ادعى كل فريق أنه منهم . فقال هنبقة (وقد تكون (هنبكة) المسموعة هذه الأيام ، مشتقة من اسمه) . . قال ، نلقى به فى الماء ، فإن طفا فهو من طفاوة ، وإن رسب فهو من راسب . . فقال الرجل : إن كان ذلك حكمكم فلست من الطائفتين . .

ومن لطائف المنقول عن المغفلين ، أن أعرابياً صلى خلف الإمام فى الصف الأول ، وكان اسم الأعرابى مجرماً . فقرأ الإمام : « والمرسلات عُرفاً » فلما بلغ إلى قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين » تأخر الأعرابى إلى الصف الأخير . ثم قال الإمام « ثم نتبعهم الآخرين » فرجع إلى الصف الأوسط ، ووصل الإمام إلى قوله : « كذلك نفعل بالمجرمين » . فولىَّ صاحبنا هارباً وهو يردد . والله ما المطلوب غيرى ! . .

سأل حمزة بن بيغى يوما غلامه وكان أحمق : أى يوم صلينا الجمعة بالرصافة . ففكر الغلام طويلا ثم أجاب : كان فى الأغلب يوم الثلاثاء ! .

خرج جماعة من بنى غفار فى البحر ومعهم رجل مغفل . ففاجأتهم عاصفة هوجـاء يئسوا معها من الحياة ، فأعتق كل واحد منهم مملوكاً أو مملوكة . أما ذلك المغفل فقال : اللهم أنت تعلم أنه ليس لى مملوك ولا مملوكة ، ولكن امرأتى طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم . .

ضرب واحد من شريكين فى عمل ، عبداً لهما . فلما أنكر عليه شريكه ضربه للعبد ولامه فى ذلك ، كان رده :

كنت أضرب فى حصتى . .

روى الجاحظ قال : مررت بمعلم كُتاب من الحمقى وهو يقرئ صبياً : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً . . » فقلت له : ويحك قد أدخلت سورة فى سورة ! . فقال إذا كان أبوه يدخل شهراً فى شهر (يُغالط) فأنا أيضاً أدخل سورة فى سورة . ومادمت لا آخذ شيئاً ، فلن يتعلم ابنه شيئاً ! . .

قال حيَّان بن غضبان العجلى ، وقد ورث نصف دار أبيه : أريد أن أبيع نصف حصتى من الدار ، وأشترى الباقى ، فتصير الدار كلها لى . .

ومن ظريف ما يروى عن الحمقى والمغفلين ، أن أحدهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة ، وكان قد نما خبر بأن المهدى قد مات ، وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك . فقال الرجل رافعاً صوته بين الحضور : « مات الخليفة أيها الثقلان . . » فقالوا هذا أشعر الناس ، فإنه نعى الخليفة إلى الإنس والجن فى نصف بيت (سورة الرحمن : سنفرغ لكم أيها الثقلان)

ومدّ القوم أبصارهم وأسماعهم إليه فقال :

« فكأننى أفطرت فى رمضان »

فضحك الناس واشتهر بينهم بالحمق . .

وصلى أعرابى خلف إمام صلاة الصبح ، فقرأ الإمام سورة البقرة . وكان الأعرابى مستعجلا ففاته مقصوده . فلما كان من الغد بكر إلى المسجد فأخذ الإمام يقرأ سورة الفيل .

فقطع الأعرابى الصلاة وولىَّ هارباً ، وهو يقول :

« بالأمس قرأت سورة البقرة فلم تفرغ منها إلى نصف نهار . واليوم تقرأ سورة الفيل ، فما أظنك تفرغ منها إلى الليل » . .

سمع أحد الحمقى أن صوم يوم عرفة يعدل صيام سنة ، فصام إلى الظهر وقال : يكفينى ستة أشهر . .

* * *

قال رجل لحكيم : ما بال الرجل الثقيل أثقل على الطبع من الحمل الثقيل . فأجاب الحكيم : لأن الحمل الثقيل تشارك الروح الجسد فى حمله ، والرجل الثقيل تنفرد الروح بحمله

دعت فتاة حبيبها أبا الحارث وتحدثت إليه ساعة من الزمن ، فأحسّ بالجوع فطلب طعاماً . فعجبت لطلبه قائلة : أليس فى وجهى ما يُلهيك عن الأكل ؟ فأجابها : جعلت فداءك ، لو أن جميلا وبثينة لبثا معاً زمناً لا يتناولان فيه طعاماً لأنشب كل منهما أظافره فى وجه صاحبه . .

بنى بعض أكابر البصرة داراً ، وكان فى جواره بيت لعجوز لا يساوى أكثر من عشرين ديناراً . وكان محتاجاً إليه فى توسيع الدار . فبذل لها فيه مائتى دينار فلم تبعه . فقيل لها إن القاضى سوف يحجر عليك بسفهك ، حيث ضيعت مائتى دينار ، لما يساوى عشرين ديناراً .

قالت : لم لا يحجر على من يشترى بمائتين ما يساوى عشرين ديناراً ؟

فأفحمت القاضى ومن معه ، وتركوا البيت لها حتى ماتت .

حمل إلى المأمون رجل ادّعى النبوة ، فقال له :

ألك علامة على تنبؤك ؟

قال : إنى أعلم ما فى نفسك .

فقال له المأمون : وماذا فى نفسى ؟

فقال فى نفسك أنى كاذب .

فأمر المأمون بسجنه بعد أن قال له إنه صدق فى قوله . وأقام بضعة أيام فى السجن ، أخرج بعدها وجاءوا به إلى الخليفة الذى سأله :

هل أوحى إليك بشيء وأنت مسجون ؟

– لا

– ولم لا ؟

– لأن الملائكة لا تدخل السجون . . فعفا عنه الخليفة . . .

قيل لأحد البدو من الأعراب ، بعد أن قدَّموا إليه مَرَقاً : ما اسم المرق عندكم ؟ قال : السَّخين . فقيل له ، فإذا برد . فأجاب : وكيف ندعه يبرد ؟ .

قُدِّم لأعرابى باذنجان وكان يكرهه ، فلم يرقه طعمه ، واضطر لأكله مرغماً . ولما قامت الصلاة سمع الإمام يقرأ ، « حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » فقال الأعرابى ، والباذنجان . . .لا تنسه أصلح الله شأنك . . وقالوا له إنه يحلو إذا كان محشُوا لحماً وأرزاً فقال سيبقى كما هو ، حتى لو حشوه توبة ومغفرة . .

روى الجاحظ أن سائلا وقف بقوم وقال لهم إنه جائع ، فكذبوه ، فقال لهم :

– جربونى فى رطلين من اللحم مع رطلين من الخبز . .

اشتهر لص باسم (البازى الأشهب) على عهد المعتمد بن عبَّاد ملك إشبيلية . وكانت له فى السرقة كل غريبة . وكان مسلطاً على أهل

البادية ، وبلغ من براعته أنه سرق وهو مصلوب ، ذلك أن ابن عبّاد أمر بصلبه على ممر أهل البادية لينظروا إليه . فبينما هو على خشبته على تلك الحال ، إذ جاءت إليه زوجته وبناته وجعلن يبكين حوله ويقلن : « لمن تتركنا نضيع بعدك » .

وإذا ببدوى على بغل ، وتحته حمل ثياب وأسباب ، فصاح عليه : يا سيدى ، أنظر فى أى حالة أنا . ولى عندك حاجة فيها فائدة لى ولك » .

فسأله الرجل : وما هى ؟

قال : أنظر إلى تلك البئر ، لما أرهقتنى الشرطة ، رميت فيها مائة دينار ، فعسى تحتال فى إخراجها . . وهذه زوجتى وبناتى يمسكن بغلك فى أثناء ما تخرجها » .

فعمد البدوى إلى حبل ، ودلّى نفسه فى البئر ، بعد ما اتفق على أن يأخذ النصف منها ، فلما وصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل ، وبقى البدوى حائراً يصيح ، وأخذت الزوجة البغل وفرت مع بناتها . ولما سبَّب الله له شخصاً أنقذه : سأله عن حاله ، قال : « هذا هو الفاعل ، احتال علىَّ حتى مضت زوجته بأثوابى وأسبابى »

ورفعت القصة للمعتمد فأحضر البازى الأشهب وسأله : كيف فعلت هذا وأنت فى قبضة التهلكة .

فقال له ، يا سيدى لو علمت قدر لذتى فى السرقة ، خلَّيت ملكك واشتغلت بها . ومازال به حتى أصلحه وضمه إلى حرسه .

مما مر بنا من نوادر ظرفاء العرب ، فى عيوبٍ ألمت بمن حولهم ، فسلَّطوا عليهم أنماطاً من القول المنثور ، أو الشعر المنظوم ، تلمس مبلغ ما

توفرَّ للعرب من قدرة على جس موضع الداء ، وتحليل مأتاه والتندر بما وعاه ، فى اقتدار تقصر عنه الكاميرا والكاريكاتير .

أما الكاميرا فلأنهم يرسمون صورة واضحة مطابقة لأصل صاحبها ويرسمون معها ما حولها ، فى حين تعجز الكاميرا الحقيقية عن رسم هو أكبر من الشخص .

وأما الكاريكاتير فلأنهم أتقنوا إتقاناً فطريًّا فن المبالغة ، الذى هو قوام الكاريكاتير ، كما أتقنوا فن المفارقة ، الذى هو قوام الضحك ، فجمعوا بذلك عناصر فن المفاكهة التي تطير من خفتها بجناحين من مفارقة ومبالغة ، لتشيع الفرحة فى قلب من يستمع إلى رفيف هذه الأجنحة الطائرة ، المحلِّقة فى جو المجون .

ولعل من يتمعن فى هذه النوادر جميعاً ، سوف يعثر على سلك رفيع يتخللها كلها ، ما كان منها رواية واقع ، أو رواية خيال ، وسوف يشهد من خلال تحليله أو تعليله ، بدائع من سرعة الخاطر ، وروائع من ذكى البداهة ، التي تنقذ صاحبها إن حل به ضيق أو وقع فى حيرة .



الفصل العاشر

أعلام الفكاهة فى مصر

كانت مصر ولم تزل ، منبع النكتة ومَقيل الفكاهة . ومثلما يجرى النيل ويشق أرض الوادى ، ويفيض على جانبيه بالخير والبركات ، كذلك كانت النكتة المصرية ولم تزل ، ثرية ذكية ، تروى البعيد والقريب ، وتتناقلها بلدان عربية قريبة وبعيدة .

كنت أصطاف فى العشرينات (١٩٢٧) فى لبنان وسوريا . وكان المصريون الذين يصطافون فى هذين القطرين الشقيقين ، يعدون على الأصابع ، ومن القلة إلى حد أن الصحف فى مصر كانت تكتب فى أظهر مكان منها عن سفرهم وعودتهم وعن تنقلاتهم فى البلدين ، كما تكتب الصحف اليوم عن الأقمار الصناعية واتجاهاتها والتحامات سفن الفضاء ، إلى آخر هذا الفتح العجيب .

وكنت ألاحظ أينما حللت فى الفندق أو المقهى أو المتاجر ، أنهم يردِّدون على مسمعى جملة ، (إحكى يا مصرى) . ولما استعلمت عن ذلك قيل لى (ولم تكن السينما المصرية قد ولدت ، وإلا لا نقطع عيشى . .) قيل لى إن أهل سوريا ولبنان يتعشقون اللهجة القاهرية ، ويستمتعون بها كما لو كانوا يستمتعون إلى سيمفونية .

ولقد قال مؤرخ قديم ، لعله هيرودوت ، (إن من يهبط مجرى النيل فقد هبط مجرى التاريخ) . فقد كان المصريون يعتقدون أنهم بداية الوجود وأنهم نهايته ، فاحتالوا على أن يخلدوا أرواحهم ويحتفظوا بأجسادهم محنطة إلى حين رحلة العودة على متن مراكب الشمس . فإذا كانت قد قامت على هذه الدنيا فكاهة فهم أول من قالوها وأول من ابتدعوها فى العالم .

وكان سنوحى الكاتب المصرى القديم الذى هرب من مصر خوفاً من فرعون جديد ، لم يكن سنوحى من المقربين إليه ، مثلما كان مع من سبقه ، كان سنوحى هذا عندما عاد إلى مصر مطمئناً إلى الفرعون الجديد الذى منحه الأمان ، كان يكتب فى مذكراته كل طريف وقعت عليه عيناه وهو بعيد عن مصر ، ويعلق على ما يري بأرشق أسلوب وأظرف عبارة .

وما تزال الصور الكاريكاتيرية التى رسمها القدماء من المصريين على الجدران شاهدة على هذه الروح المرحة بين المصريين منذ القدم .

وكانت للفكاهة فى مصر منذ عهد المماليك والأتراك والخديويين ، قدم راسخة وباع طويل .

وكانت تقام منذ أكثر من مائة عام ، ندوات كثيرة فى المنادر (التى تمثل صالونات العصر الحديث) وفى قصور آل البكرى وآل راتب وآل عبد الرازق وآل المويلحى ودار إسماعيل صبرى باشا وفى مقاهى اشتهرت بمن كان يؤمها (مثل قهوة متاتيا وقهوة البورصة وقهوة المعلم ومقاهى باب الخلق وسيدنا الحسين) من شعراء وأدباء وكتاب وصحفيين وسياسيين ، كانت بمثابة حلقات للدرس والمعرفة ،

حيث كان الحديث فيها يحفل بالنادرة الجميلة وبالفائدة الجليلة .

وربما كان للكبت فى عهود الاستعمار والاستبداد ، فضل كبير كفضل الكحل على العين فى براعة المصريين فى إخراج النكتة وإطلاقها فى حجم مناسب ووقت مناسب وإصابة لا تخيب .

ومنذ قديم كان أصحاب النكتة فى مصر يتشعبون إلى فريقين : فريق من المحترفين طلاب القوت والرزق مثل أحمد الفار وكامل الأصلى ومحررى الصحف الفكاهية كالسيف والمسامير والصاعقة والشباب ، وحديثاً مثل حسين الفار وسلطان وغيرهم ، وفريق من الهواة من مشاهير الأدباء والشعراء والوجهاء أمثال الشيخ على الليثى ، ومحمد الدرويش ، والشيخ عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم ونعمان الأعسر باشا والدكتور بكير ومحمود رشاد باشا والدكتور محمد رأفت وحسن بك رضا المحامى ومحمد بك المويلحى ومحمد بك البابلى وحفنى ناصف وعثمان جلال ، وعبد الله النديم وإمام العبد ، والمستشار سليم زكى بك .

وكان شوقى وإسماعيل صبرى ينظمان فكاهاتهما شعراً .

ثم ظهرت طبقة أحمد رامى وإبراهيم ناجى وأم كلثوم وحسين الترزى ومحمد دبشة .

ثم ظهر فى عصرنا الحالى رعيلٌ ضخم أذكرهم بلا ترتيب أو تقديم منهم أحمد بهجت وأحمد رجب ومحمد عفيفى وفكرى أباظة وعباس الأسوانى وزكريا الحجاوى ومأمون الشناوى ومن هؤلاء من يرتجل النكتة ومنهم من اختار الكتابة الفكاهية ذات الصور القلمية البارعة النابضة بالحركة والحياة ، طريقاً له .

ومن شعراء الفكاهة امتاز بيرم التونسى (موليير مصر) وحسين شفيق المصرى (صاحب المشعلقات فى شعره الحلمنتيشى) ورمزى نظيم وسعيد عبده وحسين الطنطاوى وإمام الصفطاوى .

وهؤلاء الشعراء تأثروا بمن سبقهم أمثال الشاعر الكاتب الصحفى الساخر يعقوب صنوع صاحب مجلة (أبو نضارة) وغيرها ، وأمثال إمام العبد وعبد الله النديم .

وعندما نفت السلطات فى مصر على عهد الخديو إسماعيل ، يعقوب صنوع ، لجأ إلى فرنسا وأصدر مجلة (أبو نضارة) من باريس .

ومن أبرع وأخف ما نشره فيها من الصور الكاريكاتيرية ، صورة للخديو إسماعيل وهو فى زى بائع صحف ويبيع صحيفة الأهرام ، كناية عن أنه لم يبق فى مصر ما يبيعه إسماعيل سوى الأهرامات .

وعلى يد حسين شفيق المصرى شاع الشعر الحلمنتيشى الذى كان من فرسانه عبد السلام شهاب وحسين الطنطاوى والصحفى الأديب اللماح عبد الله أحمد عبد الله الذى كان آخر من حرر مجلة البعكوكة قبل اعتكافها . . أو احتضارها . .

وظهرت من الصحف والمجلات الفكاهية فى مصر بعد صنوع وإمام العبد وعبد الله النديم ، الكشكول لسليمان فوزى وخيال الظل لأحمد حافظ عوض والسيف والمسامير والصاعقة . وغيرها كثير .

ورُب سائل يسأل : ما الذى يمنع الفكاهة المتناثرة فى مختلف الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية فى عصرنا الحاضر من أن تتجمع فى مجلة فكاهية راقية ، تقدم صورة حديثة للفكاهة فى ثوب عصرنا

الحاضر . ولعل هذا الذى يتمناه السائل ، يتحقق فى عهد خلت فيه موانع الحديث فيا يشاؤه الكتاب ، طالما لم يكن فى ما يكتبون مجافاة للقانون .

وإن كان تحقيق ذلك يبدو مستحيلا بعد أن تغيرت الصورة ، وأصبحت للصحيفة أو للمجلة قراء يقرءونها ويتابعون فيها كاتباً بالذات له مُرَبَّع منيف لطيف ، أو صورة كاريكاتورية ، من غيرها لا يعتدل المزاج .

ولعله أن يكون كذلك من المستحيل تحقيقه ، الإحاطة الوافية بأكثر أنباء ظرفاء مصر . وحتى لو استحال ماء البحر مداداً ، وجبال الأرض حبراً جافًّا ، وأوراق أشجار العالم ملازم وأغلفة ، لما أمكن تحقيق أنملة من هذه المحاولة .

وفى استطاعتك أن تقول إن تعداد السكان فى مصر يبلغ أربعة وثلاثين مليوناً من الظرفاء وبضعة من الأهالى ، مثلما قال (جيته) عندما كان مستشاراً فى بلاط الأمير فردريك ، أحد أمراء المقاطعات الألمانية قبل الوحدة ، الذى كان محباً للشعر والشعراء حتى امتلأت العاصمة (ڤايمار) بهم . فقد سئل (جيته) عن عدد سكان العاصمة ، فأجاب (جيته) ، الغريب السائل ، إن تعداد (ڤايمار) يبلغ عشرين ألفاً من الشعراء وبضعة آلاف من الأهالى .

ولهذا فسوف أكتفى فيما يلى بذكر أنباء وفكاهات من أجمعت الأقلام على التنويه بظرفهم ، على أن أخصّ بالذكر منهم حسين التزى الذى لازمته عشرات السنين وهو — وأقولها بكل ثقة واطمئنان — فارس لا يبارى

فى عالم المجون ، وإمام الفكاهة فى مصر ، فى قديم كان ذلك أو فى حديث من الزمان .

* * *

حافظ إبراهيم :

من العجيب أن الصبي الذى هرب من بيت خاله ، تاركاً له هذين البيتين :

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراها واهيهْ
فافرح فإنى ذاهبٌ متوجهٌ فى داهيهْ

والكادح الشقى فى شتى دروب الحياة ، الذى أحاطته الشدة منذ مولده ، وطوّقه البؤس طفلا وصبياً ورجلا ، حتى قال عندما لم ينشقُّ أمامه باب من بين كل ما طرق من أبواب :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما
وعدت وما أعقبت إلا التندما

والذى انطوى على الطوى حتى هتف فى حياءٍ وأسى :

نحن نرضى بالقوت فى هذه الدنيا وإن بات دون قوت النَّعام

من العجيب أن قائل هذا الشعر الرصين الحزين ، هو نفسه ، زينة المجالس ، وبهجة المنتديات ، الذى يفيض على النفوس من أُنسه ويملأ المكان الذى يؤمه بالراغبين فى الإفادة من فيض أدبه ورائق سحره ومؤانسته ، الذى لا تراه إلا ضاحكاً مهما تجهَّم وجهه وبدا لك عبوساً صارماً .

هو شاعر النيل ، وبلبله الصَّداح وكروانه الذى يرسل شعره جاداًّ

سخيًّا نديًّا ، مُنذراً ومحذِّراً وداعيًا إلى أقوم السبل ، ومِمحِّضاً أصدق النُّصح لبني وطنه وللعرب أجمعين .

إنه حافظ إبراهيم الذى نُريك شخصيته الأخرى الباسمة الضاحكة التي يضحك لها حتى من يتناوله بالمفاكهة . ولا عجب فقد أسبغ الله على الممتازين من أهل الفنون نعمة التمتع بأكثر من شخصية .

كان وهو فى لبنان ، يلازمه شاعر القطرين ، خليل مطران . وزارهما فى الفندق الذى ينزلان به ، المطران قطّان . فتقدّم خليل مطران ولثم يد المطران ، ففعل حافظ مثله ، فتفضل المطران وخص حافظ بقبلة فوق جبينه ، الأمر الذى أحسَّ أن خليل مطران يحسده عليها ، فما كان من حافظ إلا أن أمسك بكلتا يديه رأس خليل مطران وقبّله وقال له : مطران باس حافظ ، حافظ باس مطران ، نبقى خالصين . .

قال أحد وجهاء لبنان لحافظ : ما السر فى أن خليل مطران ، يحبه كل الناس .

فأجابه حافظ على الفور : لأنه كالمعصية . . . !

لاحظ خليل مطران على حافظ أنه كان خلال ترجمته لرواية البؤساء ، تمسكه ببدلة قديمة لم يكن ليبدِّلها بغيرها . ولما سأله عن السر فى ذلك أجاب :

لأن فيها صفتين من صفات الله : الوحدانية والقِدَم .

روى حافظ أنه كان يصحب صديقاً ضعف بصره واحتاج لرفقة حافظ إلى وزارة الأوقاف التى كانت تجرى عليه راتباً لسبق عمله بها ، ولما أصاب بصره من علة تستوجب العطاء .

وعند مغادرتهما الوزارة ، تقدم أحد المتسولين وهو يقول لصديقه :
إديني شيء لله ربنا ينوَّر لك عينك .
فما كان من حافظ إلا أن صاح فى الرجل :
إنت عايزهم يقطعوا عيشه . . . !
التقى به مرة وهو فى طريقه إلى مقهاه سائل ملحاح كان يطارده وهو يقول له : قرش صدقة يا بيه
فأجابه حافظ : عمرك أطول من عمرى . . .
ذهب حافظ وخليل مطران إلى حديقة الحيوان بالجيزة .
وعند دخولهما أشار حافظ إلى خليل وهو يقول للحارس :
خلِّى بالك أحسن وأنا خارج به تفتكرنى لطشت حاجة من الجنينة . .
وقف حافظ يوماً يلقى قصيدته فى رثاء عبد الخالق ثروت باشا وكان الجمع حاشداً والشعراء يتتابعون . وكان من بينهم المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب شاعر البادية . وكان من عادة الشيخ أن يحضر إلى الأماكن التى يرتادها راكباً حماراً . ثم يتركه أمام الباب فى رعاية البوَّاب أو الحارس .
وعندما وصل حافظ فى إلقائه الأخَّاذ ، إلى أحد المقاطع المؤثرة ، سأله الحاضرون الإعادة، وصادف أن ارتفع نهيق حمار الشيخ فى الخارج ، فقال لهم حافظ :
دقيقة من فضلكم حتى ينتهى حمار الزميل من إنشاده . . . فانقلب المأتم إلى ضحك متصل . . .
كان حافظ يسير مسرعاً فى طريقه إلى دار الكتب عندما كان مديراً لها . وكان يسرع خطاه ، وإذا بأحد المارة يستوقفه ليسأله قائلا :

والنبي يا عم ، الشارع ده رايح على فين !

فأجابه حافظ : يا أخي لا رايح حتّه ولا جاي من حتّه أهو طول عمره هنا . . . .

قصد حافظ مرّة إلى قصر عابدين لمقابلة الخديو عباس لأمرٍ هام . وتأخر عنده ، وعند خروجه دعاه الخديو عباس (وكان شحيحاً) للبقاء ليتغدّى مع المعيّة في المكان المخصص لهم .

واستقبل حافظ الدعوة بابتهاج . ولكنه فوجئ بطعام عادى نمطى روتيني . . وبعد الغداء عاد إلى الخديو كما طلب منه لاستكمال الحديث ، فسأله الخديو : لعلك انبسطت يا حافظ بك فقال حافظ على الفور : الحقيقة يا فندينا كأني كنت باتغدّى في بيتنا . . . .

إمام العبد :

ولعل إمام العبد يمثل في خفته وظرفه وسرعة خاطره ورقيق شعره ، شعراء الدولة العباسية ، لولا ما كانوا فيه من عزٍ وما كان هو فيه من عوز ، كان يحيله أنساً وسُحراً .

سأل خليل مطران الشاعر إمام العبد - (وكان أسمر سماراً داكناً)

- ما الذى يمنعك من الزواج !

فأجاب العبد :

وأما الملاح فيأبينني   وأما القِبَاح فآبى أنا

ثم أجاب على سائل آخر في الموضوع نفسه بقوله :

أنا ليلٌ وكل حسناء شمس   فاجتماعي بها من المستحيل

عاد ، خليل نظير الشاعر ، صديقه إمام العبد وهو يحتضر ، فى غرفة تضيق حتى كأنها ثوبه ويتبارى فيها الليل والنهار فى الظلام ، واستأذنه فى أن يستدعى طبيباً لإسعافه وعلاجه ، فقال إمام :

أجر الطبيب عشرون قرشاً . لو كانت معي لكنت اشتريت ربع كونياك مارتيل وصندوق بسكوت مارى وأموت من السُّكر . . .

سمع إمام العبد أن داود بركات وخليل مطران وأنطون الجميل وسليم سركيس يتأهبون جميعاً للذهاب معاً إلى حفل زفاف نجل الشاعر اللغوى القاضى حفنى ناصف بك . فذهب إليهم وطلب منهم أن يصحبوه معهم فقال له واحد منهم ، أنت ترانا جميعاً نلبس الفراك الرسمية فكيف تحضر معنا ببدلتك العادية فقال لهم ، ليس هذا بمانع من الحضور ، فأنا إذا خلعت كل ملابسي وعقدت بابيون أبيض حول رقبتى ، أصبحت فى الزى المطلوب وفى نفس أناقتكم . . .

كان إمام العبد مدعوًّا إلى فرح فى شبرا ، وكان المطرب عبد الحى حلمى الكبير مغنى الحفل ، وعزَّ عليه أن يترك أى فترة تمر من الحفل دون الاستمتـــاع به ، وسرقه الوقت وخرج قرب الفجر ليجد المطر يهطل بغزارة . ولمح عربجيا يقبع داخل العربة المغطاة وقد أرسل صوته بالغناء وهو يمر به ، فقال إمام ياسلام . . يا عينى يا أسطى . . .إيه الطرب ده كلــــه . . ثم أردف قائلا : إلى أين أنت ذاهب ! فقال السائق : إلى السيدة زينب . فقال إمام ، ألَسْت فى حاجة إلى (سمِّيع) فأنا أيضاً ساكن فى السيدة ، فركب إلى جانب السائق ، فقال له إمام لا تظن أنى سأركب مجاناً ، فعند الوصول بمشيئة الله سأعطيك بدلة قديمة عندى

(وعندما يستغنى إمام ، على خصاصته ، عن بدلة قديمة ، فمعنى هذا أنها هى التى استغنت عنه) ووصلا أمام منزل إمام وصعد إلى الدور الثانى حيث يسكن ، وألقى بالبدلة إلى الأسطى ، فأخذها وراح يقلِّب فيها – وعلى عادة العربجية فى طلب المزيد – قال له ، دى شوية أوى . . . وإذا بإمام وكأنه كان متوقعاً ذلك ، يلقى له بالصديرى . .

عبد العزيز البشرى :

اجتمعت للشيخ عبد العزيز البشرى ميزة الفكاهة المكتوبة والفكاهة المنطوقة ، وتبرأ من النكتة المباشرة التى قال عنها مثلما قال المازنى ، إنها لا تدل على إعمال فكر أو ذكاء قلب ؛ أو عمق نظرة ، ولكنها تعتمد على سرعة الخاطر و (القفش والقافية) .

وللبشرى أسلوب جمع بين لغة الجاحظ الذى افتتن به ، وتأثر بتصويراته البارعة وتحقيقه الذكى ، وبين البليغ من لغة أهل زمنه وعصره ، وقد كان بينهم ، يتسنَّم الذروة .

وأنت إذا طلبت فكاهته المكتوبة وجدتها منبثة فى كتبه : (فى المرآة – المختار – قطوف) . وقد اخترنا بعضاً منها فى هذا الفصل .

أما فكاهته المنطوقة فهى موضوع ومهمة هذا الفصل من الكتاب

ولم يكن يستقر بالبشرى مكان . فهو سريع التنقل ، كثير التغيير والتبديل ، واسع الصدر ، يحادث من يعارضه بنفس سماحته فى الحديث مع من هم من رأيه .

وقد قال عنه الدكتور طه حسين فى مقدمة كتاب (قطوف)

« كان أقل الناس حبًّا للاستقرار ، وميلاً إلى الإمعان فى طريق واحد . فُطِر على حب التنقل المادى والمعنوى جميعاً » .

وقد أفاد من هذه النقلة التى تتيح له حسن الاستماع ، والإحاطة ، والتعليق على ما يرى وما يسمع بما فطر عليه من روح مازحة ساخرة ، وذوق سليم قويم ، ونظر عميق ثاقب .

وقد كان يخص بار (الأنجلـــو) حيث روى فيه أغلب فكاهاته – بالتردد عليه وإيثاره على غيره من المنتديات . فقد كان هذا المنتدى ، مرتاداً لكل الاتجاهات الفكرية ، كما لو كان مقرًّا للأمم المتحدة . وكنت ترى فيه هيكل الدستورى ، وحافظ عوض الوفدى وفكرى أباظة الوطنى ، وعلى إبراهيم المستقل ، يسمرون ويتناقشون فى كل الشئون ، على بساط ممدود ، من الود ورعاية الحدود .

وبرغم تربيته الأزهرية فقد كان محبًّا ، مع الاعتدال ، لكل ما هو عصرى ذى فائدة وجدوى .

أسرَّ إليه أحد جيرانه من حى السيدة زينب حيث كان يسكن فى فترة من حياته ، بأن أهل الحى أخذوا يتحدثون بأشياء لا يريدها أن تحدث . فسأله البشرى : وماذا والعياذ بالله قد حدث منى وأزعجهم . فقال الصديق : إن المحروسات ، بناتك الصِّغار يلبسن البرانيط فى ذهابهن للمدرسة الفرنسية . . .

فقال له البشرى على الفور : أُمَّال عايزينى ألبِّسهم عمم . . .

ومما كان يرويه فى التدليل على سرعة الخاطر ، أن حافظ إبراهيم كان مع أحمد حشمت باشا وزير المعارف فى حفل رسمى فى سباق

الخيل ، وكان حافظ إبراهم يحفظ لحشمت باشا جميله فى اختياره له ، لإدارة دار الكتب .

وكان حشمت باشا يسأل حافظ إبراهيم : أما كان الأولى أن يسمى الحصان الرابح الأول (المُصَلّى) والثانى (المجلّى) على عكس ما هو متبع ! فأجاب حافظ إبراهيم بذكاء لمّاح :

عمرك يا باشا ما كنت المصلى . . .(أى الثانى فى أى أمر) . . .

وذات مساء اضطرته حسرة فى البول أن ينتحى نحو زقاق غير مطروق والليل ستّار ، وأزال الحسرة ، وقبل أن يتقدم خطوة ، وجد أمامه أحد جنود البوليس يطلب منه الذهاب إلى القسم ، فقال له إنه قاضى شرعى ولا داعى لكل هذه الشكليات . وما دامت الغرامة معروفة ، فتولّ عنى توريدها ، ولا داعى لاسم المخالف ، واكتب أمام اسمى ، فاعل خير . .

وكان الشيخ البشرى يروى فكاهات من سبقوه ويخص بالذكر فكاهات حافظ إبراهيم ، كما قدّمنا .

روى مرّة أن حافظ إبراهيم والدكتور محجوب ثابت كانا بين ضيوف الزعيم سعد زغلول فى مسجد وصيف وصباح أحد الأيام افتقد سعد الدكتور محجوب فبعث من أيقظه من نومه الساعة الحادية عشرة وذهب لمقابلة سعد . ولما سأله عن السبب فى إبطائه فى الاستيقاظ من النوم ، أجابه بأنه كان يحلم حلماً طويلا . وسأل محجوب سعد باشا إن كان يعرف شيئاً فى تفسير الأحلام أجابه سعد إنه لا يعرف وربما كان حافظ إبراهيم أدرى .

وأرسل فاستدعى حافظاً ، وقص محجوب ما رأى بقوله : حلمت

أنى ركبت ثوراً قوياًّ ، وأنى كنت أمسك بكلتا يدى قرنيه ، وأن الثور جمح بى جموحاً مزعجاً ، وكان يجرى ورائى نحو مائتى حمار .

واستمر الثور فى جموحه حتى استطعت أن أوقف ثورته وهنا أفقت من النوم .

وهنا قال حافظ إبراهيم :

إن الثور فى المنام يا دكتور يرمز إلى القوة . ولقد رشحت نفسك فى الانتخاب لمجلس النواب وقد انتصرت على حكم القوة ، وهذا يقابل تمكنك من إيقاف الثور .

فقال الدكتور محجوب :

عظيم . وما معنى المائتى حمار !

فقال حافظ : ما هم دول اللى انتخبوك يا دكتور ! . . .وكان البشرى معجباً كل الإعجاب بالشاعر إمام العبد الذى قال عنه إنه كان عفاًّ فى مزاحه ، لا يفحش ولا يقذع ، وكان سريعاً فى خلق الأحاديث الفكاهية من العدم .

وكان البشرى يروى عنه ، أنه لما ضاقت به الحال ذات يوم ، لجأ إلى صديق يرجوه أن يقرضه عشرين قرشاً ، إلا أن صديقه لم يجد معه سوى عشرة قروش . فتناولها إمام وهو يقول له : معلهش!يبقى لسَّه لى عندك عشرة قروش وأنت لك عندى عشرة قروش وعلى ذلك نبقى خالصين . .

ومن فكاهات البشرى مع أصدقائه أنه خلع جبته ذات يوم ، وكان مدعوًّا على الغذاء ، وذهب إلى مكان غسيل الأيدى ولما عاد وجد رسماً لحمار على الجبّة ، فتلفت حواليه ثم قال مستعلماً : مين اللى نشّف

وجهه فى الجبة . . .

وذات يوم رأيناه يسرع الخُطى ويهدر كأنه السيل الجارف وهو قادم نحونا ونحن جلوس فى بار (الأنجلو) . وقد سألنا إن كنا رأينا بائعاً (سرِّيحا) يبيع (ترامس) ، فلما أجبناه بالنفى تأفف ، فرحنا نسأله عن أصل الحكاية ، فقال وهو يضع على المائدة (الترموس) ، جسم الجريمة ، وأخذ يصف كيف أنه بالأمس كان وحده وإذا بالشقى اللص بائع (الترامس) يصف له قدرة هذا الترموس على حفظ برودة الماء فيه ، لمدة ثمان وأربعين ساعة .

وعندما عاد للمنزل ، أخذ يضع فى الترموس قطعاً من الثلج صغيرة حتى أصبح محتواه كله ثلجاً لا ماءاً .

وعندما أصبح الصباح منى نفسه بشرب كوب بارد من الترموس ، ولكنه وجده ، كما راح يقول :

ماءاً غاليًا وضعت بعضاً منه فى كنكة القهوة ولقَّمته بُنًّا وشربتها قهوة وشربت مقلب اللص . . .

* * *

ومن صور البشرى القلمية الرائعة فى بساطتها وفى عمقها وفى حلاوتها وفى ظرفها وهو يتحدث عن عبد الخالق ثروت باشا بقوله :

« لقد تحضر مجلسه فيقبل عليك يحدثك ، فلا يرتفع بك إلى نفسه ، وإنما يتدلّى بكل حدثة إلى نفسك ، فتراه يدارجك فى قولك ، ويكلمك من جنس كلامك ، ويباريك على قدر فهمك ، حتى تنصرف عنه وقد هيأ لك وهمك أنه مثلك . هذا إذا لطف الله بعقلك فلم يهيئ لك أنه دونك .

ولقد يخيّل إليك لطف ثروت وتبسطه فى حديثه معك أنك تستطيع أن تدسه فى جيبك ، إذ هو قد دسّك من أول المجلس تحت نابه ، فاحذره أَطلقَ ما يكون وجهاً ، وأَنعمَ ما يكون حديثاً » .

كان حافظ والبشرى يزوران حديقة الحيوان . وعند خروجهما قال له حافظ :

– حاسب أحسن حد يحوشك على الباب .

فأجاب البشرى : أما بالنسبة لك فلا خوف ولا حذر لأن منك فى الجنينة كثير وبناقص واحد .

وكان يعتز بفكاهات محمد البابلى ويروى منها وهو يضحك :

كان البابلى فى زيارة عزبة لصديق له فى ضواحى القاهرة وراح الصديق يصف للبابلى محتويات الحديقـــة حتى وصل إلى أشجـار (الكازورينا) وقال إنها تصد الرياح وتمنع دخول الحيوانات :

فسأله البابلى متوسلا :

ماعندكش شجر يمنع دخول أصحاب الديون . .

حفنى ناصف بك :

لم يكن بحكم وظيفته الرسمية فى القضاء أو فى التعليم أو المجامع اللغوية يتردد على النوادى والمقاهى برغم حبه لمرتاديها وميل نفسه إلى مجاراتهم فيما يأخذون فيه من الضحك والمجون وفى حديث الشتر والأدب .

ولحفنى ناصف نوادر ما تزال يحكيها الخلف عن السلف .

وكان حفنى بك يرأس جلسة فى إحدى المحاكم . وبعد قليل من

افتتاح الجلسة راود النوم عيون العضو اليمين ورآه حفنى بك وسكت . ثم لم يلبث بعد قليل أن سمع غطيطاً فالتفت إلى مصدره فوجده العضو الشمال قد أخذته سنة من النوم ، فوكزه وهو يغط فصحا مذعوراً فقال له حفنى بك :

إذا كان من حقك أن تنام ، فليس من حقك أن توقظ النائمين . .

ويروى عن حفنى بك أنه مرض مرضاً خطيراً فأمره طبيبه بالإقلاع عن أى عمل فكرى ولا سيما المطالعة . ثم عاد إليه بعد يومين فرآه يطالع فى كتاب (روح الاجتماع) الذى عرَّبه المرحوم فتحى زغلول ، فغضب الطبيب وقال لحفنى بك :

ألم أنهك عن المطالعة ؟

فابتسم حفنى ناصف برغم مرضه الخطير وغلبت عليه طبيعته المرحة الفكهة وقال للطبيب :

— يا أخى لا تغضب فقد كنت أطالع فى الروح .

ودعى مرَّة حفنى ناصف مع نفر من أصدقائه لزيارة حديقة برتقال لأحد أصدقائهم من الأعيان .

وعندما وزع البستانى البرتقال المعروف باسم (برتقال بدمه) وجد حفنى بك أن برتقالته من النوع العادى ولا أثر لأى حمرة بها ، فقال لصاحب البستان :

يظهر أن برتقالتى طلع عندها أنيميا حادة . . .

والعجيب أن أبناء حفنى بك قد ورثوا عنه خفة روحه وحلو مزاحه وسرعة خاطره ورقيق أدبه لفظاً ومعنى .

كان ابنه الأكبر قاضياً . وكان لفيف من أصدقائه يذهبون أمسيات كثيرة إلى دار نبيل سابق حيث يتبارون فى الشراب والضحك والمزاح والتنكيت والمرح الراقى .

وكانت لا تمر ليلة دون أن يذكر واحد من الأصدقاء نادرة لجلال بك ناصف القاضى .

وما كان من النبيل إلا أن قال لهم : إذا حضرتم المرة القادمة بدون جلال ، فسوف لا أستقبلكم .

وذهب الأصدقاء إلى جلال ناصف وطلبوا منه أن يصحبهم وأبلغوه أن النبيل لطيف وصاحب مجال ومرح . وكان جلال متهيبا قليلاً . ولكنه لم يجد ما يدعو لهيبة أو احترام عندما رأى ابتذال النبيل . وبعد قليل اقترب منه النبيل وقال له : إننى جلال ! ضحّكنى . . . !

وعلى الفور قال جلال : ده أنا اللى جاى أضحك عليك يا أفندينا ! .

وضحك النبيل ضحكاً لم يضحكه من قبل . وربما كان خلل القياس ووقع المفارقة من أسباب هذا الضحك ، حيث لم يكن ينتظر أن أحدًا يخاطبه بهذه اللهجة .

مختارات العقاد من حكايات جحا :

للعقاد روائع من نوادره الفكاهية ، منطوقة ومنظومة ، وقد أتينا على بعض منها .

وفيمايلى مختارات للعقاد من حكايات جحا :

سئل جحا : أيهما أفضل ، المسير خلف الجنازة أم أمامها ؟

فأجاب : لا تكن فى النعش وسر حيث تشاء . . ..

ولقيه بعض معارفه فى الطريق فقال له : إنى رأيت الساعة ، رسولاً يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر » .

قال جحا : « وماذا يعنيني أنا » ؟

قال صاحبه : إنهم يحملون الطعام إلى بيتك !

فقال : جحا : وماذا يُعنيك أنت ! . . .

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه فقال له : إنك محق فى شكواك أيها الصديق وجاءه الصديق الثانى فى اليوم التالى فعرَض عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه : « أنت محق أيها الصديق » .

وكانت امرأته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة :

« يا لك من منافق . خصمان مختلفان ، وكلاهما محق فى شكواه ؟

فقال لها جحا : ولماذا تغضبين ! أنت أيضا محقّة فيما تقولين ؟

سأله سائل : ما طالع نجمك ؟

قال : ولدت والشمس فى برج التيس .

فقال سائله : لا يوجد فى السماء برج التيس ولعلك تقصد الجدى

فأجاب جحا : أفمن مولدى إلى اليوم ، لا يصبح الجدى تيساً ؟ . . .

سكن جحا فى دار ، وراح يشكو إلى صاحبها أنه يسمع قرقعة سقفها .

قال صاحب الدار : (لاتخف ، إنه يسبح الله) .

فقال جحا : « وهذا ما أخشاه ، فقد تدركه رقة فيسجد علينا » .

وادّعى جحا الولاية فسأله السامعون عن كراماته فقال : أتريدون مني كرامة أكبر من علمي بما فى قلوبكم جميعاً ؟

قالوا : « وما فى قلوبنا » .

قال : « كلكم تقولون فى قلوبكم إننى كذّاب » .

وسألوه ذات يوم : « أيهما أنفع للناس ، الشمس أم القمر ؟ » فلم يتمهل وأجابهم بيقين :

« إنه القمر ولا مراء » .

فسألوه : « ولم ؟ » .

قال : « لأن الشمس تطلع فى النهار حين يستغنى الناس عنها . وأما القمر فلا يطلع إلا فى الظلام حين الحاجة إليه » .

سأله حاكم المدينة ، وقد أخذه معه إلى الحمام . وخلع ملابسه إلا مئزراً يديره على وسطه : « بكم تشترينى الآن لو عرضت عليك فى السوق يا جحا ؟ .

قال « بخمسين ديناراً » .

فقال الحاكم : « ويحك . إن ثمن هذا المئزر وحده خمسون ديناراً » .

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذى حسبته ! » .

سألوه عن معنى كلمة حيزبون . فتمهّل قليلا ثم قال :

هى الكلمة التى يكتبها الكاتب بدلا من كلمة أخرى خطرت على باله ، ولكنه نسى حروفها ، فهو يخشى إذ يستعملها أن يخطئ فى حروفها . . .

* * *

شاعر الشباب أحمد رامى :

شاعر الشباب كما يحب الناس أن يلقبوه ، و(لا مارتين) كما أحب أنا أن ألقِّبه ، هو إمام الغزليين والغنَّائين ، وفضله عليهم فضل الكحل على العين . وهو فى خفة الظل ، نغمة تطيب وتسعد النفوس .

وهو يمثل جيلا بأسره (بهناه وشقاه) على حد قوله .

شعره الفكاهى قليل وهو معروف بمناسباته عند المتأدبين . أما فكاهاته المنطوقة فهى كثيرة وقد عاصرت أكثر مناسباتها معه .

برغم رقة حاشيته وحرصه على ألا يؤلم أحدًا ، فقد اختلف معه شاب غرير فى دار الكتب وضايقه ، وأخرج رامى عن حده ، فتوسط الشاعر أحمد محفوظ من زملاء رامى فى الدار وراح يقول له ، ده شاب أحمق وغير متعلم وجاهل بل تقدر تقول إنه (أمى) فقال رامى على الفور : (أمى) دى شوّية عليه ، ده لازم (ستّى) . . . !

وذات مساء سهر مع أصدقاء له فى صدر الشباب فى فرح امتد سهرهم به حتى ساعة متأخرة . وكان معهم صديق من سلالة أسرة ثرية ، ولكنه كان متلافاً فأضاع كل ما ورث وبقى من أملاك العائلة بيت كبير فى الحلمية من بيوت الوقف ، فعرض على إخواته أن يناموا عنده فلا مواصلات الآن ، ولا قدرة لهم على السير الطويل . فوافقوه ودبَّر لهم أماكن للمبيت وكانوا خمسة . وكانوا يحسون البرد ، لأن صاحب الدار أو ساكنها ، كان كلما احتاج ،عمد إلى ضلفة باب أو شباك أو زجاج نافذة أو أكرة أو مسند سلم وخلعها وراح يبيعها ، بعد أن كاد البيت يخلو من الأثاث . .

وراح صاحب الدار يفكر قبل النوم فى كيفية إفطارهم بعد أن دبَّر أمر نومهم . ثم نام واعتمد على الله فى حل ما هو فيه من حرج . ونامت جفونه ولكن عقله بقى صاحياً يفكر ويدبر . . .

وعندما أصبح الصباح ، شم النائمون روائح بيض مقلى وبسطرمة وفول وزبد ، ولم يصدقوا ، حتى إن أحدهم ظن أنهم يحلمون ، لعلمهم برقة حال الداعى ، وراح يقرص جاره فى النوم ليشترك معه فى شم هذه الروائح الفاتحة للشهية . . .

وقاموا جميعاً ليفاجأوا بسماط ممدود حوى كل ما كانوا يتنسَّمون رائحته .

وبعد شرب الشاى والقهوة ، أرادوا أن ينصرفوا ، وبحثوا عن أحذيتهم فلم يجدوها ، فسألوا صاحب الدار عنها ، فراح يضحك ضحكاً متواصلاً وهو يقول : ما أكلتوها وكان اللى كان . . .

كان يسكن بجوار رامى أحد المحبين للشعر ولكنه لم يكن يهتم بالعروض والبحَور والقوافى والأوزان . وكان فى كل مرَّة يعود فيها رامى مُرهقاً من عمله ، يحل به هذا الجار ليقرأ عليه ما يكون نظمه . فيقول له رامى : مكسور يا أستاذ . وثانى مرّة يقول : مدشدش يا حبيبى . وثالثة يقول له : مدغدغ يا أخ . وفى آخر المطاف صرخ المتشاعر وهو يقول لرامى : انته متقصدلى ! ده ظلم ! دى مشى معاملة ! . . مش طريقة دى ! . . فقال له رامى وهو محتد أيضاً : شوف يا أخ . إحنا عندنا هنا بنوزن كده ، وإن ما كانش عاجبك ، روح إوزن برَّه . .

وكان لنا صديق يحضر مجلسنا ويسمعنا ونحن نتطارح ما يكون كل منا

قد نظمه . فيقول : يا جماعة دى حاجة عجيبة أوى . كل اللى أنتم بتقولوه خطرت على بالى معانيه وكثير من ألفاظه و إشاراته .

يبقى إيه ده يا رامى ، توارد خواطر والا مناجاة أرواح ؟

فأجابه رامى : لا أبدا . تقدر تقول إن إحنا شعراء بقافية ، وأنت شاعر بلا قافية . . .

كان المجتمع الانفصالى الذى عاش رامى جزءًا كبيرًا منه ، هو المسئول عن تعلقه هو ومن عاصره من شعراء زمانه بأى قشة يجدون فيها سبيلا للغزل والتشبيب والرومانسية . . .

روى لى هذه القصة : كنت فى صدر الشباب ، أغادر دارى بعد الغروب ، وأعود إليها قبل الشروق . وكنت ألاحظ كلّما هممت بالانعطاف من الحارة التى أسكن أحد منازلها ، أن رأساً صغيراً يُطل وهو يلتفّ بغلالة بيضاء ناصعة من وراء مشربيَّة من مشربيّات بيوتنا القديمة . وظننت — والشباب كثير الظنون والخيلاء أنها تنتظرنى لترانى ، والليل ستَّار يلف العشّاق بحجب ، ويحميهم من أنظار دخيلة . وقد أكبرت فى هذه العاشقة دأبها على انتظارى فى نفس موعد خروجى ، وعند عودتى لتطمئن علىَّ فى رجوعى . . .

ولم تكن نفسى ، ولا التقاليد ، يسمحان لى حتى برفع النظر إلى أبعد مما يحمينى من مزالق الطريق ، ولا ينبغى لى ، وهى من أهل حيٍّ أن أرجوها حتى فى منامى . وكأنى كنت أقول مع من قال :

وإنى لأستحييك حتى كأنما ... علىَّ بظهر الغيب منك رقيبُ

ورحت أنظم فيها شعراً يحوى ويضم المعانى التى تثيرها مشقة النوى

وحنين الواجد وإكبار الوفاء . وأنطوى على وجدى وسهدى . . .

وذات يوم خرجت من دارى قبل الغروب ، وإذا بعينى تفلت منى وترمق حبيبة خيالى ومهوى حنينى العفّ ، وحنانى المشفق ، لاكتشفت أنها (قُلّة) تلتف فى شاش أبيض رقيق مُبْتل ، ليبترد الماء بهذه الوسيلة أو الحيلة . . . .

وفقدت ليلاى ، وأفقت من حلم جميل . . .

أم كلثوم :

ذكاؤها يمهد لها سبيل التفوّق فى كل عمل تقدم عليه . وذوقها الرفيع يُسبغ على هذا الذكاء رداءً من لماحية برّاقة ورونق باهر وحديث مزغرد النبرات ، فيّاض النّدى .

وهى مثلما تفوقت وتفرّدت فى الغناء ، بفضل نعمة السماء عليها بحنجرة لم يَجُد بها الزمان على أحد ، حتى أصبحت كالماس الكريم (سوليتير) ، إلى جانب فن متمكن لا يجارى ، تفوّقت كذلك فى عالم الفكاهة والممازحة حتى غدت فى الصَّدارة من أهله .

وقد سئلت مرّة عما يمنعها من التلحين ، فأجابت بأنها لم تُخلق له ، وأنها لا تحب أن تعمل عملاً لا تتقنه إلى حد التفرّد فيه .

ذكر لها مرّة أحد معارفها ، اسم صديق له ، وكان اسمه مثلا ، محمد أحمد محمد فقالت ، وليه يسيب اسمه كده ، ده عامل زى ما تقول : لوبيا يافجل لوبيا . . .

وكانت ترى وجهاً أمامها فى كل حفلاتها ، لا يغيب أبداً . وحدث

لحسن حظه – فى حفلة خاصة – أن قدّمهُ إليها أحد معارفها ، ثم أردف قائلاً ، إلى جانب أنه سمّيع دائم ، فإنه مهندس كهرباء مستشفى قصر العينى وبقى له فيه مع الكهرباء والسلوك ، عشرين عاماً ، فقالت أم كلثوم على الفور . . . يا ابن الكابل . . . . . .

كان المرحوم الأستاذ عبد الغنى السيد المطرب القديم ، قوى البنية ، مفتول العضلات . ولاحظت أم كلثوم غيابه فترة طويلة . فسألت عنه صديقاً له ، فقال لها ، إن عبد الغنى عاتب عليها لأنها لم تسأل عنه عندما عمل عملية فى عينيه فقالت نكمّل : فى عينيه ولا فى عافيته . . . .

عندما عادت من رحلة لها من إنجلترا عام ١٩٥٠ بعد أن أطمأنت على صحتها واطمأن جمهورها عليها ، أقيمت لها فى الإسكندرية حفلة تكريم ضمَّت لفيفاً كبيراً من أهل الأدب والفن والصحافة وخاصة الشعر .

وراح الشعراء يتعاقبون فى إظهار فرحهم بعودتها حتى جاء دور الشاعر الكبير المرحوم فضل إسماعيل . فكان قد أعد قصيدة يعارض فيها بردة البوصيرى ، مطلعها .

إن سجَّل النيل لحناً رائع النغم　　　أو حنَّ طائره شوقاً إلى الهرم

فالبحر يعرف ما للفن من أثر　　　وما له فى حياة الناس من قيم

وكان رحمة الله قد أفرط فى الشراب ، وانعكس ذلك على إلقائه ، وتعثر لسانه ، وكثرة حركات يديه ، وحماسه والإشادة بعبقريته فى اختيار قصيدته معارضاً نهج البردة للبوصيرى نزيل الإسكندرية ومواطنه . وأشاعت هذه المفارقات روح الدعابة فى أم كلثوم وراحت تصغى

باهتمام ، وإذا بالتيار الكهربائى ينقطع بعد المقطع الأول من القصيدة .

وساد صمت قطعه صوت أم كلثوم وهى تسأل الشاعر : جرى إيه يا أستاذ ، هى قصيدة ولاّ غارة . . . . . .

وسرعان ما أتوا بشمع لإنارة ورقة الشاعر وظهر للهيب الشمعة دخان ، فقالت أم كلثوم على الفور : ودى قصيدة إيه المهبِّبة دى . . .

محمد البابلى :

سليل عائلة قاهرية عريقة . وكانت لها عقاراتِ اشتهرت باسم عمارات البابلى فى حى السيدة زينب .

أم كلثوم، عندما حلت بالقاهرة مع عائلتها فى فندق جوردون هاوس . كان البابلى من نزلاء الفندق فترة من الزمان ، قبل أن تنتقل أم كلثوم منه إلى شقة فى شارع (قولة) كانت مرتاداً لأهل الفن والأدب والظرف .

وكان يجلس معها ومع معلمها الأول الشيخ أبو العلا محمد يسمرون ويستمعون لنوادر البابلى وحلو حديثه وبديع مفارقاته ، وهى تُصغى كأنها فى درس .

وقد شربت من البابلى وارتوت من هذا النبع الصافى والتقطت منه بذكاء ولماحية ، صناعة الحديث وروايته ، وأصول ترتيبه بمفاجآته ومفارقاته ، واختيار المناسبة الصالحة للمقال والمجال .

وكان متلافاً لا يبقى على مال لديه ، بل ما يزال به حتى يزول . وانتهى به المطاف إلى بيع ورهن معظم ما يملك ، وكان يستمع ذات

مساء إلى صالح عن الحى وهو يغنى دور : أهل السماح الملاح ، دول فين أراضيهم . .

فماكان من البابلى إلا أن يهتف بحسرة : فى البنك العقارى يا بو صلاح . . . .

وكان يسير فى جنازة وراء النعش ، وإذا برفيقه فى تشييع جنازة المتوفى الثرى ، يسأل البابلى عن عظمة الخشبة وقماش الخشبة الحرير الشاهى وراح يستعلم من البابلى عما تتكلفه هذه الخشبة ، وإذا بالبابلى يقول له على الفور : بالميِّت . . ثلاثين أربعين جنيها . . .

وكان والده قد أعد حوشاً وطربة للآخرة . وأخذه ذات يوم ليشاهد المدفن . وسأله بعد الزيارة عن رأيه فى الحوش فقاله له الحقيقة بقى ، حاجة ترد الروح . . . .

وكان قد أصيب بالسُّكَّر الذى كان يشتد حيناً ويقل أحياناً . وذات صباح كان فى بار الأنجلو ، وحضر إليه خريستو ليلبى طلبه ، وسأل البابلى عن حالة السكر عنده فقال له البابلى بلهجة الجرسونات اليونانيين ، ميوليجى يا خريستو . . . وهى تعنى فى عرف الجرسونات : سكر شويه . . . . بلغة الإغريق .

وفى ظهر أحد الأيام كان يخترق بعربة حنطور (تجرها الخيل) ميدان الأوبرا والحركة على أشدها . وإذ به يسمع صوتاً متلهفاً يناديه . . يا محمد بك . . يا محمد بك . . فطلب من السائق التوقف وحضر المنادى وإذا به معرفة ، وليس بصديق . وراح يسأل البابلى عن صحته والأنجال ومن تزوج منهم ومن لم يتزوج بعد . وطال الحديث التافه ، وكان

يظن أن الأمر هام وأراد أن يلفت نظر هذا الصديق المتطفل – بطريقته الخاصة – إلى ما يجب ولا يجب ، فربت على ظهر السائق وقال له : القعدة احلوّت يا أسطى ، اعمل لنا فنجالين قهوة على ذوقك . . . .

وكانت القفشات بينه وبين حافظ إبراهيم لا تنقطع وذات يوم قصد حلوان لزيارة حافظ بك .

وعندما قدم حافظ بك إلى الصالون حيث كان البابلى يجلس ، لاحظ أن حافظ بك – وكان الوقت شتاء – يلبس للوقاية ، جلابية قماشها ورسومها مخططة على طريقة الكليم الصوف الذى كانوا يفرشونه فى صالة المنزل على البلاط ويضعون تحته ما يقيه من حدة البلاط ، كقماش أوما شابة ، فقال البابلى لحافظ على الفور : أنت لازم لابس حصيرة تحت الكليم ده يا حافظ بك . . . .

وكان فى زيارة لبستان أحد الأصدقاء وقد رأى البستانى يزرع حول نبات شوكى Seizilbinia .

ولما سأله عن السر فى ذلك قال له علشان تمنع دخول التعابين ، فقال له مفيش زرع يمنع دخول المحضرين . . . . . وكان وهو يجلس مع أخصائه فى بار اللواء ، يطلق اسم أى دخيل ثقيل عليهم ، اسم حنفى وحضر ذات يوم متأخراً قليلاً وإذا بدخيل ، بين الجماعة ، أى (حنفى) على حد اصطلاحه . فلما قدّمه أحد الأصدقاء إليه وقال له الأخ حنفى أفندى ؟

فقال البابلى : طبعاً ، أنا عارف ، فرجع الصديق يقول ، لا ده اسمه الحقيق حنفى فقال البابلى يبق اسمه بق ، حنفى أفندى حنفى . . . .

وبينما كانوا جلوساً فى بار اللواء إذا بحنفى جديد يهبط عليهم . وبعد قليل أخرج علبة سجائره وراح يوزّع على كل الجالسين سيجارة لكل منهم .

ونسى سهواً أن يقدم للبابلى .

وقد تَدارك الأمر أحد الأصدقاء الجالسين ، وأخرج علبته وراح يقدِّم منها للبابلى بك .

ولكن البابلى شكره وهو يشير بيده إلى من أغفل تقديم السيجارة له ثم يقول : دخانك يا محمد بك حامى أنا عايز من البارد ده . . . . .

وكانت فكاهة البابلى تقوم على المقابلة والتلاعب باللفظ من وحى المناسبة .

حسين الترزى :

اسمه الحقيقى ، حسين فهمى الكربتلى . فقد كان جدُّه الأعلى من أهالى جزيرة كريت ، عندما كانت ضمن أملاك الإمبراطورية العثمانية فى سالف من العصر .

وحضر الجد إلى مصر وتزوج مصرية وأنجب أحد أبنائه ، حسين فهمى الكريتلى .

أما صفة الترزى هذه فقد لحقته على أثر مساهمته بنصيب فى محل للتفصيل ، لم يكن هو يعرف فى هذه الصناعة شيئاً ، ولكنه كان يشرف على العمال ثم يترك المحل إلى جولاته وسهراته حتى أفلس المحل وارتاح وأراح .

وكان وجهاء القوم وأدباء وشعراء البلد يتشوقون إلى مجالسه ويتحرون مكانه ليصحبهم فى سهراتهم .

وفكاهاته ومداعباته كانت تقوم على دعامتين عرفهما بحسه الفطرى ، فقد كان لا يعرف الكتابة أو القراءة .

كانت الدعامتان هما : خلل القياس ومباغتة المفارقة ، إلى جانب اصطياد المناسبة وتخريج الصور العديدة من لفظ أو جملة ، مع عفة فى القول ورعاية للأدب واحترام للتقاليد المرعية ، فقد كانت مجالسه زاخرة بأرقى الطبقات وصفوة أهل الأدب .

وكان ذكياً ذكاء مفرطاً ، حتى لقد اخترع اختراعات منها جهاز حاسب يوضع عند مدخل المخابئ أو المناجم ليعد الأعداد الداخلة والخارجة . واستطاع أن يقسم المليمتر إلى أجزاء .

كنا نسهر معه ذات مساء فى كازينو راق فى الإسكندرية .

واحتك به أحد السكارى . وراح يضايق حسين وحسين يلاطفه دون جدوى وأخيراً قال له : يا أخى ابعد عنى الله يخرب بيتك . . . وفضضنا الاشتباك ، ثم رحنا نثير خوف حسين من ناحية من كان مشتبكاً معه ، فقلنا إنه ابن أكبر محام فى الإسكندرية وسيرفع ضده دعوى قذف وفى مكان عام والشهود كثير . . . فاغتم قليلاً وبعد تفكير خاطف قال : أنا رايح أترافع عن نفسى . أنا لم أتفوه بما يهين هذا السكير . ودعوت الله أن يخرب بيته . ومنذ متى يستجيب الله لدعائى ! . . الأمر معلق على استجابة الله لدعائى ، وهذا أمر أنا واثق من عدم تحقيقه وبهذا يا حضرات . . . . . ولكن الواقع أنه ارتبك وأفلحنا فى إثارته . . فانقطع

عن تكملة مرافعته أو مشروع مرافعته . . . وضحك معنا

وكان عفيف النفس لا يطلب مالاً من أى أحد مهما بلغت به الفاقة . بل لقد كان بعض الأثرياء ممن كان يؤم بيوتهم ويسعدهم بأحاديثه ، يجرون على مده بمبلغ شهرى دون أن يشعروه بأنه مساعدة ، ودون أن يلزموه بالحضور إليهم .

وفى مطلع حياته كان حسين من مرتادى صالون ومنزل المرحوم على فهمى الثرى الشهير . وكان قد أبلغه يوماً ، بأنه عيَّنه سكرتيراً خاصاً للمشتريات . ولو أن حسين اعتدل فى إنفاقه لترك أملاكاً وعقاراً من مبالغ كان يأخذها من المحلات – بعلم على فهمى – عندما يشترى سيارة أو يؤثث منزلاً أو يشترى حاجيات للبيت من كل الأنواع بما فى ذلك الأرض والعقار والأثاث .

وقد سافر مع هذا الثرى إلى أوربا ، فى معيته مع صديق آخر ليستكمل المجلس مداعباته ، ويصبحان كموسيقى الحجرات . . .

وكان هذا الصديق ، يكتب لحسين ملاحظاته فى أوربا وكان يبعث إلى بخطابات كلها دعابات وفكاهة ، ضاعت مع كثرة انتقالاتى .

كان عندما ينام يحب أن يتحدث مع من معه فى البيت أو فى الحجرة حتى ينام . وكان هو وصديقه عبد الرحمن هذا يقيمان فى حجرة واحدة فى الفندق الذى ينزلان به .

وذات ليلة أرق حسين وراح يحادث عبد الرحمن ، فإذا به قد استسلم لنوم هنىء .

وكان محباً لحسين ويطيعه فيما يأمر . وأراد حسين أن يظل مستيقظاً

معه فعمد إلى حيلة ، مفادها أن يطلب منه غلق النافذة ثم يطلب فتحها ثم سأله فتح النور ثم يسأله قفله ثم يسأله مزيداً من الغطاء ثم يطلب رفعه . وبعد أن وجد أن شيئاً فى الحجرة لم يبق دون أن يسأل زميله عبد الرحمن رفعه أو فعله أو فتحه وبرغم ذلك لم يكن النوم قد حل به مثل زميله المطيع . . .

وأخيراً سمع استغراق عبد الرحمن فى النوم ، فراح يوقظه بلهفة وهو يقول له : عبد الرحمن . . عبد الرحمن . . قوم غطِّى القصرية أحسن ناموسة تقع فيها . . . . بلاش وخم . . .

وعندما كان شريكاً فى محل تفصيل الملابس ، حضر إليه دَعى يجالس العظماء وهو ليس منهم . وكان إلى جانب ذلك لا يُعنى بنظافة بدلته ، ويترك عليها بقايا مما يأكل أو يشرب .

وعندما رأى حسين فى المحل ، بادره بلهجة حادة :

أنتم مادام مش قد المحل ده فاتحينه ليه !

فين البدلة اللى جبت قماشها واتعمل لها بروفتين ، وكل مرة تقولوا لى بعد يومين ، بعد يومين ، فقاطعه حسين وهو يقول له ، وقد غاظه هذا التأنيب الغليظ :

البدلة جاهزة يا أستاذ بس تلقاهم بيركبوا لها البُقع . .

وكان يصحب أحد الأصدقاء فى أوتوبيس الجيزة .

وقد دفع الصديق للكمسارى ثمن تذكرتين . نسأله حسين ، التذكرة بكام ؟

فقال له الصديق : بقرش صاغ .

فقال حسين : يا سلام دى حاجة رخيصة أوى ما تشترى كمان مرّة . . . . . .

وكنا نجلس آخر الليل فى قهوة المثلث بميدان الجيزة فى الصيف . وكان صاحبها يضع فى الأشجار ، لمبات حمراء وخضراء وزرقاء . وجلسنا على مائدة كانت تظللها إحدى هذه الأشجار . وإذا به يقول متوسّلاً : يا جماعة اعملوا معروف ننتقل على مائدة ما يكونش فوقها شجرة من دول ، أحسن لمبة تكون استوت تقع علينا . . .

وكان يزورنى فى مكتبى وكان وسيعاً .
ولم يكن النيون قد اخترع . فكانوا يضيئون الحجرة بأربع كلوبات من ذات اللون الأبيض الناصع . وكانت كروية الشكل مما يلتبس على ضعاف النظر أمرها .

وكان فى إحدى هذه الزيارات ، عندما كان نظره قد أخذ يضعف ضعفاً شديداً ، نظر إلى السقف ورأى هذه الكلوبات الناصعة ، وإذا به يسألنى فى شيء من الاستهجان : أنتم معلّقين توم . . . ؟ . . . .

وموضع الفكاهة أنه استعمل خلل القياس ، لأن مكتبى كان فى وزارة الخارجية . . . . فى قصر التحرير .

وكان يقول لى ونحن وحدنا : إنكم تستطيعون كتّاباً كنتم أوشعراء أن تعدّلوا فيما تعدون من كتابات أو تنظموا من شعر ، أما أنا فإنى إذا قلت قولاً ، أصبحت مسئولاً عنه ولا أستطيع أى تعديل فيه

وحدث أن اقتحمته عين أحد أصدقائنا ، لأن حسين كان دقيق الجسم ذو صلعة ناصعة ويجلس صامتاً . وراح هذا الصديق يدخل معه

قافية دون أن يعلم أنه حسين الترزى ، وكانت قفشاته من قبيل قافية اشمعنى .

فسألنى وكنت أجاوره ، عن اسم هذا الظريف . . .

وعندما علم أن اسمه حسنين ، وكان جلداً على عظم ولا يزيد أكثر من ثلاثين إلى أربعين كيلو ، وفى هزال دائم .

فراح يسأله : وليه يا أخى حسنين ؟ ما حسن واحد كفاية بالنسبة لوزنك ؟ وليه تشيل حسنين لوحدك . . . .

وكان يقول عنه بعد أن قام هارباً ، إن الحانوتى يدق على باب منزلهم ويقول لأهل البيت : مش سى حسنين خلاص . . . يقصد أنه مات من ضعفه . . .

فيقولون له : فى الحقيقة لسه شوية . . . فوت بكره . . . .

فيقول لهم : هاتوه بقى أهو كويّس كده . . . . .

وكان أحد الأثرياء الذين كان يتردد عليهم ، قد نصحه طبيبه المعالج أن ينشغل بهواية من الهوايات فإنها تصرفه قليلاً عن مواصلة شرب الخمر . ولم يكن هذا الثرى ، برغم نعومة الحياة التى كان يحياها ، ورعاية أهله وجميع إخوانه ، يفيق من الخمر واستمع بالفعل لنصح الطبيب وأحضر لوازم التصوير بالزيت وخصص حجرة من حجرات القصر الوسيع لهذه الهواية . وذات يوم قصده حسين الترزى وكان قد فرغ من رسم صورة Portrait نصفية تمثل شخصاً ما فسأل حسين عمن يكون هذا الشخص فقال له حسين : أنا لا أعرف هذا الشخص ولا عمرى شفته فقال الثرى : دقّق نظرك . ففعل وفشل فى معرفة الشخص فقال له

الثرى : يا أخى دى صورتى فقال له حسين : أنت عايزنى أعرفك إزاى من الصورة دى . لا فى إيدك كاس ولا عينك حمرا ولا بتطوّح ولا بتتخانق . . . أعرفها إزاى . . .

كنا نجلس فى أحد النوادى وحضر أحد الوجهاء الذين يهتمون كثيراً بهندامهم وزينتهم وراح يحمل على الحلاق الذى قص شعره وأصبح لا حديث لنا غير هذا الوجيه وهو مهتاج ومندفع فى عصبيته فقال له حسين : المسألة بسيطة يا أخى ، روح للحلاق ورجع له الحَلْقة ما دام مش عاجباك . . . .

ذكر له أحد أصدقائه أن الحارة التى يقع فيها منزله يسكنها عفريت . فقال له حسين : ما كبر دلوقت العفريت وبقى عجوز وغلبان وبيقعد على الأرض ويسند ظهره للحيط ، وإمبارح بس وأنا فايت عليه لقيته بيقول لى ، والنبي يا ابنى أنت يا اللى ماشى . تعالى خد بأيدى علشان أخُضَّك . . . .

كنا نستمع إلى أم كلثوم وكلنا آذان . وإذا بالجالس إلى جوار حسين يسأله أن يدله على القصبجى ، ومن يكون هو من بين أعضاء التخت ، فقال له حسين ، ووجدها فرصة ليسرح به ، شوف بقى ، سيب أول قصابجى وثانى قصبجى وثالث قصبجى ، وبيبقى هو الرابع . . . على إيدك الشمال .

كنا نتردد على مطعم الباريزيانا أيام عز شارع الألفى وكان (بانايوت) كبير جارسونات المشرب يتولى مدّنا بجميع خيرات المشهّيات . بل لقد كان فى ختام الجلسة يحضر لنا سلطانيات مشمش وقاراصيا . وفى إحدى

هذه الليالى ، وبعد أكل المشمش والزبيب والقاراصيا ، نادى حسين على بانايوت وقال له : هات لنا طشت الغسيل وصابونة تغسل أيدينا . علشان مروَّحين . . .

ومن تعليقاته اللطيفة ، كان يقول : إن العادة جرت فى مصر على فرش الرمل فى ثلاث مناسبات :

عند ذهاب الملك لافتتاح البرلمان . وعند ذهاب سفير لتقديم أوراق اعتماده . وعند مرور وابور الزلط . . . . عند تبليط الشارع . . . .

كان يجلس معنا من راح يبشر بزوال الصلع بفضل دواء اخترعه وعرض على حسين استعماله (وكانت صلعته ناصعة)
فقال له حسين : أنا عندى منشة تساقط شعرها نجرب فيها . . .

ومن مفارقاته المضحكة المبكية ، قوله لى : يا أخى الناس جاكتاتها تدوب من الكوع أو الياقة أو الجيوب ، وأنا لا يدوب معنى إلا كم الجاكتة من كثرة من كان يأخذ بيدى بعد ضعف نظرى . . . .
عندما أعدِّى الشارع ، أو أنزل سلالم ، أو أطلعها .

وأصحاب الفكاهة فى مصر كانوا ينقسمون إلى : أصحاب فكاهة منظومة مثل محمود غنيم ومحمود بيرم التونسى وحسين شفيق المصرى (أبو نواس مصر) . وأصحاب فكاهة منطوقة .
هم أمثال من سلف ذكرهم فى هذا الفصل .

ولا يمنع هذا التقسيم من خروج فريق من هؤلاء إلى صنعة هؤلاء والعكس صحيح .

فقد كان حسين شفيق المصرى عندما كلَّ بصره لا يسير إلا وفى رفقته مرافق ليساعده فى الطريق .

وذات يوم قابله صديق فى الطريق ورأى هذا المرافق فسأل شفيق عمن يكون . فأجابه : ده واحد ساحبنا . . .

وكان المرحوم عثمان جلال ينظم فكاهاته شعراً أو زجلاً وهو الذى ترجم لموليير (تارتوف) وأسماها الشيخ متلوف ونظم كثيراً من الأزجال المرحة على ألسنة الحيوانات .

ولكن كان إلى جانب ذلك سريع النكتة وصاحب بديهة حاضرة . وقد حدث له عندما كان قاضياً أن ذهب إلى المحكمة متأخراً فأسرع الخطى وراح يصعد سلم المحكمة فى عجلة وإذ بأحد معارفه من الوجهاء يعدو وراءه ليرجوه فى قضية لديه وكان يقول له يا عثمان بك أنا ليَّه دعوة . . .

فأجاب عثمان بك وهو مسرع : وأنا ما ليش دعوة . . . .

وتخلص بهذا الرد المفحم الظريف .

* * *

وكان من بين سمَّار الليالى ومرتادى مجالس الأنس والمرح والطرب ، صديق يتمتع بقول الفكاهة المنطوقة والفكاهة المنظومة ويعدل بينهما عدلاً سليمانياًّ . . . .

وأبى علينا الصديق المذكور أن نذكر اسمه فى هذه الأوراق ولكننا كنا نحفظ له الكثير مما قال ، نذكر بعضه فى هذا الفصل على سبيل المثال ، وقد حملنا هذا على أن نطلق عليه (الصديق المجهول) . . . نزولاً على طلبه . . .

كان ذات يوم ينتظر فى بهو العمارة التى يسكن إحدى شققها ، نزول « الأسانسير » . وكانت هناك قبله ، أمام المصعد سيدتان ، فى زيارة لإحدى الشقق . وكان السهم الدال على نزول الأسانسير يبشر بقرب الفرج ولكنه طال ، فقالت إحدى السيدتين لزميلتها : تعالى نصعد السلم يظهر أن الأسانسير متوقف . فقال لها الصديق المجهول : يا أفندم الأسانسير نازل وعلامة النزول دليل ، ولكنه أحياناً بنزل على السلم . . . .

وفى ظهر أحد أيام شهر أغسطس فى القاهرة ، كان الصديق المجهول يلبس قبعة تقيه وهج شمس أغسطس ولهيبها ، وإذا به يفاجأ بمن يعدو وراءه وعندما استدار وجده أحد أصدقائه القدماء ولكنه كان مشغول البال ، فلم يلحظ مرور الصديق فى مواجهته ، وراح الصديق يعتب عليه نسيانه أو تجاهله ، فوجم الصديق المجهول ، وقد سدَّت فى وجهه منافذ الاعتذار ، ثم استدرك أخيراً وقال له : الحقيقة بقى ، أنا ما عرفتكش (وأنا) لابس البرنيطة . . .

وكان يسير فى الطريق وإذا بصديق يستوقفه ويمضى معه فى حديث استغرق أربعين دقيقة ، وعلى المقيمين خارج القاهرة ، تُصبح اثنين وأربعين ، وعندما جاء الفرج وأراد الصديق أن يذهب لحال سبيله ، قال للصديق المجهول ، ابقى خلِّينا نشوفك ، فقال له الصديق المجهول : بس قول لى أنت بتقف فين وأنا أجيلك . . .

اشترى الصديق المجهول لبًّا أبيض عندما كان ثمن (الكيلو) ، (١٦٠) وعندما عاد لداره وجد أن أغلبه قلبه فارغ (أفرغ من فؤاد أم موسى) . ولم يشأ أن يترك ثأره وذهب فى اليوم التالى لمحل التسالى الذى

اشترى منه ، فظن الرجل أنه أصبح زبوناً ، فسأله ، يظهر أن اللب عجبك ، فقال له الصديق المجهول ، عجبنى جداً يا أخ ، بس كنت تقول لى إنه لب بناتى . . . .

وذات يوم دُعى الصديق إلى الغداء بمنزل أحد أصدقائه ، وكان من عادته أن يتناول شيئاً من المشروبات لفتح شهيته العنيدة . ولكنه فوجئ بأن جميع المدعوين ممن لا يجرؤ على فعل ذلك أمامهم . ولاحظت السيدة اللمَّاحة ما هو فيه من ضجر وضيق ، فأدخلته إلى حجرة داخلية ، وقالت له إنها ستحضر إليه كأساً يشربها بسرعة قبل الغداء ولكنه اعتذر فقالت له : ده كأس واحدة . . .

فقال لها : ما هو عشان واحدة ما اقدرش . . . .

وكان للصديق المجهول صديق يمتلك رخصة مجلة أدبية منذ زمن بعيد ، وطلب من الصديق المجهول أن يسهم بقدر من شعره فى صحيفة الشعر ، فلم يعارض الصديق المجهول .

وإذا به يُفاجأ من صديقه بضرورة تفسير كل كلمة له ، من القصيدة التى ينشرها قبل ظهور العدد بمدة ، لأن مدير التحرير عامل سيبويه . . . فرضخ له لما بينهما من صداقة . وعندما نفَّذ له هذا الشرط فى أول عدد ، إذا بالصديق يقول للصديق المجهول ، يا أخى ده أنته بتعرف عربى كويس أوى ، فقال الصديق المجهول ، أبداً يا أخى ده انته اللى يظهر ما تعرفش عربى .

وسافر مرَّة إلى الإسكندرية للمصيف وكان قد حجز حجرة ، وبسبب زحام المصيف قبل أن يقيم بها برغم أنها مخصصة لاثنين . . . وصودم

بأنها تكاد لا تتسع لحركته بها ، إلا بعد حركات أكروباتيه حتى لا يتعرض لانزلاق غضروفى أو كرامب . . . وكان مثلا يلبس ملابسه على الطريقة السويدية . . .

وعندما نزل إلى المكتب لتسليم المفتاح سألوه إذا كانت الحجرة أعجبته فقال للمسئول : لا بأس . . أبداً . . ففرح المسئول فرحة لم تطل لأن الصديق المجهول راح يقول له : إن الحجرة لا بأس بها ، ولكن لشخص واحد ، على شرط ألا ينام فى الحجرة ولكن يكون له خالة أو عمة ينزل عندها ولا يحضر للأوتيل إلا للسؤال عن البوستة أو التليفونات . . . .

وعندما كان الصديق المجهول يعمل فى اليونان فى موقع من مواقع عمله ، سأله عندما عاد ، مسئول كبير عما لفت نظره أكثر من أى شىء فى اليونان ،

فقال له : كثرة القهاوى ، لدرجة أنك يمكن تقدر تعد بين القهوة والقهوة عشرين قهوة . . . .

وعندما آتم الصديق المجهول دراسته القانونية ، وكان يسكن مع عائلته بالقرب من مقياس النيل فى الروضة ، قال له والده ، إن البيت متسع وأنت الآن لك مدخل مستقل وحجرتان ، حجرة لنومك والحجرة الأخرى لاستقبال أصحاب الدعاوى . فقال له الصديق المجهول : أصحاب الدعاوى يحضرون هنا ؟

ده أنا عمرى ما شفت سائل أو محروم وصل لغاية هنا . . .

* * *

وبعد ، فإذا كان كل فن ينطوى على إطار ومحتوى ، وعلى شكل ومضمون ، وعلى مظهر وجوهر ، يستوى فى ذلك الرسم والشعر والتمثيل والنحت ، وما شاكل ، فإن الفكاهة هى الأخرى ، ينطبق عليها هذا القانون ، لأنها فن من فنون القول الجميل .

فالرسم إذا خلا من محتوى الجمال الفنىّ ، الذى يبثه الرَّسام من ذات نفسه وروحه ومشاعره ، وينقله إلى لوحته لينفذ به إلى قلب وإحساس ومشاعر المشاهد ، فإنه لن يبقى من الرسم إلا قطعة من قماش ومزيجاً من الألوان .

والتمثيل إذا خلا من مضمونه وهدفه من البناء والتوجيه والترشيد ، أصبح شيئاً لا يزيد على مشاهد تتوالى وأفراد يذهبون ويجيئون على المسرح ويتحدثون حديثاً أكثره ثرثرة لا تطرق إلا السمع ولا تنفذ إلى الحس والعقل والخاطر .

وقل المثل فى الشعر الذى سما به العقاد حتى بلغ به أعلى سماك حين قال :

والشعر من نفس الرحمن مقتبسٌ   والشاعر الفذُّ بين الناس رحمن

وهو إذا خلا من هذه القدسية ، ومن معانيه العميقة الدقيقة ، ومن مشاعره النبيلة الجميلة ، فإنما هو تفاعيل وقوافى لا روح فيها ولا حس .

والدِّين فى أوامره ونواهيه وفى أركانه ودواعيه ، لا بد فيه من روح ومحتوى ومضمون .

فالصلاة إذا خلت مما تحضُّ عليه من عدم إتيان المعصية والمنكر ، ومن الوقوف بين يدى الله خاشعين لتقديم الشكر له على ما أولانا من

نعيم الوجود ، فإنها تصبح حركات رياضية .

والصيام يصبح جوعاً لا حضًا على الشعور بحاجة المحروم وتقوية الإرادة والسمو على الشهوات الدنيا .

والحج إذا خلا من التبرك بأرض الوحى والرسالات ، والطواف حول أول بيت شُيد للناس ليعبدوا الله فيه ، وخلا من زيارة مثوى النبى الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، حامل آخر الرسالات السماوية ، وخاتم الرسل والنبيين ، وتحقيق منافع من التعارف واللقاء ، فإنه يصبح تجارة وسياحة .

والفكاهة التى تعتبر كالمسرح (أبى الفنون) ، هى الأخرى تتضمن إطاراً ومضموناً .

فى الفكاهة تمثيل . وفى الفكاهة إخراج . وفى الفكاهة تصوّر وخيال . وفيها من الشعر رويُّه وحُسْنُ وقعه وترتيله . وفيها من الرسم نقله الأمين للأصل المرسوم .

وفى الفكاهة نقدٌ وتوجيه وترشيد . وفيها ترفيه وتمريض وعلاج .

وهى إذا خلت من المضمون والجوهر والمحتوى ، غدت شكلاً لا غناء فيه ولا جدوى منه ، وأصبحت عبثاً لا طائل من ورائه ، وانحدرت إلى مستوى (القفش والقافية) .

وقد اشتق العرب اسمها من الفاكهة ، وما أظن أن لغة أخرى حملت هذا المعنى الجميل . فالفاكهة ضرورة وشفاء ولذة . وفيها تنوُّع فى الطعم والشميم والغذاء .

وكذلك شأن الفكاهة فى حياتنا ، فإنها تساعد على هضم مصاعب

الحياة وعلى تفريج تجهم العيش وتيسير العسير المرير .

ولا أزعم أنى أحطت إلا بالقليل مما تحتوى عليه الفكاهة ، من معان وأهداف ، ولكنى أزعم أنى فيما ذكرت ، نوَّهت بمزايا للفكاهة على أساس أنها قاعدة التوازن ، كما سلف وأوضحنا فى التمهيد لهذا الكتاب . فعندما يعترى النفس اضطراب ، تخف هى لتمسح بسحرها كربة المكروب ، ولا تترك النفس حتى يعود إليها الأمن والاطمئنان ، لتمضى فى سيرها إلى هدفها المنشود ، ومصيرها المحتوم .



الفصل الحادى عشر

مجالس الظرفاء

كانت مجالس الظرفاء تنتشر فى أنحاء عديدة فى القاهرة القديمة والحديثة . فكانت قبل العشرينات تنعقد فى مقاهى متعددة حول المقام الحسينى وفى دار المهدى بباب الخلق وفى قهوة المعلم بباب الخلق أيضاً وفى قهوة متاتيا بالعتبة الخضراء وفى بار أستراليا بشارع عماد الدين ، وفى منادر وصالونات لا حصر لها ولا عد .

ونحن نذكر ما سوف نرويه عن هذه المجالس على سبيل المثال فإن حصرها يحتاج إلى هيئة إحصاء وتعداد ومراقبة ومراجعة ومتابعة . .

وكان الشيخ الشربتلى ، نجم قهوة المعلم بباب الخلق . ويتخذ منها مكتباً يدير منه أعماله الصحفية . ففى استطاعته تقليد أى أسلوب أو قلم فى البلد . وعندما يجىء إليه أصحاب الصحف — وكان أغلبهم من الأميين — كان يتفق معهم على تسعيرة تتنوع فئاتها تبعاً لنوع الكتابة والأسلوب .

فإن كان المطلوب مقالة على نمط كتابات اللواء وأسلوب المؤيد ، فثمن الصفحة خمسة قروش .

وإذا كانت الكتابة المطلوبة تسلك مسلك أسلوب الشيخ محمد عبده والسيد توفيق البكرى ، فالصفحة بعشرة قروش .

أما النوع الممتاز من كتابات ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان الهمذانى فالشيخ لا يسمح بأقل من خمسة عشر قرشاً ، لأنها كتابة مخدومة ومنتقاة .

وكان إذا اشتكى أحد أصحاب الصحف من أن المنضدين للحروف ضجوا من صعوبة قراءة الحروف الصغيرة التى يكتب بها الشيخ الشربتلى ، صرخ الرجل : « هى الخمسة قروش حتشترى ورق والاّ حبر والا أجر كتابة . احمدوا ربنا ! » .

وكان عثمان جلال بك المستشار الشاعر الزجّال المسرحى ، قد ألف مع شلّة من أقرانه ، جماعة أطلق عليها اسم (جماعة الأنس) تجتمع فى مندرة دار تقع على ناصية حارة البرقوقية .

وكان يروى ذات يوم لروّاد المندرة ، قصته مع ناظر مدرسة الطب فى أيامه .

فقد ذهب لمقابلة الناظر وكان يعرفه . ورحب به الناظر وسأله إذا كان يرغب فى إدخال (حافظ جلال) – الدكتور فيما بعد – المدرسة ، فقال له عثمان بك : لا فسأله الناظر إذا كانت هناك خدمة أخرى أؤديها فأنا كلى استعداد . فقال عثمان بك : عايزك تدخل حافظ ابنى مستشفى المدرسة . فأجابه الناظر بأن حافظ فى صحة طيبة . فقال له عثمان بك أنا أعلم ذلك . ولكنى أريد أن يتمرن أولاً على المرضى ثم يرتقى إلى ممرض ثم رئيس ممرضين ثم يدخل مدرسة الطب ويسير متدرجاً من أول خطوة . . . . حتى يتخرج دون أن يفوته شىء . . . فانبرى أحد أعضاء الجماعة ليقول لهم إن قريباً له من أهل الريف جاء لزيارته فى

القاهرة . ولما استقر به المقام راح يسأله عن أهل بيته وفى طليعتهم ، ابنه الوحيد ، فقال له صاحب الدار ، الحمد لله دخل مدرسة الطب ودلوقت بيشتغل طبيب أطفال ، فقال له قريبه الطيب القلب : ليه يا شيخ ما كنت تخليه يكمّل . . . .

وكان بار الأنجلو وبار اللواء وقهوة ماتاتيا وحلوانى صولت وقهوة ولبانى التى كانت تقوم بجوار سميراميس وكان يرتادها شوقى بك صنيعاً ، كلها كانت منتديات عامرة بالأدب الرفيع والفكاهة الراقية .

وكان الشيخ عبد العزيز البشرى نجم الأنجلو . كما كان حافظ إبراهيم نجم بار اللواء . ومحجوب ثابت نجم حلوانى صولت . وفى قهوة ماتاتيا كان يجلس بها إمام العبد مع رهط من ألمع أصحاب النكتة .

وهذه القهوة شهدت جلسات جمال الدين الأفغانى وعبد الله النديم وسامى البارودى فى شبابهم .

وكان الشيخ البشرى يعجب كل الإعجاب بإمام العبد وبسرعة خاطره ونكتته الحاضرة دون فحش أو تجريح . ولكنه ابتلى ذات يوم بمتأدب كان اسمه محمود راح يقول لإمام العبد إنه أجمل قصيدة للمتنبى هى قصيدة :

عيد بأية حال عدت يا عيد .

وضحك ضحكة فهم منها أن المتأدب المذكور يقصد بيت القصيدة .

لا تشترى العبد إلا والعصا معه   إن العبيد لأنجاس مناكيد

فقال له إمام على الفور . بل لعل بيت القصيدة هو :

ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمنٍ   يسئُ فيه كلب وهو محمود

* * *

وكان يؤم دار حافظ إبراهيم فى حلوان رجل اسمه سليمان شوقى يزعم أنه توصل إلى اختراع مُرشَّح للماء بوضع تركيبات فخارية فى زير يخرج منها الماء رائقاً صافياً . .

وذات يوم كان يجلس مع الندوة دكتور بكير ، وكان يستمع فى غيظ لشرح الرجل الذى علم أنه كل يوم على هذه الحال ، فقال له : يا أخى ذنب الناس إيه لما تروَّق الميَّه وتعكَّر دمُّهم . . . .

وذات يوم كان البابلى يجلس فى ندوته الخاصة بالسيدة زينب عندما يصعب عليه نزول البلد للجلوس فى الأنجلو بسبب إضرابات جارية . فقد كانت المدارس مضربة وكذلك الترام والعربات والمحال العامة احتجاجاً على تصريحات كانت تصدر عن زعماء بريطانيين ، تمس أمانى مصر فى الاستقلال ،

ومر بهم شحَّات ألح كثيراً فى طلب السؤال فقال له البابلى : يا أخى اضرب لك يوم ، أنت ما عندكش وطنية ؟

وكنا نجلس فى مقهى رويال أمام شيكوريل ومعنا أحد أفراد عائلة ترك أصحاب المخابز الشهيرة باسمهم . ومر سائل وألح على الأخ ترك فى طلب حسنة فصرفه بحجة عدم وجود فكَّة ، ولكن السائل لم ينصرف ، فقال حسين الترزى لإبراهيم ترك :

يا أخى اكتب له شيك برغيفين يصرفهم من المخبز . . . وقمنا ذات مساء من قهوة رويال لسماع الأستاذ محمد عبد الوهاب فى تياترو برينتانيا وكانت وقتها تجرى فى عهد إسماعيل صدقى انتخابات نيابية على

درجتين أى لا بد من انتخاب ثلاثين مندوباً وينتخب من هؤلاء نائب الدائرة

وفى التياترو كان عبد الوهاب يغنى لأول مرّة موال : مسكين وحالى عدم من كتر هجرانك . وإذا بحسين الترزى يصرخ : كمان والنبى يابنى محمد ده أنا مسكين ثلاثيني . . . .

وفى قهوة نيس بميدان الإسماعيلية (التحرير حالياً) ومكان عمارة بحرى كنت أجلس فى انتظار حسين الترزي ومعي صديق دكتور . وعندما حضر حسين قدمته للدكتور وراح حسين يشتكي من بعض أوجاع يحس بها ، فقال له الدكتور أحسن شيء أنك تحلل البول علشان الدكتور المعالج يعرف بالضبط مرضك . وهات لى تقرير التحليل وأنا أكشف عليك .

وراح حسين يسأله : وكم يكلفنى تحليل البول ؟

فقال له الدكتور : أظن جنيهاً أو اثنين !

فقال له حسين : طيب والبول من عندى ولا من عند الدكتور . .

وفى أحد الأيام حضر المعلم دبشة الجزار وجلس على مائدة قريبة منا . وكنا نعرف أنه لا يقرأ ولا يكتب . وأردنا مداعبته . فكتبنا ورقة صغيرة ونادينا الجرسون وطلبنا منه تسليمها للمعلم دبشة . ونفَّذ الجرسون ما طلبنا . وقد أسقط فى يد دبشة ، ولكن لماحيته وذكاءه كانا أسرع من فرحتنا فيه ، فقد استبقى الجرسون وراح يمصمص شفتيه متحسراً ، ثم أخرج من جيبه قطعة فضية من فئة الخمسة قروش وطلب منه أن يسلِّمها لنا ، كما لو كنا سألناه إحساناً . . . .

ومن نوادر دبشة أنه كان يمتلك دكان جزارة بشاع التحرير الحالى . وكانت صغيرة إلى حد ملفت للنظر .

وذات يوم وقف أمام القاضى لاتهامه بمخالفه التسعيرة . وكان رئيس الجلسة بالمحكمة الجزئية ، أمضى سنوات عديدة بالمحاكم الجزئية مفضلاً تخطيه ، على ألاّ يغادر القاهرة . ولما نودى على القضية تقدم دبشة ، فسأله القاضى ، أليس هو أنت صاحب الدكانة . . .

وراح يشير بيديه إشارة يفهم منها أن الدكان فى حجم الكف . وعلى الفور قال له دبشة : أيوه يا سعادة البيه الدكانة الجزئية . . . .

وذات يوم مرَّ حسين الترزى على رامى بدار الكتب — وهى ندوة عامرة بالأدب الرفيع والفكاهة الذكية — وعندما حان ميعاد الانصراف قال رامى لحسين : بختك من السما . احنا عندنا النهارده ملوخية بالأرانب وتعال بنا نمشى واخترقا ميدان باب الخلق وهما فى طَريقهما إلى بركة الفيل . ومرا على محلات كثيرة من محال بيع الطرشى . وكان رامى يقول لحسين : يا سلام لو كان معانا سلطنية كنا أخذنا معانا من هنا ، دى البرطمانات شكلها يشهى فما بال الطرشى . فقال حسين لـرامى والا يا سيدى لو كان معانا ترموس كنا أخذنا فيه طرشى علشان يفضل حرَّاق ٤٨ ساعة . . . . .

وفى ندوة دار الكتب ، كان يجتمع أحمد رامى وأحمد الزين وأحمد محفوظ ويحضر لزيارتهم أحياناً الهيهاوى وكنت من بين المترددين على النـدوة لزيارة رامى أولاستعارة كتاب .

وحضرت مرة حديثاً فى الندوة يتناول طريقة أداء الأغانى وأسلوب

كل مغنٍّ . ولم يكن الأستاذ أحمد الزين من الراضين عن النعومة فى الغناء وترديد النواح والبكاء فى موضع الترفيه . وسمعته يقول إنه بدأ فى قصيدة ينعي فيها على هذه الفئة كل هذا النواح وأن مطلعها هو :

أنائح أنت أم مُغَـنٍّ ! سلبت عزم الرجال منىٍّ

وكان محل صولت الحلوانى ، المكـان المفضـل لشوقى بك .

وكان جلساؤه فيه ، الدكتور محجوب ثابت والشيخ عنارة والشيخ الجديلى والشيخ الجزيرى وأحمد محفوظ وكثير من أهل الفضل والأدب وكبار رجال الصحافة الذين كانوا يسعون وراء الجديد من أخبار الندوة وخاصة شعر شوقى فى محجوب ثابت . وقد أملى فى صولت قصيدة (براغيث محجوب) وقصيدة (مكسوبنى) . وقد سبقت الإشارة إليهما فى فصل سابق .

وكان الشيخ البشرى لا يغادر الأنجلو إلا بعد أن ينتصف الليل . وذات ليلة تأخر عن موعده ولم يشأ أن يذهب إلى دار أولاده فى الزيتون ، ففضل أن يبيت عند شقيقته فى السيدة زينب .

وكان فى عصر ذلك اليوم قد اشترى وهو جالس فى الأنجلو ، قفص فراخ يحتوى على خمس عشرة دجاجة . وأدخـل خدم المقهى القفص فى مخزن المهملات لحين قيام الشيخ .

وعندما استعد للذهاب . وضعوا له القفص بجوار سائق العربة المعتاد توصيل الشيخ إما إلى محطة الزيتون أو إلى السيدة زينب تبعاً لإشارة الشيخ . وسارت بهما العربة إلى السيدة .

وعند وصول الركب إلى دار السيدة شقيقة الشيخ البشرى حمل

السائق القفص إلى المنزل واحتفظت السيدة بالفراخ فى السطوح واعتنت بها وبأكلها ونظافتها كل العناية .

وبعد شهرين من هذه الزيارة ، كانت التعليمات لدى السائق أن يذهب إلى السيدة . فمضى بالشيخ إلى دار شقيقته .

وفى الصباح تنسَّم الشيخ روائح ذكية منبعثة من بيض يُقلى بزبدة طيبة . وسأل وهو يتناول إفطاره عن كل هذا الخير – وكان البيض كثيراً أمامهم – فقالت له :

فضلة خيرك . الفراخ فراخك والبيض منهم . وإذا كنت عايزهم أجمعهم لك ، بس تدفع مصاريف الأكل إللى قدمته لهم ، وهى حسبة ثلاثة جنيهات . . .

فصرخ الشيخ وهو يقول : بقى يا عالم أدفع قسط بناتى فى (الساكركير) ، ثلاثة جنيهات فى الشهر وادفع للفراخ زيهم . . . ليه ؟ رايحين يكاكوا فرنساوى . . . .

وعندما دُعى الشيخ البشرى لقضاء أيام فى عزبة الشريعى باشا بالمنيا ، تأخر عن العودة فى الموعد المضروب ، وفكَّروا أعضاء الشلة فى إرسال برقية تتعجَّل عودته وتركوا لحفنى بك محمود صياغة البرقية . وكانت على هذه الصورة الشفرية :

« كشكار دايم ولا علامة مقطوعة . . . »

حتى لا يفهمها إلا الشيخ وحده ، باعتبارها من لهجات شمال الأنجلو . . ومن اللغات المندثرة . . . .

وكانت تعنى ، أن العز المؤقت الذى تنعم فيه ، مصيره إلى نهاية .

ومن الخير لك أن تعود لما هو دائم . . . .

وفى عصر أحد الأيام ، حاول البشرى أن يقطع شارع شريف أمام الأنجلو ، ولكن السيارات ، كانت وكأنها مسبحة ، متوالية ، متصلة . فوقف إلى حين انفراج .

وكانت تقف إلى جواره سيارة إسعاف كانت تؤدى خدمة فى المنطقة فقال سائقها للشيخ البشرى ، الذى يترقب فى خوف :

ما تفوت يا سيدنا الشيخ !

فقال له الشيخ : بس مش عايزين نتعبكم . . . . . .

وكنت أجلس مع دكتور إبراهيم ناجى فى مطعم سيسبل بميدان التوفيقية ننتظر رامى . وراح ناجى يحكى لى عن قصته مع مريض كان على خصاصة وعوز ، فأعطاه ناجى بعد الكشف وكتابة الروشيتة مبلغ جنيه لمساعدته .

وبعد شهور لقى ناجى زوجة المريض فسألها عن صحته فقالت له الله يعوض عليك يا دكتور . إحنا جبنا بالجنيه بتاعك حكيم كويس وكان فى ايده الشفا والحمد لله . . . .

فقلت له ، إنى كان بينى وبين صديق كريم ، دكتور عيون ذكى ونابه ، ولكن كانت تشغله عن فنه شئون عديدة وسعيدة . . .

فرويت مره عنه ، أنه كان يفحص عين مريض وأطال فى الفحص وتململ المريض وقال للدكتور ، بتعمل إيه يا دكتور ، قال له بافحص عينك يا أخى ، فأجاب المريض :

دى العين القزاز يا دكتور

وفى مصيف رحله بجبل لبنان ، فى صيف عام ١٩٢٧ ، نظم شوقى قصيدة « يا جارة الوادى » ، واسم القصيدة فى ديوان شوقى « آية الزمان » ، ليرد به شاكراً لبلدية زحلة تفضلها بمنحه قطعة أرض فى أجمل بقعة بالمصيف ليبنى عليها شوقى قصراً يحل به كل صيف .

وكانت البلدية قد أقامت فى هذه المناسبة حفلاً كبيراً دعت إليه الكثيرين من أدباء وشعراء وكتاب العرب ممن كانوا يصطافون فى لبنان فى ذلك الصيف ، احتفاء بشوقى بك وتكريماً له .

وبعد أن أعلن مدير البلدية قرار البلدية ، قام الأستاذ الكبير بصوته الأخاذ ، الأديب الكاتب فكرى أباظة ليلقى القصيدة الخالدة . ولم تكن (يا جارة الوادى) المعروفة إلا مقدمتها الغزلية . ولكن القصيدة الأصلية تزيد على خمسين بيتاً .

وكان الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب قد لحن هذا الجزء المعروف ، وقام بغنائه فى هذا الحفل الكبير ، حيث استقبله جمهور المستمعين استقبالاً يتمناه الفاتحون . . .

وكانت ليلة . . تمنينا أن يقف الصباح فلا يقربها ، إلى أن انبلج نور الفجر ، وانطوت ليلة العمر ، التى ما يزال أرجها يعبق ويملأ الذاكرة بشذاها ويفيض على الفكر بريّاها . وحتى يومنا هذا ، ما تزال هذه القصيدة (يا جارة الوادى) تغنَّى بصوت عبد الوهاب فى منتديات نهر البردونى الذى يشق وادى زحلة وتنتشر على ضفافه مطاعم ومشارب وأماكن لهو تسطع أنوارها وتبدو حول البردونى الذى لا يزيد عرضه على أربعة أمتار ، كما لو كانت سواراً من ماس .

وأصبحت يا جارة الوادى رمزاً على وادى زحلة ، ونالها من الشهرة الخالدة ، مثل ما نال أغنية (على جسر أفنيون) Sur le Port d'Avignon التى ظلت منذ القرن الرابع عشر تردد حتى اليوم على لسان كل صبى وصبية فى جميع أنحاء فرنسا .

* * *

وفى صباح هذه الليلة الهنيئة ، كان المصريون المصيفون من نزلاء فندق قدرى يجتمعون ، وكلهم أصدقاء ، فى تراس الفندق انتظاراً لصحف القاهره فى لهفة وقلق .

وكان شوقى بك يجلس معنا أحياناً ، مستمعاً كعادته ، أو معلقاً بقول حكيم لا يطول أكثر من حسو الطير من جدول رقراق .

كانت الصحف قد نشرت هذا الصباح ، توصل مدام (كورى) لأكتشاف عنصر الراديوم الذى يمثل مرحلة من مراحل الاختراعات والتطور العلمى السريع ، وسلسلة من فتوحات العلم النظرى والتطبيقى .

وكنت من حسن طالعى أجلس إلى جوار الشاعر الخالد حيث كنت أطلعه على الخبر المثير فى صحف الصباح المحلية ، ورأيته يبتهج لهذا النصر العلمى ثم يهمس لى بصوت خفيض ، (إن السيدة التى تصلح لعمل الرجال ، لا تصلح للرجال .)

وكان يعنى أن عملها سوف يشغلها عن مهام بيتها ، ولكن ، لقد أثبتت المرأة بجدارة وبكل صدق وإخلاص فى عصرنا الذى نعيشه ، أنها فى كل ميدان تطرقه تبلغ فيه غايتها بنجاح وتوفيق وصدق وأمانة .

وبينا نحن جلوس ، إذ بصبى يحمل أعداداً من قصيدة (آية

الزمان) طبعتها بصورة عاجلة مطبعة محلية فى زحلة وراح هذا الصبى – وفى جبل لبنان مثل أمريكا يشتغل الصبية فى عطلة المدرسة ببيع الصحف – راح الصبى يلح علينا فى شراء بضاعته من (آية الزمان) واشترينا جميعاً منه فيما عدا شوقى بك ، وراح الصبى يلح على شوقى بك ليشترى نسخة وهو يأبى أن يجيبه إلى طلبه ، بمكر حسن ليرى النتيجة ، وإذا بصديق من الجالسين ، وهو لبنانى ، يقول للصبى : يا أعمى القلب ، ها يدا شوقى بك بنفسه بعظمه بلحمه ، كيف تبيع له القصيدة وهو ناظمها ؟

فقال الصبى : يابا ، باعرف أنه شوقى بك أميرا لشعرا لكن بلكى بينساها . . . .

على أن هذه المجالس ، كانت تطوى فى جوانحها وبين ثناياها ملامح كثيرة من ملامح الجامعات التى لا تقيد طلابها بمواعيد للحضور أو الانصراف ولا تحملهم على الاستماع إلى ما لا يحبون إلا وقتما يشاءون . فالكل فيها منتسب والكل فيها مستفيد ، منذ أن كانت كالبحر المنفتح على كافة التيارات ، وليست كالبركة التى أسن ماؤها من افتقارها طوال ركودها إلى تيارات جارية متجددة .

وكانت المحاولات التى تدور فى الصحف وفى النوادى وعلى منابر الجمعيات ، تطرح للبحث فى هذه المجالس .

فكانت مبارزات الدكتور زكى مبارك التى حمل فيها على كلٍّ من الشيـخ عبد العزيز البشرى وأحمد أمين بلا داعٍ يدعو إليها وكلا الرجلين حفى بكل تقدير ، كانت هذه المصارعات – من طرف واحد – تدعو إلى العجب منها والبحث فى هذه المجالس عن هواتفها .

وقد توصل مجتهد . . من المجتمعين إلى سر الهجوم بقوله : إن الدكتور فى غير حاجة لشهرة ، ولكنه بهجومه المدبر يضمن ألا يتصدى له أى قلم بعد أن عرفوا مرارة هجومه . والمفلس يغلب السلطان ، وهو يعتمد على أنه فى حال ليس من بعده ما هو أسوأ منه .

وإيه ياخد الريح من البلاط . . .

وبعد ، فقد كانت المناقشات فى هذه المجالس تجرى على وتيرة مناقشات الأطروحات التى تقدم للجامعات لنيل درجات علمية ، أمام هيئة من كبار الأساتذة المتخصصين ثم ينصرف المجتمعون وهم على شوق للقاء آخر وآخر حتى آخر العمر . . رحم الله أهل هذه المجالس ، وأعان من تبقى من فلولها على قيد الحياة .



الفصل الثانى عشر

استخدام الفكاهة في نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية

منذ أقدم العصور ، والفكاهة تستخدم فى نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية . وقد تحقق لها ما استهدفته من أغراض ، على أحسن الوجوه ، ولقد استخدمه النقاد وطالبوا بالإصلاح من خلال الفكاهة ، وسلكوا وسائل كان من بينها النقش والنحت والتمثيل والغناء والرسم والنظم والكتابة الأدبية ، لتقويم المعوج من انحرافات تميل بتقدم المجتمعات ، وتخرج بها عن جادة الاتزان ، بحيث يصبح الإصلاح ضرباً من ضروب العلاج العاجل والتصحيح الصحيح .

وكان لقدماء المصريين فضل السبق فى استخدام النحت والنقش للنقد الفكاهى بقصد الإصلاح والعلاج . وما تزال الصور الدالة على ذلك ، تحتل أماكن ظاهرة على جدران المعابد والهياكل ، كما انبثت فى البرديات ، قصص ناقدة ونظم ساخرة .

ولقد ظهر فى نهاية حكم الفاطميين ، أحد قواد صلاح الدين الأيوبى ، واسمه قره قوش . وكان من خيرة قواد صلاح الدين .

وكانت الأحوال السياسية الجارية فى الدولة وحولها ، وانتقال البلاد من نظام شيعى إلى نظام سنى ، يستدعيان استعمال الشدة والقسوة حتى

لا يفلت الزمام من أيدى الحكام ، الأمر الذى جعل اسم قره قرش رمزاً لكل حكم ظالم مستبد ، أو طاغية جبّار.

وقد لجأ أهل الفن من الشعب الذى قاسى من ظلم قره قوش إلى ، الفكاهة فى صورة كتابات وقصص وشعر وأزجال وتمثيل ، تناقلها الخلف عن السلف .

وفى أيام الظاهر بيبرس ، كتب ابن دانيال وكان كحّالاً (يبيع الكحل) مسرحية أسماها (طيف الخيال) استخدم فى إخراجها (خيال الظل) .

وقد أراد بها تحقيق أمرين ، الأول نقد الأحوال الاجتماعية والسياسية فى الدولة ، والثانى المساهمة فى الترفيه عن الشعب الذى كان الظاهر بيبرس قد حرّم عليه تعاطى المخدرات وهدّد المخالفين بعقوبات رادعة ، ووقع بالفعل عقوبات بالغة الشدة على هؤلاء المتعاطين .

ووجد ابن دانيال فرصة سانحة فى التعريض عن سبيل هذا الترفيه بما وصلت إليه البلاد من انحلال ، كان يعمل على تفشّيه ، تدخل الأجانب ونفوذهم .

كما ظهر خلال حكم المماليك (ابن سودون) الذى كان يندّد بما انصرف إليه الفقهاء من اهتمام بالمتن والشروح وإهمالهم شئون الدعوة إلى الإصلاح الذى هو أولى وأسبق . وراح يجرى حواراً بين دابة وعربة ، أو بين فرس ومركب شراع بصورة غير مألوفة فى التناول والحوار ، حتى لقد ذكر بعض النقّاد أن هذا الاتجاه وهذه المحاولة كانت بذرة لمسرح العبث واللامعقول الذى حمل لواءه فى عصرنا الحاضر (صمويل بيكيت)

وفى تحقيقات الجبرتى وابن إياس ، تفاصيل وافية عن هذه الحقبة من ذلك ما نقله الجبرتى من أهازيج كانت تجرى على ألسنة الشعب ، يتندرون بها على الحاكم التركى ويتناولونه بالزراية والهزء ، مثل قولهم :

يا باشـــا يا وش القملة مين قال لك تعمل دى العملة

ثم ظهر الشربينى ، الذى نظم قصيدة شعبية أسماها « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » . وكانت تعد من أكثر الأعمال الفنية الشعبية فى ميدان النقد الفكاهى ، جرأة وكشفاً ووثائقياً لأحوال الفلاح المصرى وما كان يحيط به من ضنك نتيجة عدم العناية بعيشه أو صحته أو تعليمه ، وراح ينادى بالإصلاح السريع ، والعمل على رفع الظلم عن الفلاح ، ومنحه بعضاً من صميم إنتاجه من مأكل أو ملبس ، حتى لا يصبح كالإبرة التى تكسو الناس بغزلها ونسجها وتبقى هى وحدها عارية .

ثم ظهر فى عصر تال ، يعقوب بن صنوع ، ليقدم تمثيلياته النقدية ، ويصدر صحيفة (أبو نضارة) فى مصر ، ثم يصدرها وهو فى باريس بعد أن نفاه الخديو إسماعيل من مصر ، ليستمر على الدرب فى نقد الأحوال فى مصر والمطالبة بالإصلاح ، وكان إسماعيل أكبر هدف أمامه .

وعاصر صنوع واستمر من بعده ، عبد الله النديم الذى أصدر صحيفة التبكيت والتنكيت ، التى رفع فيها لواء المطالبة بتعليم الفلاح وإنقاذه من استغلال الأجانب والمرابين ، اعتماداً على جهله بما يحيط به ، ولحجب العلم عنه توسلاً لهذا المصير ، وكانت الفكاهة فى عرض هذه الشئون بارعة ونافعة .

وقد استخدمت المقامات على طريقة بديع الزمان الهمذانى على يد

المويلحى ، فى كتابه (حديث عيسى بن هشام) للتعرض إلى نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية بصورة جذابة ، فيها فكاهة ومفارقات ومتناقضات . كما استخدمت الفكاهة الأحاديث التى تجرى على ألسنة الحيوان ، فى كتاب ابن المقفع ، على يد عثمان بك جلال ، الذى نظمها شعراً ، وكذلك صنع شوقى وله فى ذلك ديوان كامل .

ولقد بث شوقى فى أشعاره كثيراً من النقد الفكاهى نكتفى بعرض بيت منها ينتقد به إهمال الحكومة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد فى فى إصلاح وترميم كوبرى (غَلَطَه) الذى يعتبر شرياناً هاماً وجسيراً وحيداً فى إستانبول ، يقول فيه :

أمير المؤمنين رأيت جسراً أُمُرُّ على الصراط ولا عليه

* * *

ثم ظهرت مجلات وصحف فكاهية نذكر منها السيف والمسامير وحمارة منيتى ثم الكشكول وخيال الظل والفكاهة والبعكوكة ، لتحمل لواء النقد السياسى والاجتماعى فى عهدها ، وتنقل بأمانة تأوهات الشعب ، بصورة فكهة جذابة ، منذ أن كانت الدعوة إلى الإصلاح ، بالصورة الجادة المألوفة ، تنفِّر وتفض الناس من حولها .

ومن كتابات عبد الحميد الديب فى نقده لمجتمعه ووصفه لمحترفى السياسة والأدب ، قوله :

« تجد تلك الأقزام المتعملقة ، متحلِّقة ، تستمتع على الكؤوس ، بصيد ونهش سيرة الآخرين . كل لسان هناك نصلٌ سفَّاك ، عاطش للأذى ، فى لؤم ضحَّاك ، إذ أن ذاك الطراز المستريح ، ينبغ فى التهريج ،

ويذبح بطرف اللسان . . »

وهو يخاطب صديقته فاطمة ، مندداً بالعيش الذى عاشه فى أيامه .

« لو أنَّنا ، أنا وأنت يا فاطمة ، ظهرنا فى زمنٍ ، يأخذ كل إنسانٍ فيه حقَّه وكيانه الآدمى الحقيقى ، لكان لنا عشق جميل ، وعمل وبيت وأمل . . لكننا ولدنا فى زنقة الطاحون وعشنا فى الكهوف ، وداست عواطفنا وأحلامنا ، أحذية الموكب الأعمى . . »

* * *

وفى أوربا ، كانت رواية (دون كيشوت) أروع أعمال كاتب أسبانيا الكبير ، (سرفانتس) ، تجرى أحداثها من خلال رحلة نظمها الكاتب ، ليقوم بها فى الخيال (دون كيشوت) وتابعه (سانكو يانزو) وبغلته الشهيرة ، ليجرى على ألسنتهم ، حواراً يتناول بالنقد الفكه ، وبالأحداث المجونية ، ما كان يجرى فى أسبانيا من مساوئ فى المجالين السياسى والاجتماعى .

وكذلك كانت روايات وتمثيليات (موليير) الفكاهية ، وقصص (لافونتين) فى القرن السادس عشر ، تهدف إلى الإصلاح ، وكانت تنطوى على نقد ما كان يجرى فى البلاد وفى القصور الملكية من انحرافات . ومن العجيب أن تمثيليات موليير وقصص لافونتين كانت تمثل ، دون أى تعديل ، على مسارح القصور ، أمام الملك والحاشية ، ليروا بأعينهم ، مبلغ ما وصلت إليه الحال من سوء .

وفى إنجلترا ظهرت مقالات (تشارلز لامب) :

Essays of Charles Lamb لتنقد ، برغم التحفظ البريطانى المعهود ،

الأوضاع التى يسلط عليها المؤلف بأسلوبه الفكه الماجن ، أضواء تكشف عن الأدواء ، وتصف الدواء .

* * *

ومصر بحمد الله غنية بالنقد الفكه البنَّاء ، الذى وصلت فيه إلى أعلى الذرى ، فى النظم والكتابة والصور ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، حتى أيامنا هذه

وتعددت ألوان الفكاهة الناقدة ، من كاريكاتير إلى تمثيل إلى شعر إلى زجل . وهذا اللون الأخير ، تولاه أعلام الكلمة المنطوقة الهادفة ، وسادتها المجيدين ، أمثال بيرم التونسى (موليير مصر) وحسين شفيق المصرى (أبو نواس مصر) وصلاح جاهين وأبو بثينة ومحمود رمزى نظيم وحسين الطنطاوى وإمام الصفطاوى

كان بيرم التونسى ينتقد الغلاء الفاحش وارتفاع رسوم المجلس البلدى ، بشعر جاء فيه :

يا بائـع الفجـل بالمليم واحـدة
كم للعيـال وكم للمجلس البـلدى !
إذا الـرغيف أتى ، فالنصـف آكله
والنصـف أجعله للمجلس البـلدى
كـأن أمى أبـلَّ الله تـربتهـا
أوصت وقالت ، أخوك المجلس البلدى . . .

* * *

أما دكتور سعيد عبده ، فقد كان ولم يزل من خير من استخدم من

ناظمى الكلمة الناقدة ، الموال فى نقد الأوضاع الإجتماعية والسياسية باقتدار ودراية .

ونذكر له فيما يلى ، نماذج تلمس فيها مدى درايته واقتداره فى كتابة الموال ، واستهداف الإصلاح بأسلوبه المرح النابه ، وقارئه يلحظ قدراته العروضية فى استخدامه لبيتٍ فى الموال يصوغه باللغة العربية الفصحى ، ويرفع من قدر عمله الفنى .

كان بشعور الأب ، يكتب عن قلق الآباء الطويل ، أيام الامتحانات ، وقلق الأبناء فترة قصيرة ، وشتَّان بين الفترتين :

يا محنة الامتحان ما أتعسك محنه
يا قالقه نوم الولاد والقلقانين احنـــا
يا قايده نار انتظـــارك فى جوارحنـــا
يا ريت هناكى على قد الشقا . . . إلا
شقاكى أش وفرحك يوم ، إذا فرحنا

* * *

ويقول فى نقد مسئول كبير ، استطاع خلال الأربعينات ، بقدرته الفريدة فى النفاق والرِّياء ، أن يحتفظ بمركزه الحسّاس ، عشرين عاماً ، وسط الزعازع والأعاصير :

فين وشك اللى عليه رب العباد أنشاك
أبوسه بوسه هنا وارجع أبوسه هناك
يا معجزة فى البلد ، جلّت على الإدراك

يا آية فى أكل مخ الخلق . . يا قادر
سارح مع الديب وراجع والغنم ديّاك

* * *

وبعد ، فإن مصر ما تزال بين مختلف الأمم ، جوهرة لألاءة ، فى ميدان النقد الفكاهى منذ أقدم العصور ، حتى عصرنا الحاضر ، بإطلاقها النكتة المريشة ، والسخرية اللاذعة ، والكاريكاتير المتهكم البارع .

ولقد شهد للكاريكاتير المصرى ، وأساطين الفن الكاريكاتيرى فى العالم ، وشهدوا بقدراته ، رسما وكلمة ، ودقة وأمانة ، وبوءوه أعلى المراتب ، وأشادوا بدوره كلما عرضت مناسبة .

والكاريكاتير عندنا ، ذخيرة نعتز بها ، وبأربابه على مر الأيام ، وندخرهم للملمّات والأزمات ، ونسعد بإنتاج قرائحهم فى أيام الصفو والسلام .

* * *

ولعله لا يكون من العجائب أن الطبيعة فى مصر ، تشترك مع أهاليها فى إرسال السخرية ، طبعاً لا تطبعاً ، فهى الأخرى ناطقة صادقة . .

فالنيل فى جريانه ، يرسل خريراً كله سخر وحكمة . وريحها المعتدل ، يعزف على أوتار الصفصاف ، نغمة ضاحكة وسخراً خفياً . والنار فى الأجران عندما يتحلق حولها الفلاحون استجلاباً للدفء ، أو إعداداً للشاى ، ترسل أصواتاً ضاحكة مكتومة ، كأنها تسخر من موقديها . . وسواقى الغدير تئن فى ضحك مكتوم ، وسخر لا يبين ومصر التى ترعرعت

الحضارة على ثراها الطيب الطاهر ، تَعْبُرُ فى أيامها الحديثة ، مفازة ، كانت خطواتها الأولى على دربها واثقة أبيَّة ، وسوف تصل إلى شاطئ الأمان الذى اعتزمته ، وأصرَّت على بلوغه ، ما دام روح أبنائها المجدِّين ، يترقرق فى أساريره فى كل الظروف ، مزيجٌ من الجدِّ الواثق ، والسخر الجاد .



مراجع الكتاب

الأغانى	: لأبى الفرج الأصبهانى
المستطرف فى كل فن مستظرف	: للأبشيهى
ديوان أحمد شوقى	: لأحمد شوقى
ديوان حافظ إبراهيم	: لحافظ إبراهيم
عبد العزيز البشرى	: للدكتور جمال الدين الرمادى
سبيل الحياة	: لإبراهيم عبد القادر المازنى
جحا الضاحك المضحك	: لعباس محمود العقاد
الدراما بين النظرية والتطبيق	: لحسين رامز رضا
الكشكول	: للعاملى
العقد الفريد	: لابن عبد ربّه
البخلاء	: للجاحظ

Good for a Laugh — by Bennett Cerf For funs and Popularity — by Paul Showers Oeuvres Choisies — par Jules Renard Believe it or not — by Robert L. Ripley.

الفهرس

رقم الإيداع	١٩٧٦/٤٧٨٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٦ - ٥٢١ - ٣

١/٧٦/٤٦٨ مطابع دار المعارف—١٩٧٦

